كتاب

الخوف والرجاء

إعداد

صفوت عبد الفتاح محمود

المكتبة الإسلامية

دار ابن حزم

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يُضْلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إلـه إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [١٠٢/ آل عمران].

﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً واتَّقوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [١/ النساء].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [٧٠، ٧١/ الأحزاب] وبعد:

فإن المسلم الذي يريد النّجاة في الدّنيا والآخرة ينبغي أن يسير إلى الله تعالى بجناحي الخوف والرّجاء، ولا يبالغ في أحدهما حتّى لا يقع في المحظور، فمثلاً: إذا بالغ في الخوف ربما أدَّى به إلى القنوط من رحمة الله، والقنوط من رحمة الله غاية في الخسران، قال تعالى: ﴿إنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وإذا بالغ في

الرّجاء ربّما أدَّى به إلى التفريط في حقّ الله، والتفريط في حقّ الله - أيضاً - غاية في الخسران، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾. والنّجاة: أن يكون الإنسان خائفاً راجياً، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، وفي حال المرض يكون رجاؤه مقدّماً على خوفه، يقول النبيُّ ﷺ: «لا يموتنّ أحدكم إلَّا وهو يُحسنُ الظَّنَّ بالله عزّ وجلَّ» والمتأمل في القرآن والسنّة يجد هذا واضحاً، فإذا ذُكِرت آيات الخوف أُتْبعت بآيات الرّجاء. . . وهكذا.

وكتابنا هذا - كتاب الخوف والرّجاء - قد حاوَلْنا جاهدين أنْ نجمع فيه أكْبر قسْط من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتحدث عن ذلك.

ثم ذكرنا تفسيراً مبسطاً من كتب التفسير المعتمدة على الآيات القرآنية، وكذلك شرحاً مُبَسَّطاً للأحاديث النبوية، لتكتمل الفائدة، وإني لأرجو من الله جلّت قدرته أن ينفعنا به وإخواننا المسلمين، كما أسأله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

وكتب
صفوت عبد الفتاح محمود

الترغيب في الخوف وفضله
من الكتاب والسّنّة

١ ـ أولاً من الكتاب

يقول الغزالي رحمه الله:

اعلم أنّ فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار.

أمّا الاعتبار: فسبيله أنّ فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة، إذْ لا مقصود سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلاّ في لقاء مولاه والقرب منه، فكلّ ما أعَانَ عليه فله فضيلة، وفضيلته بقدر غايته، وقد ظهر أنّه لَا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلاّ بتحصيل محبته والأنْس به في الدّنيا، ولا تحصل المحبة إلاّ بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلاّ بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلاّ بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلاّ بانْقطاع حبّ الدّنيا من القلب، ولا ينقطع ذلك إلاّ بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات إلاّ بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف، فالخوف هو النّار المحرقة للشهوات، فإنّ فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحثّ على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات

الخوف، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفّة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلْفَىٰ.

وأمّا بطريق الإقْتباس من الآيات والأخبار: فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرّحمة والعلم والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان، وقال الله تعالى: ﴿وفي نُسْخَتِها هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إنَّما يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبادِه الْعُلَمَاءُ﴾[2][3] وصفهم بالعلم لخشيتهم. وقال عزّ وجلّ: ﴿رَضِيَ الله

(١) ١٥٤/ من سورة الأعراف.

(٢) ٢٨/ من سورة فاطر.

(٣) والمقصود: العلماء الذين يخافون قدرته، فمن علم أنّه عزّ وجلّ قدير أيْقَنَ بمعاقبته على المعصية، كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس: ﴿إنَّما يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبادِه الْعُلَمَاءُ﴾ قال: الذين علموا أنّ الله على كلّ شيْءٍ قدير. وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله تعالى فليس بعالِم. وقال مجاهد: إنّما العالِم من خشي الله عزّ وجلّ.

وعن ابن مسعود: كفَىٰ بخشية الله تعالى علْمًا وبالاغترار جهلًا.

وقيل لسعد بن إبراهيم: مَن أفْقه أهل المدينة؟ قال: أتْقَاهم لربِّه عزّ وجلّ. وعن مجاهد قال: إنّما الفقيه من يخاف الله عزّ وجلّ. وعن علي رضيَ الله عنه قال: إنّ الفقيه حق الفقيه من لم يُقنط النَّاس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله تعالى، ولم يؤمّنهم من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغْبة عنه إلى غيره، إنّه لا خير في عبادة لا علْم فيها، ولا علْم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها.

وأسند الدراميّ أبو محمد عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ =

عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[1][2].

وكل ما دلّ على فضيلة العلم دَلّ على فضيلة الخوف لأنّ الخوف ثمرةُ العلم، ولذلك جاء في خبر موسَىٰ عليه السلام: وأمّا الخائفون فإنّ لهم الرفيق الأعْلَىٰ لا يشاركون فيه، فانظر كيف أفْردهم بمرافقة الرفيق الأعْلَىٰ، وذلك لأنّهم العلماء، والعلماء لهم رتْبة مرافقة الأنبياء لأنّهم ورثة الأنبياء، ومرافقة الرفيق الأعْلَىٰ للأنبياء ومن يلحق بهم، ولذلك لمّا خُيِّر رسول الله ﷺ في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول: «أسألك الرفيق الأعْلَىٰ»[3][4].

= فضل العالِم على العابد كفضلي على أدْناكم ـ ثم تَلَا هذه الآية: ﴿إنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. إنّ الله وملائكة وأهْل سمواته وأهل أرْضِيه والنونَ في البحر يُصلون على الذين يعلّمون النّاس الخير» الخبر مرسل. [قرطبي ج١٤ ص ٣٤٣، ٣٤٤].

(١) ٨/ من سورة البيّنة.

(٢) يقـول الطبري: وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ يقول تعالى ذكره: هذا الخير الذي وصَفْته ووعدته الذين آمنوا وعملوا الصالحات يوم القيامة ﴿لِمَن خَشِيَ ربّه﴾ يقول: لمن خاف الله في الدنيا في سرّه وعلانيته فاتّقاه بأداء فرائضه واجْتناب معاصيه. [طبري ج٣٠ ص ١٧١]

وفي ذلك تحذير من خشية غير الله، وتنفير من إشراك غيره به في جميع الأعمال، كما أن فيه ترغيباً في تذكر الله ورهبته لدى كلّ عمل من أعمال الْبـر حتى يكـون العمل له خالصاً، إلى أنّ فيه إيماء إلى أن أداء بعض العبادات كالصلاة والصوم بحركات وسكنات مجردين عن الخشية لا يكفي في نيل ما أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجزاء، لأنّ الخشية لم تحلّ قلوبهم، ولم تهذب نفوسهم. [تفسير المراغي ج٣٠ ص ٢١٧]

(٣) متفق عليه من حديث عائشة.

(٤) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ١٦٠، ١٦١.

وما أكثر الآيات القرآنية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم لتذكرنا بالخوف تارة وببيان فضيلته تارة أخرى، قال تعالى:

١- ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْها شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[1].

قال الزجّاج: كانت اليهود تزعم أنّ آباءها الأنبياء تشفع لهم يوم القيامة، فآيسهم الله بهذه الآية من ذلك: فقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً﴾ [فيه] إضمار، تقديره: اتَّقُوا عذاب يوم، أوْ: ما في يوم. والمراد باليوم: يوم القيامة و «تُجْزِي» بمعني تقضي. قال ابن قتيبة: يقال: جزى الأمر عنّي يجزي، بغير همز، أي: قضَىٰ عنّي، وأجزأني يجزئني، مهموز، أي: كفاني.

قوله تعالى ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾. قالوا: المراد بالنفس هاهنا: النفس الكافرة، فعلَى هذا يكون من العام الذي أريد به الخاص.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقْبَلُ مِنْها شَفَاعَةٌ﴾.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتاء، وقرأ الباقون بالياء، إلاّ أنّ قتادة فتح الياء، ونصب الشفاعة، ليكون الفعلُ للهِ تعالى، وفي الآية: إضمار، تقديره: لا يقبل منها فيه شفاعة. والشّفاعة: مأخوذة من الشفع الذي يخالف الوتر، وذلك أنّ سؤال الشفيع يشفع سؤال المشفوع له.

فأمّا «العدل» فهو الفداء، وسمي عدلاً، لأنه يعادل المفدى.

قوله تعالى: ﴿وَلَاهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي: يمنعون من عذاب الله[2].

(١) ٤٨/ من سورة البقرة.

(٢) زاد المسير ج ١ ص ٧٦، ٧٧.

ويقول الرازي : اعْلم أنّ اتّقاء اليوم اتّقاء لما يحصل في ذلك اليوم من العقاب والشدائد لأنّ نفس اليوم لا يتّقى ولا بدّ من أن يرده أهل الجنة والنّار جميعاً، ثمّ إنّه تعالى وصف اليوم بأشد الصفات وأعظمها تهويلاً، وذلك لأنّ العرب إذا دفع أحدهم إلى كريهة وحاولت أعوانه دفاع ذلك عنه بذلت ما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية فذبت عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته، فإن رأى من لا طاقة له بممانعته عاد بوجوه الضراعة وصنوف الشفاعة فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة، فإن لمْ تغن عنه الحالتان من الخشونة والليان لم يبق بعده إلّا فداء الشّيْء بمثله. إمّا مال أوْ غيره، وإن لمْ تغن عنه هذه الثلاثة تعلل بما يرجوه من نصر الأخلاء والأخوان، فأخبر الله سبحانه أنّه لا يغني شيْء من هذه الأمور عن المجرمين في الآخرة[1].

وفي الآية أعظم تحذير عن المعاصي وأقْوَى ترغيب في تلافي الإنسان ما يكون منه من المعصية بالتوبة لأنّه إذا تصور أنّه ليس بعد الموت اسْتدراك ولاَ شفاعة ولاَ نصرة ولا فدْية علم أنّه لا خلاص له إلّا بالطاعة، فإذا كان لا يأمن كلّ ساعة من التقصير في العبادة، ومن فوت التوبة من حيث إنّه لا يقين له في البقاء صار حذراً خائفاً في كلّ حال.

والآية وإن كانت في بني إسرائيل فهي في المعنى مخاطبة للكلّ، لأنّ الوصف الذي ذكر فيها وصف لليوم، وذلك يعم كل من يحضر في ذلك اليوم[2].

---

(١) التفسير الكبير للرازي ج ٣ ص ٥٧.

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٩.

وقال تعالى :

٢ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

قوله : ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال ابن مسعود : أن يطاع فلا يعصىٰ ، وأن يذكر فلا ينْسَىٰ ، وأن يشكر فلا يكفر، وإسناده صحيح موقوف .

وروي عن أنس أنّه قال : لا يتقي اللهَ العبْدُ حقَّ تقاته حتّى يخزن لسانه .

وعن ابن عبّاس في قوله تعالى ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أن يجاهدوا في سبيله حقَّ جهاده ولا تأخذهم في الله لوْمة لائِم ، ويقوموا بالقسط ولوْ على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أيْ حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه فإنَّ الكريم قد أجْرى عادته بكرمه أنّه من عاش على شَيْء مات عليه ، ومن مات على شيء بعث عليه فعياذاً بالله من خلاف ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا شعبة قال : سمعت سليمان عن مجاهد : إنَّ النَّاس كانوا يطوفون بالبيت وإنَّ ابن عبَّاس جالس معه محجن فقال : قال رسول الله ﷺ : «﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ولو أنَّ قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن ليس له طعام

---

(١) ١٠٢/ من سورة آل عمران .

إلاّ من الزّقوم». وكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبّان في صحيحه والحاكم في مستدركه من طرق عن شعبة به وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ «من أحبَّ أن يزحزح عن النّار ويدخل الجنة فلتدركه منيّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى النَّاس ما يحبُّ أن يؤتَى إليه».

وروى الإمام أحمد أيضاً من حديث جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتنَّ أحدكم إلاَّ وهو يحسن الظَّنّ بالله عزّ وجلّ» ورواه مُسلم من طريق الأعمش به[1].

وقال تعالى:

٣ـ ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ* الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُم وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ* الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ*

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٦.

إنّما ذَالِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فَلاَ تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

روي أنَّ أبا سفيان وأصحابه لمّا رجعوا من أُحد، فبلغوا الرَّوْحاء[2] ندموا وهمُّوا بالرجوع حتّى يستأصلوا من بقي من المؤمنين، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأراد أن يُرْهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة، فندب أصحابه للخروج في إثْر أبي سفيان وقال: لا يخرجنَّ معنا إلاَّ من حضر يومنا بالأمس، فخرج رسول الله ﷺ مع جماعة من أصحابه حتّى بلغوا حمراء الأسد[3]، وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتّى لا يفوتهم الأجر، وألقىٰ الله الرّعب في قلوب المشركين فذهبوا إلى مكة مسرعين فنزلت الآية.

قوله ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوهُمْ﴾ أي: وهم الذين قال لهم نعيم بن مسعود الأشجعي ومن وافقه وأذاع قوله وهم أربعة: إنّ أبا سفيان وأعوانه جمعوا الجموع لقتالكم فاخشوهم ولا تخرجوا للقائهم. روي عن ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة أنّ الآية نزلت في غزوة بدر الصغرى.

ذاك أنّ أبا سفيان قال حين أراد أن ينصرف من أُحُد: يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، فقال النبي ﷺ: ذاك بيننا وبينك إن شاء الله، فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتّى نزل «مجنّة» من ناحية «مرّ الظهران» فألْقىٰ الله الرّعب في قلبه، فبدا

(١) ١٦٩ ـ ١٧٥ / من سورة آل عمران.

(٢) موضع بين مكة والمدينة.

(٣) موضع على ثمانية أمْيال من المدينة.

له الرجوع فلقي نعيم بن مسعود وقد قدم معتمراً فقال له أبو سفيان : إنّي واعـدت محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر، وإنّ هذا عام جدب ، ولا يصلحنا إلاّ عام نرْعَىٰ فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقدْ بَدا لي أن أرجـع ، وأكـره أن يخرج محمد ولا أخرج فيزيدهم ذلك جرْأة ، فالْحَق بالمدينة فثبطهم ، ولك عندي عشرة من الإبل أضعها في يدي سهيل بن عمرو، فأتى نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبي سفيان فقال لهم : ما هذا بالرأي . أتوكم في دياركم وقراركم ولم يُفْلِت منكم إلاَّ شريد ، فتريدون أن تخرجوا إليهم وقد جمعوا لكم الجموع عند الموسم ، فوالله لا يُفْلتُ منكم أحد ، فكان لكلامه وقع شديد في نفوس قوم منهم ، فقال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده لأخـرجنَّ وَلَوْ وحْدي» فخرج ومعه سبعون راكباً يقولون : «حسبنا الله ونعم الوكيل» حتّى وافَى بدْراً الصغرى «بدر الموعد» فأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان فلم يلْق أحداً ، لأنّ أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكّة وكان معه ألْفَا رجل ، فسمّاه أهل مكة جيش السَّوِيق ، وقالوا لهم إنَّما خرجتم لتشربوا السويق .

ووافىٰ المسلمـون سوق بدر، وكـانت معهم نفقـات وتجارات فباعوا واشْتَروا أُدَماً وزبيباً فربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين ، وانْصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين[1] .

وقوله ﴿فَاخْشَوْهُم﴾ أي : فخافوهم واحْذروهم ، فإنّه لاَ طاقة لكم بهم .

﴿فَزَادَهُمْ إيماناً﴾ أي : فزادهم قولُ النّاس إيماناً ، أي : تصديقاً

---

(١) تفسير المراغي ج ٤ ص ١٣٣ ـ ١٣٥ .

ويقيناً في دينهم، وإقامةً على نُصرتهم، وقوّةً وجراءةً واستعداداً[1].

والخلاصة: إنَّ هذا القول الذي سمعوه زاد شعورهم بعزّة الله وعظمته وسلطانه ويقينهم بوعْد الله ووعيده، وتبع ذلك زيادة في العمل، ودأب على إنْفاذ ما طلب الرسول ﷺ.

ونحو الآية قوله تعالى:

﴿وَلَما رَأىٰ الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إلَّا إيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾[2] ﴿وقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل﴾ أي: قالوا معبّرين عن صادق إيمانهم بالله: الله يكفينا ما يهمّنا من أمْر الذين جمعوا الجموع لنا، فهو لا يعجزه أن ينصرنا على قلتنا وكثرتهم، أوْ يُلْقي في قلوبهم الرّعب، فيكفينا شرّ بغيهم وكيدهم، وقد كان الأمر كما ظنّوا، فألْقىٰ الله الرّعب في قلب أبي سفيان وجيشه على كثرة عددهم وتوافر عددهم، فولُّوا مدْبرين، وكان في ذلك عزّة للهِ ولرسوله وللمؤمنين[3].

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعمَ الْوَكِيل﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين أُلْقِيَ في النّار، وقالها مُحمدٌ ﷺ حين قالوا ﴿إنَّ النَّاس قد جمعوا لكم فاخشوهُم فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعْم الوكيل﴾[4].

---

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٨٠.

(٢) ٢٢ / من سورة الأحزاب.

(٣) تفسير المراغي ج ٤ ص ١٣٥.

(٤) رياض الصالحين ص ٥٥.

أمـا قولـه تعـالى : ﴿إِنَّمَـا ذَالِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَـوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ .

فالشيطان هو الذي يضخم من شأن أوليائه، ويلبسهم لباس القوة والقـدرة، ويوقـع في القلوب أنّهم ذوو حوْل وطول، وأنّهم يملكون النّفـع والضّـرّ. ذلـك ليقضي بهم أغـراضه، وليحقق بهم الشر في الأرض والفساد، وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب، فلا يرتفع في وجـوههم صوت بالإنكار، ولا يفكر أحد في الانتقاض عليهم، ودفْعهم عن الشرّ والفساد.

والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل، وأنْ يتضخم الشـر، وأن يتبـدَّى قوياً قادراً قاهراً بطّاشاً جبّاراً، لا تقف في وجهه معـارضـة، ولا يصمـد له مدافـع، ولا يغلبـه من المعـارضين غالب. . . الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا. فتحت ستار الخوف والرهبة، وفي ظلّ الإرْهَاب والبطش، يفعل أولياؤه في الأرض ما يقـرّ عينـه! يقلبـون المعـروف منكـراً، والمنكر معروفاً، وينشـرون الفساد والباطل والضلال، ويخفتون صوت الحق والرّشد والعـدل، والشيطان ماكـر خادع غادر، يختفي وراءه أولياؤه، وينشر الخـوف منهم في صدور الذين لا يحْتاطون لوسوسته. . . ومن هنا يكشفـه الله، ويوقفـه عارياً لا يستـره ثوب من كيده ومكره، ويُعرفُ المؤمنينَ الحقيقة: حقيقة مكْره ووسوسته، ليكونوا منها على حذر، فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم. فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربّه، إنّ القوّة الوحيدة التي تخشىٰ وتخاف هي القوة التي تملك النّفـع والضـر. هي قوة الله. وهي القـوة التي يخشـاها

المؤمنون بالله، وهم حين يخشونها وحدها أقْوىٰ الأقوياء، فلا تقف لهم قوة في الأرض. . . لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

وخلاصة ذلك: إنّه إذا عرضت لكم أسباب الخوف، فاستحضروا في نفوسكم قدرة الله الذي بيده كلّ شَيْء، وهو يجير ولا يُجار عليه، وتذكروا وعْده بنصركم، وإظْهار دينكم على الدّين كلّه، وأنّ الحقّ يَدْمَغ الباطل فإذا هو زاهق، واذْكُروا قوله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2].

ثم خذوا أُهبتكم، وتوكلوا على ربكم، فإنّه لا يدع لخوف غيره مكاناً في قلوبكم. وفي هذه الآية من العبرة:

١ـ إنّ صادق الإيمان لا يكون جباناً، فالشجاعة وصْف للمؤمن، لا يبلغ غيره فيها مداه، إذ أنّ العلّة الحقيقية للجبن هي الخوف من الموت والحرص على الحياة، وقلب المؤمن لا يتسع لهما.

٢ـ إنّ في استطاعة الإنسان أن يقاوم أسباب الخوف.

٣ـ إذا عرضت له أسباب الخوف فعليه ألا يسترسل لها حتى لا يتمكن أثرها في نفسه، وتتجسم صورتها في خياله، بل يغالبها بصرفها عن ذهنه، وشغله بما يضادها ويذهب بآثارها[3].

وقال تعالى:

---

(١) في ظلال القرآن ج ٢ ص ١٥١، ١٥٢ باختصار.

(٢) ٢٤٩/ من سورة البقرة.

(٣) تفسير المراغي ج ٤ ص ١٣٧ باختصار.

٤ـ ﴿قُلْ إنّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَه وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ* وَإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ وَإنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُو عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾(١).

يقـول الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيِّه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين العادلين بالله الذين يدعونك إلى عبادة أوْثانهم: إنَّ ربِّي نهاني عن عبادة شيء سواه وإنِّي أخاف إن عصيت ربِّي ـ فعبدتها ـ عذاب يوم عظيم، يعني: عذاب يوم القيامة، ووصفه تعالى بالعظيم: لعظم هوله وفظاعة شأنه(٢).

وفي الآية مبالغة أخرى في قطع أطماعهم، وتعريض لهم بأنَّهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم. ووجه التعريض إسناد ما هو معلوم الانتفاء، بـ «إنْ» التي تفيد الشَّك تعريضاً وجيء بالماضي، إبرازاً له في صورة الحـاصـل على سبيل الغرض، تعريضاً بمن صدر عنهم ذلك. وحيث كان تعريضاً لهم، والمراد تخويفهم إذا صدر منهم ذلك ـ لم يكن فيه دلالة على أنّه يخاف هو ﷺ على نفسه المعصية، مع أنّـه معصـوم. كمـا لا يتوهم مثله في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(٣). وحينئذ فلا حاجة إلى ما أجيب عن ظاهر دلالته على ما ذكر، بأنَّ الخوف تعلّق بالعصيان الممتنع الوقوع امْتناعاً عاديّاً، فلا يدل إلاَّ على أنّـه يخاف لو صدر عنه العصيان، وهذا لا يدل على حصول الخوف(٤). وقوله: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ قرأ

(١) ١٥ ـ ١٨ من سورة الأنعام.

(٢) تفسير الطبري ج ٧ ص ١٠٢. (٣) ٦٥/ من سورة الزّمر.

(٤) تفسير القاسمي ج ٦ ص ٤٧٦، ٤٧٧.

أهل المدينة وأهل مكة وابن عامر على البناء للمفعول: أي من يصرف عنه العذاب. واخْتار هذه القراءة سيبويه. وقرأ الكوفيون على البناء للفاعل وهو اختيار أبي حاتم فيكون الضمير على هذه القراءة لله. ومعنى «يَوْمَئِذٍ» يوم العذاب العظيم. «فَقَدْ رَحِمَهُ» الله، أي نجّاه وأنْعم عليه وأدخله الجّنة. والإشارة «بذلك» إلى الصرف أوْ إلى الرّحمة: أي فذلك الصرف أو الرّحمة «الْفَوزُ الْمبين» أي الظاهر الواضح[1].

والجملة مستأنفة، مؤكدة لتهويل العذاب.

ثم ذكر تعالى دليلاً آخر في أنّه لا يجوز للعاقل أن يتخذ وليًا غير الله تعالى، بقوله:

﴿وَإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ وَإنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. «الضّر»: اسم جامع لما ينال الإنسان من مكروه، **﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ﴾** أي: فلا يقدر على دفعه إلاَّ هو وحده. **﴿وَإنْ يَمْسَسْك بِخَيرٍ﴾** من عافية ورخاء ونحوهما: و «الخير» اسم جامع لما ينال الإنسان من محبوب له، **﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** أي: ومن جملته ذلك، فيقدر عليه، فيمسك به، ويحفظه عليك من غير أن يقدر على دفعه أو رفعه أحد. كقوله تعالى **﴿فَلاَ رَادَّ لَفَضْلِهِ﴾**[2]. وكقوله سبحانه: **﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾**[3].

وفي الصحيح أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: اللّهم لا مَانعَ لما

---

(1) فتح القدير للشوكاني ج٢ ص ١٠٤.

(2) ١٠٧/ من سورة يونس.

(3) ٢/ من سورة فاطر.

أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذَا الجدِّ منك الجدُّ.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: كنت خَلْفَ النبيّ ﷺ فقال: يا غلام! إنِّي أعلِّمك كلمات: احْفظ الله يحفظك، احْفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسْأل الله، وإذا اسْتَعنتَ فاسْتعن بالله. واعْلم أنَّ الأمّة لو اجْتمعت على أن ينفعوك بشَيْء لم ينفعوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله تعالى لك، ولوْ اجْتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضرّوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفّت الصّحف. رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.[1].

وأمّا قوله: ﴿وَهُو الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرِ﴾ يعني تعالى ذكره بقوله «وَهُوَ» نفسه، يقول: والله القاهر فوق عباده، ويعني بقوله «القاهر» المذلل المستعبد خلقه العالي عليهم، وإنّما قال فوق عباده، لأنّه وصف نفسه تعالى بقهره إيّاهم، ومن صفة كلّ قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه، فمعنى الكلام إذاً: والله الغالب عباده المذللهم العالي عليهم بتذليله لهم وخلقه إيّاهم فهو فوقهم بقهْره إيّاهم وهم دونه «وهو الحكيم» أي: والله الحكيم في علوّه على عباده وقهره إيّاهم بقدرته وفي سائر تدبيره «الْخَبِير» بمصالح الأشياء ومضارّها الذي لا يخْفىٰ عليه عواقب الأمور وبواديها ولا يقع في تدبيره خلل ولا يدخل حكمه دخل[2].

وقال تعالى:

٥ـ ﴿وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ

(١) محاسن التأويل للقاسمي ج ٦ ص ٤٧٧ ـ ٤٧٩.

(٢) طبري ج ٧ ص ١٠٣.

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي بالترغيب والترهيب. قال الحسن: مبشرين بسعة الرزق في الدّنيا والثواب في الآخرة، يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[2].

ومعنى ﴿مُنْـذِرِينَ﴾ مخوفين عقاب الله، فالمعنى: إنّما أرسلنا المرسلين لهذا لا لما يقترح عليهم من الآيات، وإنّما يأتون من الآيات بما تظهر معه براهينهم وصدقهم[3].

﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أي: فمن صدق من أرسلناه إليه من رسلنا وعمل صالحاً فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذي ينزل بالمكذبين الجاحدين، ولا من عذاب الآخرة الذي أعدّه للكافرين ولا هم يحزنون يوم لقاء الله على شيء فاتهم، لأنَّ الله يحفظهم من كلّ فزع وهول كما قال سبحانه ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[4] وكذلك هم لا يحزنون في الدنيا كحزن المشركين في شدّته وطول مدّته، فإذا عرض لهم الحزن بسبب صحيح كموت ولد أوْ قريب أوْ فقدْ مال أوْ قلّة نصير يكون حزنهم مقْروناً بالصبر وحسن

---

(١) ٤٨، ٤٩/ من سورة الأنعام.

(٢) ٩٦/ من سورة الأعراف.

(٣) قرطبي ج ٦ ص ٤٢٩.

(٤) ١٠٣/ من سورة الأنبياء.

الأسـوة فلا يضـرهم في أنفسهم ولا في أبْدانهم، ولا يغيّر شيْئاً من أخْلاقهم وعاداتهم.

﴿والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أي: والذين كذبوا بآياتنا التي أرسلنا بها الرسل يصيبهم العذاب في الدنيا أحياناً عند الجحود والعناء، وفي الآخرة على سبيل الدوام والاطراد، جزاء كفرهم وإفسادهم، وخروجهم عن أمْر الله وطاعته، وارْتكابهم مناهيه ومحارمه[1].

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، يقول تعالى ذكره لنبيِّه محمد ﷺ: وأنذر يا محمد بالقرآن الذي أنزلناه إليك القوم الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم علماً منهم بأنَّ ذلك كائن فهم مصدقون بوعد الله ووعيده، عاملون بما يرضي الله، دائمون في السعي فيما ينقذهم في معادهم من عذاب الله ﴿ليس لهم من دونه وليّ﴾ أي: ليس لهم من عذاب الله إن عذّبهم وليّ ينصرهم فيستنقذهم منه ولا شفيع يشفع لهم عند الله تعالى فيخلصهم من عقابه ﴿لعلّهم يتقون﴾ يقـول: أنـذرهم كي يتّقـوا الله في أنفسهم فيطيعـوا ربّهم ويعملوا لمعادهم ويحذروا سخطه باجْتناب معاصيه. وقيل ﴿وأنذر به الذين يخَافُون أنْ يُحشَرُوا﴾، ومعناه: ويعلمون أنّهم يحشرون، فوضعت المخافة موضع العلم، لأنّ خوفهم كان من أجل علمهم بوقوع ذلك ووجوده من غير شكّ منهم في ذلك.

وهذا أمْر من الله تعالى لنبيّه محمداً ﷺ بتعليم أصحابه ما أنزل

---

(١) تفسير المراغي ج ٧ ص ١٢٨.

الله إليه من وحْيه وتـذكيرهم والإقبـال عليهم بالإنـذار وصـدّه عن المشركين به بعد الإعذار إليهم وبعد إقامة الحجة عليهم حتّى يكون الله هو الحاكم في أمْرهم بما يشاء من الحكم فيهم[1].

والآية بمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾[2].

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾[3][4].

وقال تعالى:

٦ـ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[5].

قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون ولا يصلُّونَ إذا غابوا ولا يؤدّون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنّهم ليسوا بمؤمنين.

ثم وصف الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدّوا فرائضه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾

---

(١) طبري ج ٧ ص ١٢٧.

(٢) ١٨/ من سورة فاطر.

(٣) ١١/ من سورة يٰس.

(٤) تفسير المراغي ج ٧ ص ١٣٣.

(٥) ٢/ من سورة الأنفال.

يقـول: زادتهم تصـديقـاً ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره، وقـال مجاهد ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَرَقَت، أي فزعت وخافت، وهذه صفة المؤمن حقّ المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي خاف منـه، ففعـل أوامره، وترك زواجره كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَـةً أَوْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الـذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١). وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾(٢).

ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدِّي يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم أوْ قال يهِمّ بمعصية فيقال له اتّق الله فيجلّ قلبه(٣).

إنّها الارْتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكّر بالله في أمْر أوْ نهْي، فيغشاه جلاله، وتنتفض فيه مخافته، ويتمثل عظمة الله ومهـابتـه، إلى جانب تقصيره هو وذنبـه، فينبعث إلى العمـل والطاعة، . . . أوْ هي كما قالت أمّ الدرداء ـ رضي الله عنها ـ فيما رواه الثوري عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن شهر بن حوشب عن أمّ الـدرداء قالت: «الـوجـل في القلب كاحْتـراق السّعفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى. قالت: إذا وجدت ذلك فادْعُ الله عند ذلك، فإنّ الدعاء يذهب ذلك».

---

(١) ١٣٥/ من سورة آل عمران.

(٢) ٤٠، ٤١/ من سورة النّازعات.

(٣) ابن كثيرج ٢ ص ٢٩٧.

إنّها حال ينال القلب منها أمر يحتاج إلى الدعاء ليستريح منها ويقرّ! وهي الحال التي يجدها القلب المؤمن حين يذكّر بالله في صدد أمْر أوْ نهْي، فيأتمر معها وينتهي كما يريد الله، وجلاً وتقْوى لله[1].

قال الجُشميّ: ومتى قيل: لِمَ جاز وصفهم هاهنا بالوجل، والطمأنينة في قوله ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله﴾؟[2] فجوابنا فيه وجوه:

منها: أنّه تطمئن قلوبهم عند ذكر نعمه، وتوجل لخوف عقابه بارْتكاب معاصيه.

ومنها: أنّ قلوبهم تطمئن لمعرفة توحيده، ووعده، ووعيده، فعند ذلك توجل لأوامره ونواهيه، خوف التقصير في الواجبات، والإقدام على المعاصي، والمستقبل بتغير حاله. انتهى[3].

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيمَاناً﴾.

فالقلب المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً، وما ينتهي به إلى الإطمئنان... إنَّ هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلا وساطة، ولا يحول بينه وبينه شَيْء إلَّا الكفر الذي يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه، فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن، ووجد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلى الإطمئنان... وكما أنّ إيقاعات القرآن على القلب

---

(١) في ظلال القرآن ج ٣ ص ٨٠٢.

(٢) ٢٨/ من سورة الرعد.

(٣) محاسن التأويل ج ٨ ص ٩.

المؤمن تزيده إيماناً، فإنّ القلب المؤمن هو الذي يدرك هذه الإيقاعات التي تزيده إيماناً.

لذلك يتكرر في القرآن تقرير هذه الحقيقة في أمثال قوله تعالى: ﴿إنَّ في ذَٰلِكَ لآيَات لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .... ﴿إنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيات لِقَوم يُؤْمِنُونَ﴾ ...

ومن ذلك قول أحد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: كنَّا نؤْتَىٰ الإيمان قبل أن نؤْتَىٰ القرآن.

وبهذا الإيمان كانوا يجدون في القرآن ذلك المذاق الخاص، يساعدهم عليه ذلك الجو الذي كانوا يتنسمونه، وهم يعيشون القرآن فعْـلاً وواقعـاً، ولا يزاولـونه مجرد تذوق وإدْراك[1]. ثم قال سبحانه ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَـوكّلُونَ﴾ عليه وحده... كما يفيده بناء العبارة، لا يشركون معه أحداً يستعينون به ويتوكلون عليه... أوْ كما عقب عليها الإمام ابن كثير في التفسير: «أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلاَّ إيَّاه، ولا يلُوذُون إلاَّ بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلاَّ منه، ولا يرغبون إلاَّ إليه، ويعلمون أنّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك لا شريك له ولا معقّب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: «التوكل على الله جماع الإيمان».

وهـذا هو إخلاص الاعتقاد بوحدانية الله، وإخلاص العبادة له دون سواه، فما يمكن أن يجتمع في قلب واحد، توحيد الله والتوكل على أحد معه سبحانه، والذين يجدون في قلوبهم الإتّكال على أحد

---

(١) في ظلال القرآن ج ٣ ص ٨٠٣.

أوْ على سبب يجب أن يبحثـوا ابْتداء في قلوبهم عن الإيمان بالله!
وليس الإتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنّه لا يجعـل الأسباب هي التي تنشىء النتائج فيتكل عليها. إنّ الذي ينشىء النتائج ـ كما ينشىء الأسباب ـ هو الله. ولا علاقة بين السبب والنتيجـة في شعـور المؤمن، اتّخاذ السبب عبادة بالطاعة. وتحقق النتيجـة قدر من الله مستقـل عن السبب لا يقـدر عليه إلاّ الله... وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في اسْتيفائها[1].

وقال تعالىٰ:

٧ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾[2].

روَى التـرمـذي عن عمـران بن حُصين أنَّ النبي ﷺ لمّا نزلت ﴿يَـا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ - إلى قوله تعالى - وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيد﴾، قال: أنزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال: «أتدرون أيَّ يوم ذلك»؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذاك يوم يقول الله لآدم ابْعَثْ بَعْثَ النّار؟ قال يا ربّ وما بعثُ النَّار، قال تسعمـائـةٍ وتسعـةٌ وتسعـون إلى النـار وواحد إلى الجنة» فأنشأ

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٨٠٤ بتصرف.

(٢) ١، ٢/ من سورة الحج.

المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسدِّدوا فإنَّه لم تكن نُبُوَّةٌ قطُّ إلَّا كان بين يديها جاهلية - قال - فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمّت وإلَّا كُملت من المنافقين، وما مَثَلُكم والأمم إلَّا كمثل الرَّقْمة في ذراع الدابة أوْ كالشَّامة في جنب البعير - ثم قال - إنِّي لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة - فكبروا، ثم قال - إنِّي لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة - فكبروا، ثم قال - إنِّي لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا. قال: لا أدري قال الثلثين أمْ لا. قال: هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غير وجْه عن الحسن عن عِمران بن حُصَين. وفيه: فيئِس القوم حتّىٰ ما أبْدَوْا بضاحكة، فلما رأىٰ رسول الله ﷺ قال: «اعملوا وأبْشروا، فوالذي نفسي بيده إنّكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيْء إلَّا كثّرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن مات من بني آدم وبني إبليس» قال: فَسُرِّيَ عن القوم بعضُ الذي يجدون، فقال: «اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في النَّاس إلَّا كالشَّامة في جنب البعير أوْ كالرَّقْمة في ذراع الدابة» قال: هذا حديث حسن صحيح.

وفي صحيح مُسْلم عن أبي سعيد الخُدْريَّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول لبَّيْكَ وسَعْدَيك والخيرُ في يديك - قال - يقول: أخرج بَعْثَ النَّار، قال وما بعْثُ النار؟ قال: من كلِّ ألْفٍ تِسْعمائة وتسعةً وتسعين، قال فذاك حين يشيبُ الصغير وتَضَع كُلُّ ذات حمْل حمْلها وترى النّاس سُكارىٰ وما هُمْ بسكارَىٰ ولكنّ عذاب الله شديد». قال: فاشْتدّ ذلك عليهم، قالوا: يا رسول الله، أيُّنا ذلك الرجل؟ فقال: «أبْشِروا فإنَّ من يأجوجَ ومأجوجَ ألفاً ومنكم

رجل». وذكر الحديث بنحو ما تقدم في حديث عِمْران بن حصين[1]، ومعنى «اتَّقُوا رَبَّكم» أي: احذروا عقابه[2].

وقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل لموجب الأمر بذكر أمْر هائل، فإنَّ ملاحظة عظم ذلك وهوْله وفظاعة ما هو من مباديه ومقدماته من الأحوال والأهوال التي لا ملْجأ منها سوى التدرع بلباس التّقوىٰ ممّا يوجب مزيد الإعتناء بملابسته وملازمته لا محالة.

والزلزلة: التحريك الشديد والإزْعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارها ويخرجها عن مراكزها[3]. وأصْل الكلمة من زَلّ عن الموضع، أي زال عنه وتحرك. وزلْزلَ الله قَدَمه، أي حرّكها. وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشّيء. وقيل: هيَ الزلْزلة المعروفة التي هيَ إحْدَى شرائط السّاعة، التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة، هذا قول الجمهور[4].

روى أبو العالية عن أُبيّ بن كعب، قال: ستّ آيات قبل القيامة، بينما النّاس في أسواقهم إذْ ذهب ضوء الشمس، فبينما همْ كذلك إذْ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذْ وقعت الجبال على وجْه الأرض، فتحركت، واضطربت ففزع الجنّ إلى الإنس، والإنس إلى الجنّ، واختلطت الدواب والطير والوحش، فماج بعضهم في بعض، فقالت الجنّ للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحور، فإذا هي نار

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٢، ٣.

(٢) زاد المسير ج ٥ ص ٤٠٢.

(٣) روح المعاني ج ١٧ ص ١١٠.

(٤) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٣.

تأجّج، فبينما هُم كذلك إذْ تصدَّعت الأرض إلى الأرض السَّابعة، والسَّماء إلى السَّماء السَّابعة، فبينما هم كذلك إذْ جاءتهم الريح فماتوا[1].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ الذهول: شغل يورث حزْناً ونسياناً، والمرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها وهي بخلاف المرضع بلا هاء فإنَّها التي من شأنها أن ترضع وإن لمْ تباشر الإرضاع في حال وصْفِها به، والتعبير به هنا: ليدل على شدة الأمر وتفاقم الهول، والظاهر أن «ما» موصولة، والعائد محذوف، أي عن الذي أرضعته، والتعبير بـ «ما»: لتأكيد الذهول، وقيل: مصدرية، أي تذهل عن إرْضاعها، والأول دلّ على شدّة الهول وكمال الإنْزعاج.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي تَلقي ذات جنين جنينها لغير تمام[2].

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ أي من هولها وممّا يدركهم من الخوف والفزع. ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ من الخمر. وقال أهل المعاني: وترى النَّاس كأنَّهم سكارى. يدلّ عليه قراءة أبي زُرعة هَرِم بن عمرو بن جرير بن عبد الله ﴿وتُرى النَّاس﴾ بضم التّاء، أي تظنَّ ويُخيّل إليك. وقرأ حمزة والكسائيّ «سَكْرَى» بغير ألف. الباقون «سُكارى» وهما لغتان لجمع سكران، مثل كسْلَى وكُسَالى[3].

---

(١) زاد المسير ج ٥ ص ٤٠٣، ٤٠٤.

(٢) روح المعاني للألوسي ج ١٧ ص ١١٢.

(٣) قرطبي ج ١٢ ص ٥.

﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيد﴾ فيرهقهم هوله ويطير عقلهم ويسلب تمييزهم، فهو الذي جعلهم كما وُصِفُوا[1].

وقال تعالىٰ:

٨- ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ* الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[2].

قولـه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ أي: وبشر يا محمد الخاضعين لله بالطّاعة المذعنين له بالعبودية المنيبين إليه بالتوبة[3].

ثم بين سبحانه علاماتهم فقال:

١- ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي إنّهم إذا ذكر الله عَرَتْهُم رهْبة من خشيته، وخوف من عقابه.

٢- ﴿وَالصَّابِرِين عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من النوائب والمحن في طاعة الله.

٣- ﴿والْمُقِيمِي الصَّلاة﴾ أي: والمؤدين حقّه تعالى فيما أوْجبه عليهم من فريضة الصلاة في الأوقات التي حددها لهم.

٤- ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي وينفقون بعض ما آتاهم الله من طيب الرزق في وجوه البرّ وعلى أهليهم وأقاربهم وعلى الخلق كافة[4].

وقال تعالى:

---

(١) تفسير أبي السعود ج ٦ ص ٩٢.

(٢) ٣٤، ٣٥/ من سورة الحج.

(٣) تفسير الطبري ج ١٧ ص ١١٦.

(٤) تفسير المراغي ج ١٧ ص ١١٣.

٩ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[١].

فمن هنا يبدو أثر الإيمان في القلب، من الحساسية والإرْهاف والتّحرج، والتطلع إلى الكمال، وحساب العواقب، مهْما ينْهض بالواجبات والتكاليف.

فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خَشْية وتقْوى، وهم يؤمنون بآياته، ولا يشركون به وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم. وهم يأتون من الطاعات ما اسْتطاعوا... ولكنهم بعد هذا كله: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ لإحساسهم بالتقصير في جانب الله، بعد أن بذلوا ما في طوقهم، وهم في نظرهم قليل.

إنّ قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه. ويحس آلاءه في كلّ نفس وكلّ نبضة... ومن ثمّ يستصغر كلّ عباداته، ويستقل كلّ طاعاته، إلى جانب آلاء الله ونعمائه. كذلك هو يستشعر بكل ذرّة فيه جلال الله وعظمته، ويرقب بكل مشاعر يد الله في كلّ شَيْء من حوله... ومن ثَمّ يشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلْقَىٰ الله وهو مقصّر في حقّه، لمْ يوفه حقّه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكراً[٢].

فهم مع إحْسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم كما قال الحسن البصري: إنّ

---

(١) ٥٧ ـ ٦١/ سورة المؤمنون.

(٢) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٦.

المؤمن جمع إحْساناً وشفقة، وإنَّ الكافر جمع إساءةً وأمْناً.

وقـولـه ﴿وَالَّـذِينَ يُؤْتُـونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعْطاء وهذا من باب الإشفـاق والاحتياط كما روى الإمام أحمد عن عائشة أنَّها قالت يا رسول الله: الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، هو الذي يسرق ويزْني ويشـرب الخمر وهو يخاف الله عزّ وجلّ؟ قال: «لا يا بنت الصديق ولكنّه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عزّ وجلّ»[1].

وتـرتيب هذه الصفـات في نهاية الحسن، لأنَّ «الصفة الأولى» دلّت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحْتراز عمّا لا ينبغي.

«والصّفة الثانية» دلّت على ترك الرّياء في الطّاعات.

«والصّفة الثالثة» دلّت على أنّ المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالـطاعـات مع الـوجـل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين ـ رزقنا الله الوصول إليها ـ[2].

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من ذكر باعتبار اتّصافهم بتلك الصفات وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبتهم في الفضل، وهو مبتدأ، خبره قوله تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والجملة من المبتدأ وخبره خبر «إنَّ»، والكلام استئناف مسوق لبيان من له المسارعة في الخيرات إثر إقناط الكفار عنها وإبطال حسبانهم الكاذب، أي أولئك المنعوتون بما

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٥٨.

(٢) التفسير الكبير للرازي ج ٢٣ ص ١٠٨.

فصل من النعوت الجليلة خاصة دون أولئك الكفرة يسارعون في نيل الخيرات التي من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة كما في قوله تعالى: ﴿فَآتَاهُم اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ﴾ [1]وقوله سبحانه ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرةِ لَمِنَ الصَّالِحينَ﴾ [2] فقد أثبت لهم ما نفَى عن أضدادهم خلاَ أنّه غيّر الأسلوب حيثُ لم يقل أولئك يسارع لهم في الخيرات، بل أسْند المسارعة إليهم إيماء إلى اسْتحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم، وإيثار كلمة «في» على كلمة «إلى»: للإيذان بأنّهم متقلبون في فنون الخيرات لاَ أنّهم خارجون عنها متوجهون إليها بطريق المسارعة كما في قوله تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ الآية. ﴿وهُمْ لَهَا﴾ أي للخيرات التي من جملتها ما سمعت، والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى: ﴿سَابِقُونَ﴾ وهو إمّا مُنَزّل منزلة اللازم، أي فاعلون السبق، أوْ مفعوله محذوف، أي سابقون النّاس، أو الكفار، وهو يتعدّى باللام وبإلى، فيقال: سبقت إلى كذا ولكذا، والمراد بسبقهم إلى الخيرات: ظفرهم بها ونيْلهم إيّاها [3].

والمعنى: يرغبون في الطاعات والعبادات أشدّ الرّغبة. وهم لأجلها فاعلون السبق، أوْ لأجلها سابقون النّاس [4].

وقال تعالى:

١٠ ـ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ فَمَنْ

---

(١) ١٤٨/ من سورة آل عمران.

(٢) ٢٧/ من سورة العنكبوت.

(٣) روح المعاني ج ١٨ ص ٤٥.

(٤) محاسن التأويل للقاسمي ج ١٢ ص ٨٩.

ثَقُلَتْ مَوَازِينُـهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ* تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ* أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ* قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ* رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ* قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونَ* إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ* فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُم مِنْهُم تَضْحَكُونَ* إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[١].

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قولـه ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُم يومئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال: حين ينفخ في الصور فلا يبقى حيٌّ إلاَّ الله عزّ وجلّ.

وأخـرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنّه سئِلَ عن قوله: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُم يومئِذٍ وَلاَ يَتَسَـاءَلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يتساءَلُون﴾[٢] فقال إنّهـا مواقف، فأمّا الموقف الذي لا أنْسابَ بينهم ولا يتساءلون عند الصّعقـة الأولى لَا أنْساب بينهم فيها إذا صعقوا، فإذا كانت النفخة الآخرة فإذا هم قيام يتساءلون[٣].

وقـال ابن عبّاس أيضاً: لا يفتخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا، ولا يتساءلون فيها كما يتساءلون في الدّنيا،

---

(١) ١٠١ ـ ١١١/ من سورة المؤمنون.

(٢) ٢٥/ من سورة الطور.

(٣) الدر المنثور ج ٥ ص ١٥.

من أيّ قبيلة أنت ولاَ منْ أيّ نسب، ولا يتعارفون لهَوْل ما أذْهَلهم[1].

والمعنى: فإذا أعيدت الأرواح إلى الأجساد حين البعث والنّشور، لا تنفعهم الأنساب، لأنّ التعاطفَ يزول، والودّ يخْتَفي، لاسْتيلاء الدّهشة والحيرة عليهم، واشْتغال كلّ امْرىءٍ بنفسه كما جاء في قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾[2].

﴿وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: ولا يسْأل القريب قريبه وهو يبصره، لاشتغاله بأمْر نفسه كما قال: ﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾[3].

ثم شرع يبيّن أحوال السعداء وأحْوال الأشقياء حينئذ فقال: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: فمن رجحت موْزونات أخْلاقه وأعماله فأولئكَ هم الفائزون بكلّ مطلوب، والحائزون لكلّ مرْغوب.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُه فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: ومن ثقلت سيّئاته على حسناته فأولَئك الذين خابوا وآبوا بالصفقة الخاسرة، إذْ همْ دسُّوْا أنفسهم باسْترسالهم في الشّهوات وفعل الموبقات. ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُون﴾ أي مآلهم أن يمكثوا في جهنّم لا يخرجون منها أبداً[4] ثم وصف حال النّار وحالهم فيها فقال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

يقال: لفحته النّار والسّموم بحرّها أحرقته. ولفحته بالسيف لفْحة

---

(١) قرطبي ج ١٢ ص ١٥١.

(٢) ٣٤ - ٣٦/ من سورة عبس.

(٣) ١٠/ من سورة المعارج.

(٤) تفسير المراغي ج ١٨ ص ٥٧، ٥٨.

إذا ضربته به [ضرْبة] خفيفة. ﴿وهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال ابن عبّاس: عابسون. وقال أهل اللّغة: الكُلوح تَكَشُّرٌ في عبوس. والكالح: الذي قد تشمّرت شفتاه وبدت أسْنانه.

وقد كَلَح الرجل كُلُوحاً وكُلاحاً. وما أقْبح كَلْحَته يراد به الفَمُ ومَا حواليه.

وعن ابن عباس أيضاً: ﴿وَهُمْ فِيها كَالِحُون﴾ يريد كالذي كَلَح وتقلصت شفتاه وسال صديده. وقال ابن مسعود: ألم تر إلى الرأس المُشَيَّط بالنَّار، وقد بدت أسنانه وقلصت شفتاه.

وفي الترمذي عن أبي سعيد الخُدْريّ عن النبي ﷺ قال: «وهُمْ فِيهَا كَالحُون ـ قال ـ تشويه النار فَتقْلِصُ شفتَهُ العُلْيا حتّى تبلغ وَسَط رأسه وتسترخي شَفَتُه السّفلى حتّى تضرب سُرّته» قال: هذا حديث حسن صحيح غريب(١). وقال المراغي: وإنّما خصّ الوجوه من بين باقي الأعضاء: لأنّها أشرفها، فذِكْرُ ما ينوبها من ألم، ويلحقها من أذىً، يكون أزْجر عن المعاصي التي تصل بهم إلى النّار.

أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُم النَّار﴾ تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعْقابهم. ثم ذكر ما يقال لهم حينئذ توبيخاً وتقريعاً وتذكيراً لما به حقّ عليهم العذاب.

﴿أَلَمْ تكُنْ آيَـاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَـا تُكَـذِّبُـونَ﴾ أي: قد أرسلت إليكم الرّسل، وأنزلت عليكم الكتب، وأزلت عنكم الشُّبَهَ،

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١٥٢.

ولمْ يبق لكم حجة كما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[1]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[2] فكذبتم بها، وأعرضتم عنها، وآذيتم من جاء بها.

ونحو الآية قوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾[3].

ثم ذكر جوابهم عن ذلك فقال:

﴿قَالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوماً ضَالِّينَ﴾ أي: قالوا قد قامت علينا الحجة ولم ننقد لها، لسوء استعدادنا وتغلّب شهواتنا، ولما دسّيْنا به أنفسنا من الآثام والمعاصي ومن ثَمَّ ضلَلْنَا طريق الهدى، ولم نتبع الحق.

ونحو الآية قوله: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾[4].

والخلاصة: إنّا كنّا نعرف الحق، ولكن العادة وخشية النّاس ملكتا علينا أمرنا، فلم نقدر على الخلاص ممّا نحن فيه، وما مثلنا إلاّ مثل شاربي الخمر والتّبغ والمولعين بحبّ الكبرياء والعظمة والمغْرَمين بالإسراف، فإنّهم يعرفون أضرارها، ثم لا يجدون سبيلاً إلى تركها ولاَ للْبُعد عنها[5].

---

(١) ١٦٥/ من سورة النساء.

(٢) ١٥/ من سورة الإسراء.

(٣) ٨، ٩/ من سورة الملك.

(٤) ١١/ من سورة غافر.

(٥) تفسير المراغي ج ١٨ ص ٥٨، ٥٩.

وقال ابن جريج: بلغنا أنّ أهل النّار نادوا خزنة جهنم أن ادْعوا ربكم يخفف عنّا يوماً من العذاب فلم يجيبوهم ما شاء الله، فلّما أجابوهم بعد حين قالوا ادْعُوا وما دُعاء الكافرين إلاَّ في ضلال، قال ثم نادوا مالكاً يا مالك لِيقض علينا ربّك فسكت عنهم مالك خازن جهنم أرْبعين سنة، ثم أجابهم فقال إنّكم ماكثون، ثم نادى الأشقياء ربهم، فـ ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وكُنَّا قوماً ضَالِّينَ رَبَّنَا أخْرجْنا مِنْهـا فَإِنْ عُدْنَـا فَإِنَّـا ظَالِمُونَ﴾ فسكت عنهم مثل مقدار الدُّنيا، ثم أجابهم بعد ذلك تبارك وتعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُون﴾.

وعن أبي بكر بن عبد الله قال: ينادي أهل النَّار أهل الجنة فلا يجيبونهم ما شاء الله، ثم يقال: أجيبوهم وقد قطع الرّحم والرّحمة، فيقـول أهـل الجنة: يا أهلِ النَّار عليكم غضب الله. ويا أهل النَّار عليكم لَعْنة الله. يا أهل النَّار لاَ لبّيكم ولا سعْديكم، ماذا تقولون؟ فيقولون: ألم نك في الدنيا آباءَكم وأبناءكم وإخْوانكم وعشيرتكم، فيقولون بلَى، فيقولون: ﴿أفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْماءِ أوْ ممّا رَزَقَكُمْ الله قَالُوا إنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَىٰ الْكافِرِينَ﴾[1][2].

وقـولـه على ألسنتهم: ﴿وكُنّا قَوْماً ضَالِّينَ﴾ أي: كنّا في فعلنا ضالّين عن الهدى. وليس هذا اعْتذاراً منهم إنّما هو إقرار، ويدلّ على ذلك قولهم ﴿رَبَّنَا أخْرجْنا مِنْهَا فَإنْ عُدْنَا فَإنَّا ظَالِمُونَ﴾ طلبوا الرجعة إلى الـدنيا كما طلبوها عند الموت. ﴿فإن عدْنا﴾ إلى الكفر ﴿فإنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا بالعوْد إليه فيُجَابون بعد ألف سنة: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا

---

(١) ٥٠/ من سورة الأعراف.

(٢) تفسير الطبري ج ١٨ ص ٤٤.

﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: ابْعُدُوا في جهنم، كما يقال للكلب: اخْسأ، أي: ابْعُدْ. خسأت الكلب خَسْئاً طردته. وخسأ الكلب بنفسه خسوءاً.(١)

وعن عبد الله في قصة ذكرها في الشفاعة، قال: فإذا أراد الله أن لَا يخرج منها، يعني من النَّار أحداً غير وجوههم وأَلْوانهم، فيجيء الرَّجل من المؤمنين فيشفع فيهم، فيقول: يا رب، فيقول: من عرف أحداً فلْيخرجه، قال: فيجيء الرجل فينظر، فلا يعرف أحداً، فيقول: يا فلان يا فلان، فيقول: ما أعرفك، فعند ذلك يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيقول: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فإذا قالوا ذلك انطبقت عليهم جهنم فلا يخرج منها بشر(٢).

ثم بيَّن السبب فيما نالهم من العذاب فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: إنَّ فريقاً من عبادي ممَّن كان يؤمن بالله واليوم الآخر في الدّنيا يقولون: ربّنا آمنّا بك وبرسلك وبما جاءوا به من لدنك، فاسْتر زلّاتنا وآمن رَوْعاتنا، ولاَ تُخزنَا يوم العرض، ولا تعذبنا بعذابك، فإنّك أرْحم مَنْ رحِم أهل البلاء.

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي: فتشاغلتم بهم، ساخرين منهم، ودأَبْتم على هذا، حتّى نسيتم ذكري، ولمْ تخافوا عقابي، وكنتم تضحكون منهم استهزاء بهم.

والخلاصة: إنَّكم أضفْتم إلى سيِّئاتكم، الإستهزاء بمن يفعلون

---

(١) قرطبي ج ١٢ ص ١٥٣.

(٢) طبري ج ١٨ ص ٤٥، ٤٦.

الحسنات، ويتقربون إلى ربِّ الأرض والسماوات.

روي أنّها نزلت في كفار قريش وقد كانوا يستهزئون بالفقراء من أصحاب رسول الله ﷺ كبلال وعمّار وصهيب. ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾[1].

ثم ذكر ما جازَى به أولئك المستضعفين فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: إنّي جزيتهم بصبرهم على الأذى والسخرية بهم بالفوز بالنَّعيم المقيم.

والخلاصة: إنّهم صبروا فجوزوا أحسن الجزاء[2]. ويستفاد من هذا:

التحذير من السّخرية والاسْتهزاء بالضعفاء والمساكين والاحْتقار لهم، والإِزْراء عليهم والإِشْتغال بهم فيما لا يعني، وأنّ ذلك مُبْعِد من الله عزّ وجلّ[3].

وقال تعالى:

١١ـ ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ

---

(١) ٢٩، ٣٠/ من سورة المطففين.

(٢) تفسير المراغي ج ١٨ ص ٦٠.

(٣) قرطبي ج ١٢ ص ١٥٥.

أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

قوله ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ فيها قولان:

أحدهما: أنّه الصلاة، ثم في صلاة الغُدُوّ قولان. أحدهما: أنّها صلاة الفجر، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عبّاس. والثاني: صلاة الضّحى، روى ابن أبي مُلَيْكة عن ابن عبّاس قال: إنَّ صلاة الضحى لفي كتاب الله، وما يغوص عليها إلاَّ غوّاص، ثم قرأ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾. وفي صلاة الآصال قولان: أحدهما: أنّها صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، قاله ابن السائب. والثاني: صلاة العصر، قاله أبو سليمان الدمشقي. والقول الثاني: أنّه التسبيح المعروف، ذكره بعض المفسرين[2].

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ فيه إشعار بهممهم السّامية ونياتهم وعزائمهم العالية التي بها صاروا عُمّاراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه.

﴿لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ أي: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذّ بيعها وربْحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنْفَع ممّا بأيديهم، لأنّ ما عندهم ينفذ وما عند الله باقٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿لاَ تُلْهِيهِم تِجَارةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإقَامِ الصَّلاةِ وإيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي:

---

(١) ٣٦ـ٣٨/ من سورة النّور.

(٢) زاد المسير ج ٦ ص ٤٧.

يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم.[1]

﴿يَخَافُونَ يَوْماً﴾ يعني يوم القيامة. ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ يعني من هوله وحذر الهلاك.

والتقلب: التّحول، والمراد قلوب الكفار وأبصارهم. فتقلّب القلوب: انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر، فلا هي ترجع إلى أماكنها ولا هي تخرج. وأمّا تقلب الأبصار فالزّرَق بعد الكَحَل والعمَى بعد البصر. وقيل: تتقلب القلوب بين الطمع في النّجاة والخوف من الهلاك، والأبصار تنظر من أيّ ناحية يعطَوْن كتبهم. وإلَى أيّ ناحية يؤخذ بهم. وقيل: إنّ قلوب الشاكّين تتحول عمّا كانت عليه من الشّك، وكذلك أبصارهم لرؤيتهم اليقين، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيد﴾[2] فما كان يراه في الدنيا غَيًّا يراه رُشْداً، إلّا أنّ ذلك لا ينفعهم في الآخرة. وقيل: تتقلب على جمْر جهنم، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّار﴾[3]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾[4]. في قول من جعل المعنى: تقلّبها على لهب النّار. وقيل: تقلب بأن تلْفحها النّار مرّة وتُنْضِجها مرّة. وقيل: إنّ تقلب القلوب: وجيبها[5]، وتقلب الأبصار: النظر بها إلى نواحي الأهْوال[6].

---

(١) ابن كثير ج ٣ ص ٣٠٥، ٣٠٦ باختصار.

(٢) ٢٢/ من سورة ق.

(٣) ٦٦/ من سورة الأحزاب.

(٤) ١١٠/ من سورة الأنعام.

(٥) وجب القلب وجيباً: اضطرب.

(٦) قرطبي ج ١٢ ص ٢٨٠، ٢٨١.

وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله ﴿لِيَجْزِيَهُمْ الله أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدهُم مِنْ فَضْلِهِ﴾[1].

وقال المراغي: ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾[2].

وفي قوله ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ إيماء إلى أنَّه لا يجازيهم على مساوىء أعمالهم بل يغفرها لهم.

﴿وَيَزِيدهم من فضله﴾ أي يجزيهم بأحسن الأعمال، ويضاعف لهم ما يشاء كما قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[3]. وقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[4]. وقال ﷺ حكاية عن ربّه: «أعددت لعبادي الصالحين مالاَ عَيْنٌ رأت، ولاَ أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

ثم نبّه إلى كمال قدرته وعظيم جوده وسعة رحمته فقال:

﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: إنّه تعالى يعطيهم غير أَجْزية أعمالهم من الخيرات مالا يفي به الحساب، فهم لمّا اجتهدوا في الطاعة، وخافوا ربّهم أشدّ الخوف ـ جازاهم بالثواب العظيم على طاعتهم وزادهم الفضل الذي لا غاية له، لخوفهم من قهره وشديد عذابه[5].

---

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ص ١٠٧.

(٢) ١٠ـ١٢/ من سورة الإنسان.

(٣) ١٦٠/ من سورة الأنعام. (٤) ٢٦/ من سورة يونس.

(٥) تفسير المراغي ج ١٨ ص ١١١.

وقال تعالى:

١٢ـ ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً* إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً* خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً* يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ* وقالوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا* رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾(١).

قوله: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي عن وقت قيامها ووقوعها، كان المشركون يسألونه ﷺ عن ذلك اسْتعجالاً بطريق الاستهزاء، والمنافقون تعنّتاً، واليهود امْتحاناً لما أنّهم يعلمون من التوراة أنّها ممّا أخْفاه الله تعالى فيسألونه عليه الصلاة والسلام ليمتحنوه هل يوافقها وحْياً أوْ لا ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ﴾ لا يُطلعْ سبحانه عليه ملكاً مقرباً ولا نبيًّا مرسلاً(٢).

والله أخفى علم السّاعة لحكمة: هي امتناع المكلف عن الاجتراء وخوفهم منها في كلّ وقت.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ إشارة إلى التخويف، وذلك لأنّ قول القائل: الله يعلم متَى يكونَ الأمر الفلاني، ينْبىء عن إبْطاء الأمر، ألاَ ترَى أنّ من يطالب مدْيوناً بحقّه فإن استمهله شهراً أوْ شهرين ربما يصبر ذلك، وإن قال له: اصبر إلى أن يقدم فلان من سفره، يقول: الله يعلم متَى يجيء فلان، ويمكن أن يكون مجيء

(١) ٦٣ ـ ٦٨/ من سورة الأحزاب.

(٢) روح المعاني ج ٢٢ ص ٩٢.

فلان قبل انقضاء تلك المدة، فقال هاهنا: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ يعني هي في علْم الله فَلا تستبطئوها فربما تقع عن قريب[1].

وقال العلامة أبو السعود: والاظهار في حيز الإضمار: للتهويل وزيادة التقرير. وتأكيد استقلال الجملة يعني أنّ قوله ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ خطاب مستقل له عليه السلام غير داخل تحت الأمر، مسوق لبيان أنّها مع كونها غير معلومة للخلق، مرْجوة المجيء عن قريب[2].

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ على الإطْلاق، أي طردهم وأبعدهم عن رحمته العاجلة والآجلة ﴿وَأَعَدَّ﴾ هيّأ ﴿لَهُمْ﴾ مع ذلك في الآخرة ﴿سعيراً﴾ ناراً شديدة الاتّقاد كما يؤذن بذلك صيغة المبالغة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِياً﴾ متوليًا لأمرهم يحفظهم ﴿وَلَا نَصِيراً﴾ ناصراً يخلصهم منها[3].

وقال الرازي: لمّا بيّن أنّه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بيّن أنّ بعض أعضائهم أيضاً لا يدفع العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدّنيا فإنَّ الإنسان يدفع عن وجهه الضربة اتّقاءً بيده، فإنّ من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جنّة أوْ يطأطيء رأسه كيْ لا يصيب وجهه، وفي الآخرة ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ فما ظنّك بسائر أعضائهم التي تُجعل جُنّة للوجه ووقاية له ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ

---

(1) التفسير الكبير للرازي ج ٢٥ ص ٢٣٢، ٢٣٣ بتصرف.

(2) نقلاً من محاسن التأويل للقاسمي ج ١٣ ص ٣١٣.

(3) روح المعاني ج ٢٢ ص ٩٣.

وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ فيتحسرون ويندمون حيث لا تغنيهم النّدامة والحسرة، لحصول علمهم بأن الخلاص ليس إلاّ للمطيع.

ثم يقولون: ﴿إنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وكُبَرَاءَنَا﴾ يعني بدل طاعة الله تعالى أطعنا السّادة، وبدل طاعة الرسول أطعْنا الكبراء، فبدلنا الخير بالشر، فلا جرم فاتنا خير الجنان وأوتينا شرّ النيران[1].

وقال القرطبي: والسّادة جمع السيد، وهو فَعَلة، مثل كتبة وفجرة، وسادتنا جمع الجمع. والسّادة والكبراء بمعنىً. وقال قتادة: هم المطمعون في غزوة بدر، والأظهر العموم في القادة والرؤساء في الشرك والضلالة، أي: أطعناهم في معصيتك ومادعونا إليه ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾ أي عن السبيل، وهو التوحيد[2].

ثم إنّهم يطلبون بعض التّشفي بتعذيب المضلين ويقولون: ﴿رَبّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كبيراً﴾ أي بسبب ضلالهم وإضلالهم,

وفي قوله تعالى: ﴿ضِعْفَيْن ، وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كبيراً﴾ معنى لطيف، وهو أنّ الدّعاء لا يكون إلاّ عند عدم حصول الأمر المدعو به، والعذاب كان حاصلاً لهم، واللّعن كذلك، فطلبوا ما ليس بحاصل، وهو زيادة العذاب بقولهم ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ وزيادة اللّعن بقولهم ﴿لَعْناً كَبِيراً﴾[3].

---

(١) التفسير الكبير للرازي ج ٢٥ ص ٢٣٣، ٢٣٤ بتصرف.

(٢) قرطبي ج ١٤ ص ٢٤٩.

(٣) الرّازي ج ٢٥ ص ٢٣٤.

وقال تعالى:

١٣ـ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ* قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ* فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[1].

أخرج البزّار عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنّة اشْتاقوا إلى الإخوان فيجيء سرير هذا حتّى يُحاذي سرير هذا فيتحدثان فيتكيء ذا ويتكيء ذا، فيتحدثان بما كانا في الدّنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان تدري أيّ يوم غفر الله لنا؟ يوم كنّا في موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا[2]».

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ قال: في الدّنيا.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ قال: وهج النّار.

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شَيْبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة أنّها قرأت هذه الآية ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾

---

(١) ٢٥ـ٢٨ / من سورة الطور.

(٢) قال البزار: لا نعرفه يروي إلاّ بهذا الإسناد، وقال الحافظ ابن كثير وسعيد ابن دينار الدّمشقي [أحد رواة الحديث] قال أبو حاتم: هو مجهول، وشيخه الربيع بن صبيح وقد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه وهو رجل صالح ثقة في نفسه [ابن كثير ج ٤ ص ٢٦٠].

فقالت: اللهم منّ علينا وقنا عذاب السّموم إنّك أنت البرّ الرّحيم وذلك في الصلاة.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزّهد وابن المنذر عن أسماء أنّها قرأت هذه الآية فوقعت عليها فجعلت تستعيذ وتدعو[1].

وعند الطبري: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ . . .﴾ الآية. يقول تعالى ذكره: وأقْبل بعض هؤلاء المؤمنين في الجنّة على بعض يسأل بعضهم بعضاً، وقد قيل إنّ ذلك يكون منهم عند البعث من قبورهم.

ذكر ذلك ابن عباس في قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال: إذا بعثوا في النفخة الثانية[2].

ثم فصل ما يجيب به بعضهم بعضاً فقال: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾. أي قالوا: إنّا كنّا في دار الدنيا ونحن بين أهلها خائفين من ربّنا مشفقين من عذابه وعقابه، فتفضل علينا وأجارنا ممّا نخاف[3].

ويقول صاحب الظلال: والسرّ إذن أنّهم عاشوا على حذر من هذا اليوم، عاشوا في خشية من لقاء ربهم، عاشوا مشفقين من حسابه، عاشوا كذلك وهم في أهلهم، حيث الأمان الخادع، ولكنهم لمْ ينخدعوا، وحيث المشغلة الملْهية، ولكنهم لم ينشغلوا. عندئذٍ منّ الله عليهم ووقاهم عذاب السموم، الذي يتخلل الأجسام كالسّم الحار اللاذع!

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ١١٩، ١٢٠.

(٢) طبري ج ٢٧ ص ١٨ بتصرف.

(٣) المراغي ج ٢٧ ص ٢٨.

ووقاهم هذا العذاب منّةً منه وفضلاً لما علم من تقواهم وخشيتهم وإشفاقهم، وهم يعرفون هذا ويعرفون أنّ العمل لا يدخل صاحبه الجنّة إلاَّ بمنّة من الله وفضل، فما يبلغ العمل أكثر من أن يشهد لصاحبه أنّه بذل جهده ورغب فيما عند الله. وهذا هو المؤمل لفضل الله.

وقد كانوا مع هذا الإشفاق والحذر والتقوى يدعون الله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾... وهم يعرفون من صفاته البرّ بعباده والرحمة بعبيده: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[1].

وقال تعالىٰ:

١٤ـ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[2].

الخوف في الأصل: توقع المكروه عند ظهور أمارة مظنونة أوْ محققة وضدّه الأمْن، ويراد به هنا الكفّ عن المعاصي مع فعل الطاعات.

والمعنى: أي ولمن خشي ربّه وراقبه في أعماله، وأيْقن بأنّه مجازيه عليها يوم العرض والحساب، يوم تُجْزَى كلّ نفس بما كسبت، فإذا هو همّ بمعصية ذكَرَ اللهَ وأنّه عليم بسرّه ونجواه، فتركها مخافة عقابه، وشديد حسابه، ففعل الخير وأحبَّ الخير للنّاس: جنّتان[3].

وقال ابن شوذب وعطاء الخراساني: نزلت هذه الآية ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ في أبي بكر الصديق. وقيل غير ذلك.

---

(١) في ظلال القرآن ج ٧ ص ٦٠٣.

(٢) ٤٦/ من سورة الرّحمن.

(٣) تفسير المراغي ج ٢٧ ص ١٢٣، ١٢٤.

والصحيح أنّ هذه الآية عامة كما قاله ابن عبّاس وغيره، يقول الله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ بين يدي الله عزّ وجلّ يوم القيامة ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ وَلم يطع ولا آثر الحياة الدّنيا وعلم أنّ الآخرة خيْرٌ وأبْقَى فَأدّى فرائض الله واجْتَنب محارمه فله يوم القيامة عند ربّه جنّتان. . . كما قال البخاري رحمه الله: حدثنا عبد الله بن أبي الأسود حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد العمي حدثنا أبو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضّة آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم عزّ وجلّ إلّا رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عدن»[1].

وعن ابن عبّاس في قوله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جنّتان﴾ قال: وعدَ الله جلّ ثناؤه المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدّوا فرائضه الجنّة.

وعنه أيضاً في هذه الآية: يقول: خاف ثم اتّقَى، والخائف من ركب طاعة الله وترك معصيته.

وعن مجاهد في قوله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جنّتان﴾ قال: الرجل يهمّ بالذنب فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركه فلَه جنّتان.

وعن إبراهيم في هذه الآية. قال: إذا أراد أن يذنب أمْسك مخافة الله.

وعن قتادة. قال: إنّ المؤمنين خافوا ذاكم المقام فعملوا له ودَانُوا له وتعبدوا بالليل والنّهار.

---

(١) تفسير ابن كثيرج ٤ ص ٢٩٦.

وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جنّتان﴾ قلت: وإنْ زنى وإن سرق؟ قال: وإنْ زنَى وسرق، وإن رغم أنْف أبي الدّرداء.

وعن حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي بكر عن أبي موسى عن أبيه ـ قال حماد: لا أعلمه إلاَّ رفعه ـ في قوله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جنّتان﴾ قال: جنّتان من ذهب للمقربين أوْ قال للسّابقين، وجنّتان من ورق لأصحاب اليمين.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جنّتان﴾ قال: مقامه حين يقوم العباد يوم القيامة، وقرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِين﴾[1]، وقال: ذاك مقام ربك[2].

وقال تعالىٰ:

١٥ـ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أخيهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ* لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[3].

أخرج الطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن سودة بنت زمْعة قالت قال النبي ﷺ: «يبعث النّاس حفاة عراة غُرْلاً قدْ ألْجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان، قلت يا رسول الله: واسْوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض، قال: شغل النّاس عن ذلك، وتلا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أخيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

---

(١) ٦/ من سورة المطففين.

(٢) تفسير الطبري ج ٢٧ ص ٨٤، ٨٥ باختصار.

(٣) ٣٤ ـ ٣٧/ من سورة عبس.

وأخرج الطبراني عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: يحشر النّاس يوم القيامة مشاة حفاة غرْلاً، قيل يا رسول الله ينظر الرجال إلى النساء، فقال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن أمّ سلمة سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحشر الناس يوم القيامة عراة حفاة، فقلت يا رسول الله: واسوْأتاه، ينظر بعضنا إلى بعض، فقال: شغْل الناس، قلت: ما شغلهم؟ قال: نشْر الصحائف فيها مثاقيل الذّر ومثاقيل الخردل.

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ قال: يبعث النّاس يوم القيامة حفاة عراة غرْلاً، قلت يا رسول الله فكيف بالعورات؟ قال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[1].

فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ أي يهرب، أي تجيء الصّاخة في هذا اليوم الذي يهرب فيه من أخيه، أي من موالاة أخيه ومكالمته، لأنّه لا يتفرغ لذلك، لاشتغاله بنفسه، كما قال بعده: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي يشغله عن غيره.

وقيل: إنّما يفرّ حذراً من مطالبتهم إيّاه، لما بينهم من التّبعات. وقيل: لئلاّ يَروا ما هو فيه من الشدّة. وقيل: لعلمه أنّهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً، كما قال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا﴾[2].

---

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٣١٧.

(٢) ٤١/ من سورة الدخان.

وقال عبد الله بن طاهر الأبهري: يفرّ منهم لما تبيّن له من عجزهم وقلّة حيلتهم، إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه، ولوْ ظهر له ذلك في الدّنيا لما اعْتمد شيئاً سوى ربّه تعالى[1].

وقال الرّازي: يحتمل أن يكون المراد من الفرار ما يشعر به ظاهره وهو التباعد والاحْتراز، والسبب في ذلك الفرار؟ الاحتراز عن المطالبة بالتّبعات. يقول الأخ ماوَاسيْتَني بمالك، والأبوان يقولان: قصّرت في برّنا، والصاحبة تقول: أطعمتني الحرام، وفعلت وصنعت، والبنون يقولون: ما علمتنا وما أرشدتنا، ويحتمل أن يكون المراد من الفرار ليس هو التباعد، بل المعنى أنّه يوم يفرّ المرْء من موالاة أخيه لاهْتمامه بشأنه، وهو كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾[2][3].

وقد أحسن المراغي في تفسيره عند هذه الآيات، حيث يقول رحمه الله: يوم يشغل كلّ امْرىء ما يصيبه من الأهوال، فيفرّ ممّن يتوهّم أنه يتعلق به، ويطلب معونته، على ما هو فيه، فيتوارى من أخيه، بل من أمّه وأبيه، بل من زوْجه التي هي ألْصق النّاس به، وقد كان في الدّنيا يبذل النّفس والنّفيس في الدّفاع عنها، بل من بنيه وهم فِلْذَاتُ كبده، وقد كان في الحياة الأولى يفْديهم بماله وروحه، وهم ريْحانة الدّنيا ونور الحياة أمام عينه.

وإنما كان الأمر كذلك، لأنّ لكلّ امْرىء منهم من الرّهْب، وما

---

(١) قرطبي ج ١٩ ص ٢٢٤، ٢٢٥.

(٢) ١٦٦/ من سورة البقرة.

(٣) التفسير الكبير للرازي ج ٣١ ص ٦٥.

يُرْهِب من الهـول، ومـا يخشى من منـاقشة الحساب ـ شأناً يغنيه، ويصدّه عن ذوي قرابته، فليس لديه فضل فكر ولا قوة يُمِدّ بها غيره[1].

---

(١) تفسير المراغي ج ٣٠ ص ٥٠.

٢ـ باب: ما جاء في الترغيب في الخوف من السّنة المطهرة

١ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاَّ ظلّه: إمام عادلٌ، وشابٌ نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبهُ مُعَلّق بالمساجد، ورجلان تحابًا في الله اجْتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجل دعَتْهُ امْرأةٌ ذاتُ منصب وجمالٍ فقال إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقةٍ فأخْفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيْناه»[١].

فقوله: «فقال إنّي أخاف الله» زاد في رواية «ربّ العالمين». والظاهر أنّه يقول ذلك بلسانه، إمّا ليزجرها عن الفاحشة أو ليعتذر إليها، ويحتمل أن يقوله بقلبه.

قال عياض: قال القرطبي: إنّما يصدر ذلك عن شدّة خوف من الله تعالى ومتين تقوى وحياء[٢].

وقوله «ذَكر الله» أي بقلبه من التذكر، أوْ بلسانه من الذكر، و «خالياً» أي من الخلو، لأنّه يكون حينئذ أبْعد من الرياء، والمراد:

---

(١) متفق عليه.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٢ ص ١٤٥، ١٤٦.

خالياً من الإلْتفات إلى غير الله ولو كان في ملأ، ويؤيد رواية البيهقي «ذكر الله بين يديه» ويؤيد الأول رواية ابن المبارك وحماد بن زيد «ذكر الله في خلاء» أي في موضع خالٍ، وهي أصح.

وقوله «ففاضت عيناه» أي فاضت الدموع من عينيه، وأسند الفيض إلى العين: مبالغة، كأنَّها هي التي فاضت.

قال القرطبي: وفيض العين بحسب حال الذاكر وبحسب ما يكشف له، ففي حال أوصاف الجلال يكون البكاء من خشية الله، وفي حال أوصاف الجمال يكون البكاء من الشوق إليه[1].

٢ـ وعن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «كان رجل ممّن كان قبلكم يسيء الظّنّ بعمله، فقال لأهله: إذا أنا مُتُّ فخذوني فذرُّوني في البحر في يوم صائف. ففعلوا به، فجمعه الله، ثم قال: ما حملك علَى الذي صَنعت؟ قال: ما حملني عليه إلاَّ مخافَتُكَ، فغُفِر له»[2].

٣ـ وعن أبي سعيد الخدري رضيَ الله عنه عن النبي ﷺ «ذكر رجلاً فيمن كان سَلَف ـ أوْ قبلكم ـ آتاه الله مالاً وولداً، يعني أعطاه. قال: فلما حُضِرَ قال لبنيه: أيَّ أب كُنت لكم؟ قالوا: خيرَ أب. قال: فإنّه لم يَبْتئِرْ عند الله خيراً. ـ فسّرها قتادة[3]: لم يدّخر ـ وإنْ يقدَمْ على الله يعذبه، فانظروا فإذا متُّ فأحْرقوني، حتَّى إذا صرتُ فحْماً فاسْحقوني، أوْ قال: فَاسْهكوني، ثم إذا كان ريحٌ عاصف فاذْروني فيها، فأخذ مواثيقَهم على ذلك وَربِّي. ففعلوا. فقال الله: كُن. فإذا

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٧.

(٢) رواه البخاري.

(٣) أحد رواة الحديث.

رجلٌ قائم. ثم قال: أي عبدي، ما حملك على ما فعلتَ؟ قال: مخافتك. أَوْ فرَقٌ منك. فما تلافاهُ أنْ رَحِمَه الله»[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: الخوف من الله عزّ وجلّ: هو من المقامات العلية، وهو من لوازم الإيمان، قال الله تعالى ﴿وَخَافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿إنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[4] وحديث «أنا أعلمكم بالله وأشدّكم له خشية». وكلما كان العبد أقرب إلى ربّه كان أشدّ له خشية ممّن دونه، وقد وصف الله تعالى الملائكة بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[5] والأنبياء بقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أحداً إلَّا الله﴾[6].

وإنَّما كان خوف المقربين أشدّ لأنّهم يطالبون بمالا يطالب به غيرهم فيراعون تلك المنزلة، ولأنّ الواجب لله منه الشكر على المنزلة فيضاعف بالنسبة لعلوّ تلك المنزلة، فالعبد إن كان مستقيماً فخوفه من سوء العاقبة لقوله تعالى: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وقَلْبِهِ﴾[7] أو نقْصان الدرجة بالنسبة، وإن كان مائلاً فخوفه من سوء فِعْله. وينفعه ذلك مع النّدم والإقلاع، فإنَّ الخوف ينشأ من معرفة قبح الجناية والتصديق

(١) رواه البخاري.

(٢) ١٧٥/ من سورة آل عمران.

(٣) ٤٤/ من سورة المائدة.

(٤) ٢٨/ من سورة فاطر.

(٥) ٥٠/ من سورة النّحل.

(٦) ٣٩/ من سورة الأحزاب.

(٧) ٢٤/ من سورة الأنفال.

بالوعيد عليها، وأن يحرم التوبة، أوْ لا يكون ممّن شاء الله أن يغفر له، فهو مشفق من ذنبه طالب من ربّه أن يدخله فيمن يغفر له.

ومعنى قوله: «يسيء الظّنّ بعمله» - في حديث حذيفة - يعني أنّه كان نبّاشاً.

وقوله: «فذروني» قيل: بالتخفيف بمعنى الترك، والتشديد، بمعنى التفريق، وهو ثلاثي مضاعف، تقول: ذررت الملح أذْره، ومنه الذريرة: نوع من الطيب. قال ابن التّين: ويحتمل أن يكون بفتح أوله، - قال ابن حجر - وكذا قرأناه، ورويناه بضمها، وعلى الأول: هو من الذر، وعلى الثاني: من التذرية، وبهمزة قطع وسكون المعجمة: من أذريت العين دمعها، وأذريت الرجل عن الفرس، وبالوصل: من ذروت الشيء، ومنه تذروه الرِّياح.

وقوله «في يوم صائف» وجاء في رواية عبد الملك بن عمير عن ربعي بلفظ «فذروني في اليّمّ في يوم حار».

وقوله في حديث أبي سعيد: «فإنّه لم يبْتئر عند الله خيراً، فسّرها قتادة: لم يدَّخِرْ» وتفسير قتادة صحيح، وأصله من البئيرة بمعنى الذخيرة والخبيئة، قال أهل اللغة: بأرت الشيء وابْتأرته أبْأره وأبتئره: إذا خبأته، ومعناه: لم يقدم خيراً.

وقوله: «وَإنْ يقدم علَى الله يعذبه» والمعنى: إن بُعِثَ يوم القيامة على هيئته يعرفه كلّ أحد، فإذا صار رماداً مبثوثاً في الماء والرّيح لعلّه يخْفى.

وجاء في رواية «فإنّه إنْ يقدر عليّ ربِّي لا يغفر لي».

ومن اللطائف: أنّ من جملة الأجوبة عن ذلك ما ذكره ابن الملقن في شرحه: أنّ الرجل قال ذلك لما غلبه من الخوف وغطّى على فهمه من الجزع فيعذر في ذلك، وهو نظير الخبر المروي في قصّة الذي يدخل الجنة آخر من يدخلها فيقال: إنّ لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، فيقول للفرح الذي دخله «أنت عبدي وأنا ربّك» أخطأ من شدّة الفرح.

وقوله «فاسحقوني، أوْ قال فاسْهكوني» هو شكٌّ من الراوي، والسَّهك بمعنىَ السحق، ويقال: هو دونه، وقوله «فأخذ مواثيقهم على ذلك وربّي» هو من القسم المحذوف جوابه، ويحتمل أن يكون حكاية الميثاق الذي أخذه، أي قال لمن أوصاه قل وربّي لأفعلن ذلك.

قال ابن أبي جمرة: كان الرجل مؤمناً، لأنّه قد أيْقَن بالحساب وأنّ السيّئات يعاقب عليها، وأمّا ما أوصَى به فلعلّه كان جائزاً في شرعهم ذلك لتصحيح التوبة، فقد ثبت في شرع بني إسرائيل قتلهم أنفسهم لصحة التوبة[1].

٤ـ وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنّه قال: بينما ثلاثةُ نفر يَتَمَشَّوْنَ أخذَهُمُ المطرُ فأوَوْا إلى غارٍ في جبل فانْحَطَّتْ على فم غارهِمْ صخْرةٌ من الجبل فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض انظروا أعمالاً عملتُموها صالحةً لله فادْعوا الله تعالى بها لعلّ الله يفرُجُها عنكم، فقال أحدهم: اللّهم إنّه كان لي والِدان شيْخان كبيران وامْرأتي وَلِيَ صِبْيَةٌ صغارٌ أرْعى عليهم، فإذا أرَحْتُ عليهم حَلَبْتُ فبدأتُ بوالديَّ فسقيتهما قبل بنيّ وأنّه نأى بي ذاتَ يوم الشّجرُ فلم آت حتّى أمسيتُ فوجدتهما قدْ نَاما فحلبتُ كما كنت أحْلُبُ، فجئت بالحِلاَب

(١) فتح الباري ج ١١ ص ٣١٣ ـ ٣١٥ باختصار وتصرف.

فقمتُ عند رؤسهما أكْره أن أوقظهُما من نومهما وأكره أن أسقِيَ الصِّبْيَة قبلهُما والصِّبْيَةُ يتضاغوْنَ عند قدمَيَّ، فلم يزل ذلك دأبِي ودأبهُم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنّي فعلت ذلك ابْتغاء وجهك فافْرُج لنا منها فُرْجَةً نرَى منها السماء ففرج الله منها فُرجةً فرأوْا منها السماء، وقال الآخر: اللهم إنّه كانت لي ابْنَةُ عمٍّ أحببتُها كأشدّ ما يُحبُّ الرّجالُ النّساء، وطلبت إليها نفْسها فأبَتْ حتّى آتِيها بمائة دينار، فتعبْتُ حتّى جمعتُ مائة دينار، فجئتها بها، فلمّا وقَعْتُ بين رجليها قالت: يا عبد الله اتّق الله ولا تفتح الخاتَمَ إلَّا بحقّه، فقمتُ عنها، فإن كنت تعلم أنّي فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرُج لنا منها فُرْجَةً ففرج لهم، وقال الآخر: اللهم إني كنتُ استأجرتُ أجيراً بِفَرَقٍ أرُزٍّ، فلما قضَى عمله قال أعطني حقّي فعرضت عليه فرَقه، فرغبَ عنه، فلم أزلْ أزرعُهُ حتّى جمعتُ منه بقراً ورعاءَها، فجاءني فقال: اتّق الله ولا تظلمني حقّي، قلت: اذْهب إلى تلك البقر ورعائِها فخُذْها، فقال: اتق الله ولَا تستهزىء فقلتُ: إنّي لا أستهزىء بك، خُذْ ذلك البقر ورعَاءَها، فأخذه فذهب به، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابْتغاء وجهك فافْرج لنا ما بقي ففرج الله ما بقيَ(١).

٥ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: يقول الله عزّ وجلّ: إذا أراد عبدي أن يعمل سيِّئة فلَا تكتبوها عليه حتّى يعملها، فإنْ عمِلَها فاكتُبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنةً(٢).

---

(١) صحيح مُسْلم بشرح النووي ج ١٧ ص ٥٥ ـ ٥٧.

(٢) رواه البخاري ومُسلم، وفي لفظ لمسلم: «إن تركها فاكتبوها له حسنة إنّما تركها من جراىَ، أيْ من أجلي. [ترغيب وترهيب ج ٤ ص ٢٦١].

٦ـ وعن أبي هريرة رضيَ الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربّه جلّ وعلاَ أنّه قال: وعزتي لا أجمع على عبدي خوْفَيْن وَأمْنَيْن: إذا خافني في الدنيا أمّنْتُهُ يوْم القيامة، وإذا أمِنَنِي في الدنيا أخَفْتُهُ في الآخرة[١].

٧ـ وعن أبي هريرة ـ أيضاً ـ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ خَافَ أدْلجَ، ومنْ أدْلجَ بلغَ المنزلَ، ألاَ إنَّ سِلْعَةَ الله غاليةٌ، ألا إنّ سلعْةَ الله الجنّة»[٢].

و [أدْلج] بسكون الدال: إذا سار من أول الليل، ومعنى الحديث: أن من خاف ألْزمه الخوف إلى السلوك إلى الآخرة، والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفاً من القواطع والعوائق.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه. [نقلاً من المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦١].

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن [المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦١، ٢٦٢.

الترغيب في البكاء من خشية الله
وعلمه ﷺ بالله تعالى وشدّة خشيته

١ ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَلِجُ النَّار من بكَىٰ مِنْ خشية الله حتّى يعود اللبن في الضِّرْعِ، ولا يجتمعُ غُبارٌ في سبيل الله ودُخانُ جهنَّمَ في مَنْخِرَيْ مُسْلمٍ أبداً».

الحديث رواه أحمد (٢/٥٠٥)، والترمذي (١٦٨٣ تحفة) في باب ما جاء في فضل الغُبار في سبيل الله لكن بدون لفظ «في منخريْ مُسْلم أبداً»، وابن ماجة (٢٧٧٤) باب الخروج في النفير وهو بلفظ «لا يجتمع غُبارٌ في سبيل الله ودُخَانُ جهنم، في جوف عبدٍ مُسْلم»، والحاكم (٤/٢٦٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ومعنَى «لَا يلج النَّار» أي لا يدخلها «رجل بكَى من خشية الله» فإنّ الغالب من الخشية امْتثال الطاعة واجتناب المعصية «حتّى يعود اللبن في الضرع» هذا من باب التعليق بالمحال كقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[1] «وَلَا يجتمع» أي على عبد، كما في رواية غير الترمذي «غبار في سبيل الله ودخان جهنم» فكأنهما ضدان لا يجتمعان، كما أن الدنيا والآخرة نقيضان[2].

---

(١) ٤٠/ من سورة الأعراف.

(٢) تحفة الأحوذي ج ٥ ص ٢٦٠، ٢٦١.

٢ـ وعن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «حرِّمَ على عينَيْن أن تنالهما النَّارُ: عيْنٌ بكت من خشية الله، وعيْن باتت تحرسُ الإسلام وأهْلَه من الكفر». رواه الحاكم وفي مسنده انقطاع[1][2].

٣ـ وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سبعة يُظلهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاَّ ظلُّهُ: الإمامُ العادلُ، وشابٌ نشأ في عبادة الله عزّ وجّل، ورجل قلبُه مُعَلّقٌ بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله اجْتمعا على ذلك وتفرّقا عليه، ورجلٌ دَعَتْه امْرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أخافُ الله، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

الحديث رواه البخاري ومُسْلم وغيرهما. وقد سبق، إلاَّ أننا أوردناه هنا استشهاداً بقوله ﷺ: «ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.

٤ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ «اقْرأْ عليَّ القرآنَ» قلت: يا رسول الله اقْرأُ عليكَ وعليكَ أُنْزل؟ قال: «إنّي أحبُّ أن أسمعهُ من غيري» فقرأتُ عليه سورةَ النساء حتّى جئْتُ إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[3]، قال: «حَسْبُكَ الآن» فالْتَفَتُّ إليه فإذا عيناهُ تَذْرِفَان. متفق عليه.

قال النووي: البكاء عند قراءة القرآن صفة العارفين وشعار الصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾[3] ﴿خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾[4].

---

(١) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٢٩.

(٢) وحسنة الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣١٣٦.

(٣) ١٠٩/ من سورة الإسراء. (٤) ٥٨/ من سورة مريم.

قال الغـزالي: يستحب البكـاء مع القـراءة وعنـدهـا، وطـرق تحصيله، أن يحصـر قلبه الحزن والخوف بتأمل ما فيه من التهديد والـوعيد الشديد والوثائق والعهود ثم ينظر تقصيره في ذلك، فإن لم يحضـره حزن فلْيبك على فَقْد ذلك وأنَّه من أعظم المصائب. قال ابن بطال: إنَّما بكَى ﷺ عند تلاوته هذه الآية: لأنّه مثّل لنفسه أهوال يوم القيامة وشدّة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يحقّ له طول البكاء. انتهى.

والذي يظهر أنّه بكى رحمة لأمّته، لأنّه علم أنّه لا بدّ أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكـون مستقيمـاً فقـد يفضي إلى تعذيبهم، والله أعلم[1].

٥ـ وعن عبد الله بن الشّخّير رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلّي ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرْجلِ من البكاء. حديث صحيح، رواه أبو داود، والترمذي في الشمائل باسْناد صحيح.

[والمرجل: القدر إذا غلت، والأزيز: صوت القدر إذا غَلَتْ].

٦ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه «إنّ الله عزّ وجلّ أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: وسمّاني؟ قال: «نعمْ». فبكى أُبيّ. متفق عليه، وفي رواية: فجعل أُبيّ يبكي[2].

قولـه «قال: وسمّاني؟» أي هلْ نصّ عليّ باسْمي، أو قال اقرأ

(١) فتح الباري ج ٩ ص ٩٨، ٩٩ باختصار.

(٢) نقْلاً من رياض الصالحين ص ٢١٠.

علَى واحد من أصحابك فاخْترتني أنت؟ فلمّا قال له «نعم» بكىٰ، إمّا فرحاً وسروراً بذلك، وإمَّا خشوعاً وخوفاً من التقصير في شكر تلك النعمة. وفي رواية للطبراني من وجْه آخر عن أُبيّ بن كعب قال «نعم باسمك ونسبك في الملأ الأعلى».

قال القرطبي: تعجب أبيّ من ذلك لأنّ تسمية الله له ونصّه عليه ليقرأ عليه النبيّ ﷺ تشريف عظيم، فلذلك بكَى، إمّا فرحاً وإمّا خشوعاً.

قال أبو عبيد: المراد بالعرض على أبيّ، ليتعلم أُبيّ منه القراءة ويتثبت فيها، وليكون عرض القرآن سنّة، وللتنبيه على فضيلة أُبيّ بن كعب، وتقدمه في حفظ القرآن، وليس المراد أن يستذكر منه النبي ﷺ شيئاً بذلك العرض.

ويؤخذ من هذا الحديث: مشروعية التواضع في أخذ الإنسان العلم من أهله وإن كان دونه.

وقال القرطبي: خصّ هذه السورة بالذكر، لما اشتملت عليه من التوحيد، والرسالة، والإخلاص، والصحف والكتب المنزلة على الأنبياء وذكر الصلاة، والزكاة، والمعاد، وبيان أهل الجنة والنَّار مع وجازتها[1].

٧ـ وعنه قال: قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلَى أمِّ أَيْمَنْ رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورُها، فلمّا انتهيَا إليها بكت، فقال لها: ما يبكيك؟ أمَا تعلمينَ

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٧ ص ١٢٧.

أنّ ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ، قالت: إنّي لا أبكي أني لا أعلم أنّ ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ ولٰكنّي أبكي أنّ الوحي قد انْقطعَ من السماء، فهيّجَتْهُما على البكاء، فجعلا يبكيان معها. رواه مُسلم.

قال النـووي رحمـه الله: فيه زيارة الصالحين وفضلها، وزيارة الصالح لمن هو دونه، وزيارة الإنسان لمن كان صديقه يزوره ولأهل ودّ صديقـه، وزيارة جمـاعـة من الـرجـال للمرأة الصالحة، وسماع كلامهـا، واسْتصحـاب العالم والكبير صاحباً له في الزيارة والعيادة ونحوهما، والبكاء حزناً على فراق الصالحين والأصحاب وإن كانوا قد انتقلوا إلَى أفضل ممّا كانوا عليه، والله أعلم(١).

٨ـ وعن ابن عمـر رضي الله عنهمـا قال: لمّا اشْتدّ برسول الله ﷺ وجعُـهُ، قيل له في الصـلاة. قال: «مُرُوا أبا بكر فلْيُصَلّ بالنّاس». فقالت عائشة رضي الله عنها: إنّ أبا بكر رجلٌ رقيقٌ، إذا قرأ القرآن غلبهُ البكاءُ، فقال: «مرُوه فلْيُصَلِّ».

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنّ أبا بكر إذا قام مقامكَ لم يُسمع النّاس من البكاء. متفق عليه.

في هذا الحديث بيان لفضيلة أبي بكر وما تميَّز به من رقّة قلبه وكثرة بكائه خوفاً من الله عزّ وجلّ.

وقال ابن حجر: وفيه أن البكاء ـ ولو كثر ـ لا يبطل الصلاة، لأنّه ﷺ بعد أن علِمَ حال أبي بكر في رقّة القلب وكثرة البكاء لم يعدل عنه، ولا نهاه عن البكاء(٢).

---

(١) صحيح مُسْلم بشرح النووي ج ١٦ ص ١٠.

(٢) فتح الباري ج ٢ ص ١٥٦.

٩ـ وعن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أنّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أُتِيَ بطعام وكان صائماً، فقال: قتلَ مصعبُ بن عمير رضي الله عنه، وهو خير منّي، فلم يوجد له ما يكفَّن فيه إلاَّ بُردةٌ، إنْ غُطِّيَ بها رأسه بدت رِجْلاه، وإنْ غطِّي بها رِجْلاَه بدا رأسه، ثم بُسِط لنا من الدنيا ما بسط ـ أوْ قال أعطينا من الدنيا ما أعطينا ـ قد خشينا أن تكون حسناتنا عجِّلت لنا. ثم جعل يبكي حتّى ترك الطعام. رواه البخاري.

قوله «وَهُوَ خيرٌ منّي» لعلّه قال ذلك تواضعاً. ويحتمل أن يكون ما استقر عليه الأمر من تفضيل العشَرَة على غيرهم بالنظر إلى من لم يقتل في زمن النبي ﷺ، وقد وقع من أبي بكر الصديق نظير ذلك، فذكـر ابن هشام: أن رجلاً دخل على أبي بكر الصديق وعنده بنت سعد بن الربيع وهي صغيرة فقال: من هذه؟ قال: هذه بنت رجل خير منّي، سعد بن الربيع، كان من نقباء العقبة، شهد بدراً واستشهد يوم أُحُد.

وقوله «ثم بسط لنا مِن الدنيا ما بسط» يشير إلى ما فُتحَ لهم من الفتوح والغنائم، وحصل لهم من الأموال، وكان لعبد الرحمن من ذلك الحظّ الوافر.

وقوله «ثم جعل يبكي حتّى ترك الطعام» في رواية أحمد عن غندر عن شعبة «وَأحسبه لم يأكله». وفي الحديث فضل الزهد، وأنّ الفاضل في الدين ينبغي له أن يمتنع من التوسع في الدنيا لئلا تنقص حسناته، وإلى ذلك أشار عبد الرحمن بقوله: خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت.

قال ابن بطال: وفيه أنه ينبغي ذكر سير الصالحين وتقللهم في الدنيا لتقلّ رغبته فيها، قال: وكان بكاء عبد الرحمن شفقاً أن لا يلحق بمن تقدمه[1].

١٠ـ وعن أبي أُمامة صُدَيّ بن عجلان الباهلي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس شيء أحبّ إلى الله تعالى من قَطْرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله، وقطرة دمٍ تهراقُ في سبيل الله. وأمّا الأثرَان: فأثرٌ في سبيل الله تعالى، وأثرٌ في فريضةٍ من فرائض الله تعالى» رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

١١ـ وعن أبي نجيح العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغةً وجلتْ منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنّها موعظة مودعٍ فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقَوى الله والسّمع والطّاعة وإن تأمّر عليكم عَبْدٌ حبشيّ، وإنّه من يعش منكم فسيَرى اخْتلافاً كثيراً، فعليكم بسنتّي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضّوا عليها بالنّواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنّ كلّ بدْعة ضلالة» رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

قوله «ذرفت» أي: دمعت «ووجلت» بكسر الجيم، أي: خافت.

وقوله «موعظة مودع» بالإضافة، فإنّ المودع، بكسر الدال عند الوداع لا يترك شيئاً ممّا يهم المودع، بفتح الدال، أي كأنك تودعنا بها، لما رأى من مبالغته ﷺ في الموعظة.

وقوله «وإن تأمّر عليكم عبدٌ حبشيّ» أي: صار أميراً أدنَى الخلق

(١) فتح الباري ج ٧ ص ٣٥٣، ٣٥٤.

فلا تستنكفوا عن طاعته، أوْ لو اسْتولى عليكم عبدٌ حبشيّ فأطيعوه مخافة إثارة الفتن.

قال الخطابي: يريد به طاعة من ولاّه الإمام عليكم وإن كان عبداً حبشيًّا، ولم يرد بذلك أن يكون الإمام عبداً حبشيًّا، وقد ثبت عنه ﷺ أنّه قال: الأئمة من قريش، وقد يضرب المثل في الشيء بما لا يكاد يصح في الوجود كقوله ﷺ: «من بنَى للهِ مسجداً ولوْ مثل مفحص قطاة بنَى الله له بيتاً في الجنّة» وقدر مفحص القطاة لا يكون مسجداً لشخص آدمي، ونظائر هذا الكلام كثيرة[1].

والشاهد في هذا الحديث كما هو واضح. قول الصحابي: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون».

١٢ـ وعن سعيد بن أبي هريرة رضي الله عنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعْلمُ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» رواه البخاري.

والمراد بالعلم هنا: ما يتعلق بعظمة الله وانْتقامه ممّن يعصيه، والأهوال التي تقع عند النزع، والموت، وفي القبر، ويوم القيامة. ومناسبة كثرة البكاء وقلّة الضحك في هذا المقام واضحة، والمراد به التخويف.

وقد جاء لهذا الحديث سبب أخرجه سنيد في تفسيره بسند رواه الطبراني عن ابن عمر «خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فإذا بقوم

---

(١) تحفة الأحوذي ج ٧ ص ٤٣٩.

يتحدثون ويضحكون، فقال: والذي نفسي بيده» فذكر هذا الحديث.

وعن الحسن البصري: «من علم أن الموت مورده، والقيامة موعده، والوقوف بين يدي الله تعالى مشهده، فحقّه أن يطول في الدّنيا حزنه».

قال الكرماني: في هذا الحديث من صناعة البديع مقابلة الضحك بالبكاء، والقلّة بالكثرة، ومطابقة كلّ منهما.[1]

١٣ـ وعن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي أرَى مالاَ ترون وأسْمع مالاَ تسمعون، أطّت السّماء وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابع إلاَّ ومَلَكٌ واضعٌ جبهتهُ للهِ ساجداً. واللهِ لوْ تعلمون ما أعلمُ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذَّذْتم بالنِّساء على الفُرش، ولخرجتم إلى الصُّعُداتِ تجْأرون إلى الله، لَوَددتُ أنِّي كُنت شجرةً تُعضَدُ». رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب.

وفي رواية للترمذي ـ أيضاً ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما اعْلمُ لضحكتم قليلاً ولبكيتُم كثيراً» هذا حديث صحيح.

قوله ﷺ «أطّت السّماء» بتشديد الطاء، من الأطيط، وهو صوت الإقتاب، «وحُقَّ» بصيغة المجهول، أي ويستحق وينبغي «لها أن تئطّ» أي تصوت «ما فيها موضع أربع أصابع إلاَّ ومَلك واضع جبهته للهِ ساجداً» قال القاري: أي منقاداً، ليشمل ما قيل أنّ بعضهم قيام وبعضهم ركوع وبعضهم سجود، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمَا

---

(١) فتح الباري ج ١١ ص ٣١٩، ٣٢٠.

مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم﴾[1] أوْ خصّه باعتبار الغالب منهم، أوْ هذا مختصّ بإحدى السماوات.

قال الطيبي رحمه الله: أي أنّ كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقَلها حتّى أطَّتْ، وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثمة أطيط، وإنّما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله تعالى. انتهى. قال القاري: ما المحوج عن عدول كلامه ﷺ من الحقيقة إلى المجاز مع إمكانه عقلاً ونقلاً حيث صرّح بقوله: وأسمع مالاَ تسمعون مع أنّه يحتمل أن يكون أطيط السماء صوتها بالتسبيح والتحميد والتقديس لقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ مَنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه﴾[2] وَمَعنَى «تَجْأرون إلى الله» أي تتضرعون إليه بالدعاء ليدفع عنكم البلاء[3].

١٤ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبةً ما سمعت مثلها قط، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فغطَّى أصحابُ رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنينٌ. متفق عليه. وفي رواية: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال: «عُرضت عليّ الجنة والنّار، فلْم أرَكاليوم في الخير والشرّ، ولو تعلمون ما أعْلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فما أتى علَى أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أشدّ منه، غطّوا رؤُوسهم ولهم خنين.

[الخنينُ: بالخاء المعجمة: هو البكاء مع غُنَّةٍ وانتشاقِ الصوت من الأنف].

---

(١) ١٦٤/ من سورة الصافات.

(٢) ٤٤/ من سورة الإسراء.

(٣) تحفة الأحوذي ج ٦ ص ٦٠١، ٦٠٢.

١٥ـ وعن ابن أبي مُلَيْكَةَ قال: جلسْنا إلى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في الحِجْر فقال: ابْكُوا، فإن لم تجدوا بُكاءً فتباكَوْا، لَوْ تعلموا العلم لصلّى أحدُكم حتّى ينكسر ظهرُهُ، ولبكى حتّى ينقطع صوتُهُ. رواه الحاكم مرفوعاً وقال: صحيح على شرطهما. والمقصود بالعلم: شدّة عذاب يوم القيامة.

١٦ـ وعن عليّ رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بدرٍ غيرْ المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلاّ نائمٌ إلاّ رسول الله ﷺ تحت شجرةٍ يُصَلِّي ويبكي حتّى أصبَح. رواه ابن خزيمة في صحيحه.

١٧ـ وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طُوبَى لمن مَلَكَ نفسَهُ، ووسِعَه بيته، وبكى على خطيئته». رواه الطبراني في الأوسط والصغير وحسّن إسناده[1].

١٨ـ وعن عائشة قالت: صَنَع رسُولُ الله ﷺ أمْراً فترخَّصَ فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكأنّهم كرهُوهُ وتنزّهُوا عنه، فبلغه ذلك، فقام خطيباً فقال: ما بالُ رجالٍ بلغهم عنِّي أمْرٌ ترخَّصْتُ فيه فكرهوه وتنزّهوا عنه، فوالله لأنا أعلمُهم بالله وأشدّهم له خشية. رواه مُسْلم في صحيحه.

وفي رواية لمُسلم ـ أيضاً ـ عن عائشة قالت: رخّص رسُولُ الله ﷺ في أمْر فتنزّه عنْهُ ناسٌ من النَّاس، فبلغ ذلك النبي ﷺ فغضبَ حتّى بانَ الغضب في وجهه، ثم قال: ما بالُ أقوامٍ يرغبون عمّا رُخِّص لي فيه، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدّهم له خشيةً.

(١) الأحاديث رقم ١٥، ١٦، ١٧/ نقلاً من الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٣١ ـ ٢٣٣.

قال النووي رحمه الله: فيه الحث على الاقتداء به ﷺ، والنهي عن التعمق في العبادة وذمّ التنزّه عن المباح شكاً في إباحته، وفيه الغضب عند انتهاك حرمات الشرع، وإن كان المنتهك متأولاً تأويلاً باطلاً، وفيه أنّ القرب إلى الله تعالى سبب لزيادة العلم به وشدّة خشيته، وأمّا قوله ﷺ: «فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية» فمعناه أنّهم يتوهمون أن سننهم عما فعلت أقرب لهم عند الله وإن فعل خلاف ذلك، وليس كما توهموا، بل أنا أعلمهم بالله وأشدّهم له خشية، وإنّما يكون القرب إليه سبحانه وتعالى والخشية له على حسب ما أمر، لا بمخيلات النفوس وتكلف أعمال لم يأمر بها. والله أعلم(١).

١٩- وعن أبي حازم أنّ عامرَ بنَ عبد الله بن الزُّبَيْر أخبره أنّ أباه أخبره أنّه لم يكن بيْن إسلامهم وبيْن أن نزلت هذه الآية، يعاتبهم الله بها، إلاَّ أربع سنين: ﴿وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٢) رواه ابن ماجة.

[في الزوائد: هذا إسناده صحيح، رجاله ثقات](٣).

وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكة مجدِبين، فلمّا هاجروا أصابوا الرِّيف والنِّعمة، ففتروا عمّا كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا.

وذكر ابن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس، قال: بلغني أنّ عيسَى عليه السلام قال لقومه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسوا

---

(١) صحيح مُسْلم بشرح النووي ج ١٥ ص ١٠٦، ١٠٧.

(٢) ١٦/ من سورة الحديد.

(٣) ابن ماجة ج ٢ ص ١٤٠٢ حديث رقم ٤١٩٢.

قلوبكم، فإنَّ القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنّكم أرباب، وانظروا فيها ـ أوْ قال في ذنوبكم ـ كأنكم عبيد، فإنّما النّاس رجلان: معافىً، ومُبْتلىً، فارْحموا أهل البلاء، واحْمدُوا الله على العافية[1].

٢٠ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لاَ تُكْثِروا الضَّحِكَ، فإنّ كثْرَة الضَّحِكِ تُميتُ القلب». رواه ابن ماجة.

[في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات][2].

---

(١) قرطبي ج ١٧ ص ٢٥٠.

(٢) ابن ماجة ج ٢ ص ١٤٠٣، حديث رقم ٤١٩٣.

باب في عظمة الله

١ـ عن أبـي هريرة رضي الله عنـــه عن النبيّ ﷺ قال: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين مُلُوك الأرض»؟

٢ـ وعن أبي سعيد الخدري: «قال النبي ﷺ تكون الأرض يوم القيامة خبزةً واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة. فأتَى رجل من اليهود فقال: بارَكَ الرحمن عليك يا أبا القاسم ألَا أخبرك بنُزُل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال بلى. قال تكون الأرض خبزةً واحدةً كما قال النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحكَ حتّى بدت نواجذه، ثم قال: ألَا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم بالام ونُون. قالوا: وما هذا؟ قال: ثورٌ ونون، يأكل من زائدةِ كبدهما سبعون ألْفاً».

٣ـ وعن سهل بن سعد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُحْشرُ النَّاس يوم القيامة على أرض بيضاءَ عفراء كقُرصةِ النقيّ. قال سهلٌ ـ أو غيره ـ[1] ليس فيها مَعْلَمٌ لأحد»[2].

---

(١) من رواة الحديث.

(٢) الأحاديث ١، ٢، ٣/ رواها البخاري في صحيحه ج ١١ ص ٣٧٢ فتح الباري.

قولـه ﷺ في حديث أبي سعيد الخـدري: «تكون الأرض يوم القيامة» يعني أرض الدنيا «خُبْزة» قال الخطابي: الخبزة: الطلمة - بضم المهملة وسكون اللام - وهو عجين يوضع في الحفرة بعد إيقاد النار فيها، قال: والناس يسمّونها الملّة - بفتح الميم وتشديد اللام -، وإنّما الملّة: الحفرة نفسها.

وقـولـه «يتكفؤهـا الجبّـار» بفتـح المثنـاة والكاف وتشديد الفاء المفتوحة بعدها همزة، أي يميلها، من كفأت الإناء إذا قلبته، وفي رواية مُسْلم «يكفؤها» بسكون الكاف. «كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر» قال الخطابي: يعني خبز الملّة الذي يصنعه المسافر، فإنها لا تدحى كما تدحى الرقاقة، وإنّما تقلب على الأيدي حتّى تستوي، وهذا على أنّ السفر بفتح المهملة والفاء، ورواه بعضهم بضمّ أوله: جمع سفرة وهو الطعام الذي يتخذ للمسافر، ومنه سمّيت السفرة.

وقـولـه «فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك» يريد أنّه أعجبه إخبار اليهودي عن كتابهم بنظير ما أخبر به من جهة الوحي، وكان يعجبه موافقة أهل الكتاب فيما لم ينزل عليه، فكيف بموافقتهم فيما أنزل عليه. وقوله: «ألاَ أخبرك بإدامهم» أي ما يؤكل به الخبز.

قال: «بالام» بفتح الموحدة بغير همز، وقوله «ونون» أي بلفظ أول السـورة. «قالوا» أي الصحابة «ما هذا»؟ «قال: ثور ونون» قال الخطابي: هكذا رووه لنا، وتأمّلت النسخ المسموعة من البخاري من طريق حماد بن شاكر وإبراهيم بن معقل والفربري فإذا كلّها على نحو واحد.

ثم قال: - أي الخطابي - فأمّا «نون» فهو الحوت على ما فسر في

الحديث، وأمّا «بالام» فدلّ التفسير من اليهودي على أنّه اسْم للثور.

وقوله «يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألْفاً» قال عياض: زيادة الكبد وزائدتها هي القطعة المنفردة المتعلقة بها وهي أطيبه، ولهذا خصّ بأكلها السبعون ألْفاً، ولعلّهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب فضّلوا بأطيب النزل، ويحتمل أن يكون عبرّ بالسبعين عن العدد الكثير ولم يرد الحصر فيها.

أما حديث سهل بن سعد. فقوله سمعت النبي ﷺ يقول: «يُحشر النّاس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء».

قال الخطابي: العفر: بياض ليس بالنّاصع، وقال عياض: العفر: بياض يضرب إلى حمرة قليلاً، ومنه سمي عفر الأرض وهو وجهها.

وقال ابن فارس: معنى عفراء خالصة البياض. وقال الداودي: شديدة البياض. كذا قال، والأول هو المعتمد.

وقوله «كقرصة النقيّ» بفتح النون وكسر القاف، أي الدقيق النقّي من الغشّ والنخال، قاله الخطابي.

وقوله[1] «وقال سهل، أوْ غيره ليس فيها معْلم لأحد» سهل هو راوي الخبر و «أوْ» للشك، والغير المبهم لم أقف على تسميته[2] ووقع هذا الكلام الأخير لمسلم من طريق خالد بن مخلد عن محمد بن جعفر مدرجاً بالحديث ولفظه «ليس فيها علم لأحد» ومثله لسعيد بن

---

(١) القائل: أحد رواة الحديث.

(٢) القائل: هو الحافظ ابن حجر.

منصور عن ابن أبي حازم عن أبيه، والعلم والمعلم بمعنًى واحد.

قال الخطابي: يريد أنّها مستوية. والمعلم - بفتح الميم واللام بينهما مهملة ساكنة - هو الشيء الذي يستدل به على الطريق.

وقال عياض: المراد أنّها ليس فيها علامة سُكْنَى ولا بناء ولا أثر ولا شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات كالجبل والصّخرة البارزة. وفيه تعريض بأرض الدّنيا وأنّها ذهبت وانقطعت العلاقة منها. وقال الداودي: المراد أنّه لا يحوز أحد منها شيئاً إلاّ ما أدرك منها.

وقال أبو محمد بن أبي جمرة: فيه دليل على عظيم القدرة، والإعلام بجزئيات يوم القيامة ليكون السامع على بصيرة فيخلص نفسه من ذلك الهول لأنّ في معرفة جزئيات الشيء قبل وقوعه رياضة النفس وحملها على ما فيه خلاصها بخلاف مجيء الأمر بغتة، وفيه إشارة إلى أنّ أرض الموقف أكبر من هذه الأرض الموجودة جداً، والحكمة في الصفة المذكورة أنّ ذلك اليوم يوم عدل وظهور حقّ فاقتضت الحكمة أن يكون المحل الذي يقع فيه ذلك طاهراً عن عمل المعصية والظلم، وليكون تجليه سبحانه على عباده المؤمنين على أرض تليق بعظمته، لأنّ الحكم فيه إنّما يكون لله وحده، فناسب أن يكون المحلّ خالصاً له وحده. انتهى ملخصاً.

وفيه إشارة إلى أن أرض الدنيا اضمحلت وأعدمت، وأن أرض الموقف تجددت. وقد وقع للسلف في ذلك خلاف في المراد بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾[1] هل معنَى تبديلها تغيير ذاتها وصفاتها، أو تغيير صفاتها فقط، وحديث الباب

(١) ٤٨/ من سورة إبراهيم.

يؤيد الأول، وأخرج عبد الرزاق وعبْد بن حميد والطبري في تفاسيرهم والبيهقي في الشعب من طريق عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ الآية قال: تبدل الأرض أرضاً كأنّها فضّة لم يسفك فيها دم حرام ولم يعمل عليها خطيئة، ورجاله رجال الصحيح وهو موقوف، وأخرجه البيهقي من وجه آخر مرفوعاً وقال: الموقوف أصح، وأخرجه الطبري والحاكم من طريق عاصم عن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود بلفظ: «أرض بيضاء كأنّها سبيكة فضّة» ورجاله موثقون أيضاً، ولأحمد من حديث أبي أيوب: أرض كالفضة البيضاء، قيل فأين الخلق يومئذ؟ قال: هم أضياف الله لن يعجزهم ما لديه.

وأما من ذهب إلى أنّ التغيير إنّما يقع في صفات الأرض دون ذاتها فمستنده ما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال: إذا كان يوم القيامة مدّت الأرض مدّ الأديم وحشر الخلائق.

ومن حديث جابر رفعه: «تمدّ الأرض مدّ الأديم ثم لا يكون لابْن آدم منها إلّا موضع قدميه» ورجاله ثقات، إلّا أنه اختلف على الزهري في صحابيه. ووقع في تفسير الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: يزاد فيها وينقص منها ويذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وتمدّ مدّ الأديم العكاظي، وعزاه الثعلبي في تفسيره لرواية أبي هريرة، وحكاه البيهقي عن أبي منصور الأزهري، وهذا وإن كان ظاهره يخالف القول الأول فيمكن الجمع بأن ذلك كلّه يقع لأرض الدنيا، لكن أرض الموقف غيرها، ويؤيده ما وقع في الحديث الذي قبله أنّ أرض الدنيا تصير

خبـزة[1]. وأخيراً: معـذرة أخي القـارىء في الإطالة بتوضيح بعض معاني الأحاديث، لكن المقصود من إيراد هذه الأحاديث ـ كما هو واضـح ـ فقط لبيان قدرة الله وعـظمته، وقد حصل بحمد الله، وهو مناسب لباب الخوف، فما خافه إلَّا من عرفه حقّ المعرفة وصدق الله حيث يقـول: ﴿وَمَا قَدرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

(١) فتح الباري ج ١١ ص ٣٧٣ ـ ٣٧٦ باختصار.

(٢) ٦٧/ من سورة الزّمر.

باب ما جاء في الموت وسكراته

١ـ عن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: إنّ رسول الله ﷺ كان بين يديه رَكوةٌ ـ أو عُلْبةٌ فيها ماء، يشك عمرُ ـ فجعل يُدخلُ يده في الماء فيمسحُ بها وجهه ويقول: لا إله إلّا الله، إنّ للموتِ سكرات. ثم نصب يده فجعل يقول: في الرفيق الأعْلى. حتّى قُبِضَ ومالت يده.

٢ـ وعنها أيضاً قالت: كان رجالٌ من الأعراب جُفاةً يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متَى الساعة؟ فكان ينظرُ إلى أصغرهم فيقول: إن يَعش هذا لا يُدْرِكْهُ الهرمُ حتّى تقوم عليكم ساعتكم. قال هشام[1]: يعني موتهم.

٣ـ وعن أبي قتادة بن ربعيٍّ الأنصاريِّ أنّه كان يُحدِّثُ أنّ رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فقال: مُسْتريح ومُسْتراحٌ منه. قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدّنيا وأذاها إلى رحمة الله عزّ وجلّ، والعبد الفاجرُ يستريح منه العبادُ والبلادُ والشجرُ والدوابُّ».

٤ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات أحدُكُم عرضَ عليه مقعده غدوةً وعشيّاً: إمّا النّار وإمّا الجنّة، فيقالُ:

---

(١) أحد رواة الحديث.

هذا مقعـدك حتّى تُبعَثَ إليه»[1] قوله «باب سكرات الموت» ـ بفتح المهملة والكـاف ـ جمـع سكـرة، قال الراغب وغيره: السُكُرْ حالة تعـرض بين المـرء وعقله، وأكثـر ما تستعمل في الشراب المسكر، ويطلق في الغضب والعشق والألم والنُّعاس والغشي الناشيء عن الألم وهو المراد هنا.

قوله «إنّ للموت سكرات» وقع في رواية القاسم عن عائشة عند أصحاب السنن سوَى أبي داود بسند حسن بلفظ «ثم يقول اللّهم أعنّي علَى سكرات الموت».

وعن عائشة: مات النبي ﷺ وإنّه لبين حاقنتي وذاقنتي، فلا أكره شدّة الموت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ.

وأخرج الترمذي عنها بلفظ: ما أغبط أحداً بِهوْنِ موتٍ بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ[2].

وقـولـه «ما أغبط» بكسر الباء، يقال: غبطت الرجل أغبطه إذا اشتهيت أن يكون لك مثل ما له وأن يدوم عليه ما هو فيه، أي ما أحسد «أحداً» ولا أتمنى ولا أفرح لأحد «بهونِ موت» الهون ـ بالفتح ـ الرفق واللين، أي بسهولة موت، والإضافة فيه إضافة الصفة إلى الموصوف، أي لما رأيت شدّة وفاته علمت أنّ ذلك ليس من المنذرات الدالة على سوء عاقبة المتوفّى، وأنّ هون الموت وسهولته ليس من المكرمات. وإلّا لكان ﷺ أوْلى النّاس به فلا أكره شدة الموت لأحد ولا أغبط أحداً

(١) الأحاديث ١، ٢، ٣، ٤/ رواه البخاري في صحيحه ج ١١ ص ٣٦١، ٣٦٢.

(٢) فتح الباري ج ١١ ص ٣٦٢، ٣٦٣ باختصار.

يموت من غير شدّة[1].

وقوله ﷺ: «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده» وهذا العرض يقع على الروح حقيقة وعلى ما يتصل به من البدن الاتّصال الذي يمكن به إدراك التنعيم أو التعذيب.

«غدوة وعشية» أي أوّل النهار وآخره بالنسبة إلى أهل الدّنيا[2]. وهو محمول على أنه يحيًا منه جزء ليدرك ذلك، فغير ممتنع أن تعاد الحياة إلى جزء من الميت أوْ أجزاء وتصح مخاطبته والعرض عليه.

وقال القرطبي: يجوز أن يكون هذا العرض على الروح فقط، ويجوز أن يكون عليه مع جزء من البدن. قال: والمراد بالغداة والعشي وقتهما، وإلاَّ فالموتَى لا صباح عندهم ولاَ مساء، قال: وهذا في حقّ المؤمن والكافر واضح، فأمّا المؤمن المخلط فمحتمل في حقّه أيضاً، لأنّه يدخل الجنّة في الجملة، ثم هو مخصوص بغير الشهداء لأنهم أحياء وأرواحهم تسرح في الجنة.

ويحتمل أن يقال: إنّ فائدة العرض في حقّهم تبشير أرواحهم باستقرارها في الجنة مقترنة بأجسادها، فإنّ فيه قدراً زائداً على ما هي فيه الآن.

وقوله: «إمّا النّار وإمّا الجنّة» وفي رواية أخرى «إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة» اتحد فيه الشرط والجزاء لفظاً ولا بدّ فيه من تقدير، قال التوربشتي: التقدير إن كان من أهل الجنة فمقعده من مقاعد أهل الجنة يعرض عليه.

---

(١) تحفة الأحوذي ج ٤ ص ٥٦.

(٢) فتح الباري ج ١١ ص ٣٦٦.

وقال الطيبي: الشرط والجزاء إذا اتّحدا لفظاً دلّ علَى الفخامة، والمراد أنّه يَرى بعد البعث من كرامة الله ما ينسيه هذا المقعد. انتهى.

ووقـع عنـد مُسْلم بلفظ «إن كان من أهـل الجنـة فالجنة» أي فالمعروض الجنة. وفي هذا الحديث إثبات عذاب القبر، وأنّ الروح لا تفنى بفناء الجسد، لأنّ العرض لا يقع إلاّ على حيّ[1].

٥ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «أكثروا ذكرَ هاذِم اللّذات» يعني: الموت. هذا حديثٌ غريبٌ حَسَنٌ.

ومعنى «هاذم اللذات» بالذال المعجمة: أي قاطعها، وصحح الـطيبي بالدال المهملة، حيث قال: شبّه اللذات الفانية والشهوات العاجلة ثم زوالها ببناء مرتفع ينهدم بصدمات هائلة، ثم أمر المنهمك فيها بذكر الهادم لئلا يستمر على الركون إليها، ويشتغل عمّا يجب عليه من الفرار إلى دار القرار. انتهى كلامه.

لكن قال الإسنوي في المهمات: الهاذم ـ بالذال المعجمة ـ هو القاطع كما قاله الجوهري وهو المراد هنا.

وفي الباب أيضاً عن ابن عمر مرفوعاً: أكثروا ذكر هاذم اللذات، يعني: الموت، فإنّه ما كان في كثير إلاّ قلّله، ولا قليل إلاّ جزله. رواه الطبراني بإسناد حسن[2].

٦ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أتيتُ النبي ﷺ عاشِرَ عشرةٍ، فقـام رجُـلٌ من الأنصـار فقـال: يا نبيّ الله مَنْ أكْيَسُ النّاس وأحْزَمُ

(١) فتح الباري ج ٣ ص ٢٤٣.

(٢) تحفة الأحوذي ج ٦ ص ٥٩٤.

النّاس؟ قال: أكثرُهُمْ ذِكْراً للموت، وأكثرهم اسْتعداداً للموت، أُولئِكَ الأكياسُ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في الصغير بإسناد حسن، ورواه ابن ماجة مختصراً بإسناد جيد، والبيهقي في الزهد ولفظه: «أن رجلاً قال للنبيّ ﷺ: أيّ المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنُهُم خُلُقاً، قال: فأيُّ المؤمنين أكْيَسُ؟ قال: أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم لما بعده اسْتعداداً، أُولئِكَ الأكياسُ.

٧ـ وعن سهل بن سعد السّاعديِّ رضي الله عنه قال: مات رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ، فجعل أصحابُ رسول الله ﷺ يُثْنُون عليه، ويذكُرون من عبادته، ورسول الله ﷺ ساكتٌ، فلمّا سكتوا قال رسول الله ﷺ: هل كان يُكثِرُ ذكرَ الموت؟ قالوا: لا. قال: فهل كان يدع كثيراً ممّا يشتهي؟ قالوا: لا. قال: ما بلغ صاحبكم كثيراً ممّا تذهبون إليه. رواه الطبراني بإسناد حسن، ورواه البزار من حديث أنس قال: ذُكِرَ عند النبيِّ ﷺ رجُلٌ بعبادة واجتهاد فقال: كيفَ ذِكْرُ صاحبكم للموت؟ قالوا: ما نسمعه يذكره. قال: ليس صاحبُكم هناك[1].

٨ـ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: كُنْ في الدنيا كأنك غريب أوْ عابرُ سبيل، وكان ابنُ عمر يقول: إذا أمْسيت فلا تنتظر الصّباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخُذْ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك. رواه البخاري[2]. والترمذي[3] ولفظه:

---

(١) نقلاً من الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) ج ١١ ص ٢٣٣ فتح.

(٣) ج ٦ ص ٦٢٥، ٦٢٦ تحفة.

قال: أخـذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أوْ عابرُ سبيل، وعُدَّ نفسك في أصحاب القبور، وقال لي: يا ابن عمر إذا أصبحت فلا تُحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تُحـدث نفسـك بالصباح، وخُذ منْ صحتك قَبْل سَقَمِكَ، ومن حياتك قَبْل موتك، فإنّك لا تدري يا عبد الله ما اسْمُكَ غداً. رواه البيهقي وغيره نحو الترمذي[1].

فقوله «كن في الدّنيا كأنّك غريب أوْ عابر سبيل» قال الطيبي: ليست «أوْ» للشـك بل للتخيير والإباحة، والأحسن أن تكون بمعنى بَلْ، فشبّه النّاسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه، ولا مسكن يسكنه، ثم ترقّى وأضرب عنه إلى عابر السبيل، لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة، بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع بينهما أوْدية مردية، ومفاوز مهلكة وقطاع طريق، فإنّ من شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يسكن لمْحة، ومن ثمّ عقبه بقوله: إذا أمسيت فلا تنتظر الصبـاح... الخ، وبقوله: «وعُدّ نفسك في أهل القبور» والمعنى: اسْتمر سائراً ولا تفتر، فإنك إن قصَّرت انقطعت وهلكت في تلك الأودية.

«وخُـذْ مِنْ صحّتك لمرضك» أي أنّ العمر لا يخلو عن صحة ومرض. فإذا كنت صحيحاً فسِرْ سَيْر القصد وزد عليه بقدر قوتك ما دامت فيك قوة بحيث يكون ما بك من تلك الزيادة قائماً مقام ما لعلّه يفوت حالة المرض والضعف، ذكره الحافظ في الفتح.

وقال النووي رحمه الله: معنى الحديث: لا تركن إلى الدنيا ولا

---

(١) ترغيب وترهيب ج ٤ ص ٢٤٢ . ٢٤٣ .

تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه. انتهى.

وقوله «فإنّك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غداً» قال الحافظ: أي هل يقال له شقيّ أوْ سعيد، ولم يرد اسمه الخاص به فإنّه لا يتغير. وقيل: المراد هلْ يقال هو حيّ أوْ ميت. انتهى[1].

وقال عليّ بن أبي طالب: «ارْتحلت الدنيا مُدبرة، وارْتحلت الآخرةُ مُقْبلة، ولكلّ واحدٍ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدّنيا، فإنّ اليوم عملٌ ولاَ حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل» ذكره البخاري في صحيحه.[2]

٩ـ وعن عبد الله رضي الله عنه قال: خطّ النبي ﷺ خطاً مُربعاً، وخطّ خطّاً في الوسط خارجاً منه، وخطّ خُططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله محيطٌ به ـ أوْ قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارجٌ أمله، وهذه الخُططُ الصغارُ الأعراض، فإنْ أخْطأهُ هذا نهشهُ هذا، وإن أخطأهُ هذا نهشه هذا». رواه البخاري[3].

١٠ـ وعن أنس بن مالك قال: «خطّ النبيّ ﷺ خُطوطاً فقال: هذا الأمل وهذا أجله فبينما هو كذلك إذ جاءهُ الخطّ الأقرب». رواه البخاري[4].

---

(١) تحفة الأحوذي ج ٦ ص ٦٢٦، ٦٢٧.

(٢) ج ١١ ص ٢٣٥ فتح.

(٣) ج ١١ ص ٢٣٥، ٢٣٦ فتح.

(٤) ج ١١ ص ٢٣٦ فتح.

١١ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا الموتَ، فإنّ هوْلَ المطْلع شديدٌ، وإنّ من السعادة أنْ يطولَ عُمُرُ العبد، ويرزقه الله الإنابة». رواه أحمد بإسناد حسن والبيهقي(١).

١٢ـ وعن ابن مسعود أنّ نبيّ الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه: «اسْتحيوا من الله حقّ الحياء». قالوا: إنّا نستحيي من الله يا نبيّ الله! والحمدُ لله. قال: «ليس ذلك، ولكن من اسْتحيى من الله حقّ الحياء، فلْيَحفظ الرأس وما وَعَى، ولْيحفظ البطن وما حوَى، ولْيذكر الموت والبِلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد اسْتحيَى من الله حقّ الحياء» رواه أحمد والترمذي وقال: حديث غريب(٢).

---

(١) ترغيب وترهيب ج ٤ ص ٢٥٧.

(٢) مشكاة المصابيح ج ١ ص ٥٠٤، ٥٠٥ حديث رقم ١٦٠٨ وحسنة الألباني في الجامع رقم ٩٣٥.

باب: ما جاء في عذاب القبر

١ـ عن عبد الله بن عُمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعدهُ بالغداةِ والعشيّ، إنْ كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنّة، وإنْ كان من أهل النّار، فمن أهل النّار، فيُقالُ له: هذا مقعدُك حتّى يبعثَك الله إليه يوم القيامة».

هذا حديث متفق على صحته. وقد سبق شرحه.

٢ـ وعن مسروق أنّ يهودية دخلتْ على عائشة تسألُها، فقالت: أعاذكِ الله من عذاب القبر، فسألت عائشةُ النّبيّ ﷺ عن ذلك، فقال: «إنّ عذابَ القبر لحقٌ» قالت: فما سمعتُهُ بعد ذلك صلّى صلاةً إلّا تعوّذ من عذاب القبر. هذا حديث متفق على صحته[1].

٣ـ وعن عُروة بن الزبير أنّه سمع أسماء بنتَ أبي بكر رضي الله عنهما تقولُ: «قام رسولُ الله ﷺ خطيباً فذكر فتْنة القبر التي يفْتتِنُ فيها المرءُ، فلما ذكر ذلك ضجّ المسلمون ضجّةً». رواه البخاري[2].

٤ـ وعن قتادة عن أنس بن مالك رضيَ الله عنه أنّه حدّثهم أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبره وتولّى عنه أصحابُه ـ وإنّه

---

(١) الحديثان ١، ٢ نقلاً من شرح السنة للبغوي ج ٥ ص ٤٢٢، ٤٢٣.

(٢) ج ٣ ص ٢٣٢ فتح.

ليسمَعُ قرعَ نِعالهم ـ أتاه ملكانِ فيُقعْدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجُل؟ لمحمدٍ ﷺ. فأما المؤمن فيقول: أشهد أنّه عبد الله ورسوله. فيُقال له انْظُر إلى مقعدك من النّار، قدْ أبْدلك الله به مقعداً من الجنّة، فيراهُما جميعاً».

قال قتادةُ: وذُكر لنا أنّه يُفْسَحُ له في قبره. ثم رجع إلى حديث أنس قال: «وأمّا المنافقُ والكافر فيُقال له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجُلِ؟ فيقول: لا أدْري، كنتُ أقول ما يقُول النّاسُ. فيُقال: لا دريتَ ولا تَلَيتَ. ويُضْربُ بمطارقَ من حديد ضربةً، فيصيحُ صيْحةً يسمعُها مَنْ يَليهِ غيرَ الثَّقَلَيْن». رواه البخاري[1].

٥ـ وفي رواية لأبي داود[2] عن قتادة عن أنس بن مالك ـ أيضاً ـ «أنّ رسول الله ﷺ دخل نخْلًا لبني النّجار فسمع صوتاً ففزع فقال: من أصحابُ هذه القبور؟ قالوا: يا رسول الله ناسٌ ماتُوا في الجاهلية، فقال: تعوّذوا بالله من عذاب النّار [القبر] ومنْ فتْنة الدّجال. قالوا: ومِمَّ ذَاكَ يا رسول اللهِ؟ قال: إنّ المؤمن إذا وُضِعَ في قبره أتاهُ ملكٌ فيقول له: ما كنتَ تعبدُ؟ فإنِ الله تعالىٰ هداهُ، قال: كُنْتُ أعبُدُ الله، فيُقالُ: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل، فيقول: هُو عبدُ الله ورسُولُهُ، فما يُسْألُ عن شَيْءٍ غيرها [غيرهما] فيُنطلق به إلى بيتٍ كان له في النّار، فيُقال له: هذا بيتُكَ كان لك في النّار، ولكنّ الله عصمك ورحمك فأبْدلك به بيتاً في الجنة، فيقول: دعُوني حتّى أذْهب فأبشر أهلي، فيُقال له: اسْكُن. وإنّ الكافر إذا وُضِعَ في قبره أتاه مَلكٌ

(١) ج ٣ ص ٢٣٢، ٢٣٣ فتح.

(٢) ج ١٣ ص ٨٦ ـ ٨٨ عون المعبود.

فينْتهـرُهُ، فيقولُ لهُ: ما كُنتَ تعبُدُ؟ فيقول: لَا أدْري، فيُقالُ له: لا دريْت ولا تَلَيْتَ، فيُقـال له: مَا [فَمـا] كنت تقـولُ في هذا الرّجُل؟ فيقـول: كنتُ أقولُ ما يقول النّاس، فيضربُهُ بمْطراقٍ من حديد بين أذنيه، فيصيح صيْحةً يسمعُهَا الخلْقُ غير الثَّقليْن».

٦ـ وفي رواية أخرى ـ أيضاً لأبي داود[1]: «إنّ العبد إذا وُضِعَ في قبره وتولّى عنه أصْحابُهُ إنّه ليسمعُ قرْعَ نِعالهم، فيأتيه ملَكان فيقولان له، فذكر قريباً من حديث [حديثه] الأوّل قال فيه: وأمّا الكافرُ والمنافقُ فيقُولانِ له، زادَ المُنافِقَ، وقال: يسمعُها من يليه غيرُ الثّقليْن».

٧ـ وعن البراء بن عازب أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ المُسلم إذا سُئِلَ في القبر فشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ مُحمّداً رسولُ الله فذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**﴾[2]»، رواه أبو داود[3].

وعند الشيخين عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله، فذلك قولـه: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّـذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِـرَةِ**﴾. وفي رواية عن النبي ﷺ قال: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّـذِينَ آمَنُـوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**﴾ نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربّك؟ فيقول: ربّيَ الله، ونبيِّي محمد» انتهى.

قال المنذري: وأخرجه البخاري ومُسْلم والترمذي والنسائي وابن ماجة بنحوه.

---

(١) ج ١٣ ص ٨٨ عون المعبود.

(٢) ٢٧ / من سورة إبراهيم.

(٣) ج ١٣ ص ٨٥، ٨٦ عون المعبود.

قوله ﷺ في حديث أنس «ففزع» أي خاف «تعوّذوا بالله من عذاب النّار» أي اطلبوا منه أن يدفع عنكم عذابها، وفي بعض النّسخ: من عذاب القبر مكان من عذاب النّار، «ومن فتنة الدّجال» الفتنة: الامتحان، وتستعمل في المكروه والبلاء، وفتنة الدّجال أكبر الفتن حيث يجر إلى الكفر.

وقوله: «إنّ المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك» قال القرطبي في التذكرة: جاء في هذا الحديث سؤال ملك واحد، وفي غيره سؤال ملكين، ولا تعارض في ذلك، بل كلّ ذلك صحيح المعنَى بالنسبة إلى الأشخاص، فربّ شخص يأتيانه جميعاً ويسألانه جميعاً في حال واحد عند انصراف النّاس عنه ليكون السؤال أهول والفتنة في حقّه أشدّ وأعظم، وذلك بحسب ما اقْترف من الآثام واجترح من سيّىء الأعمال، وآخر يأتيانه قبل انصراف النّاس عنه، وآخر يأتيانه أحدهما على الإنفراد فيكون ذلك أخف في السؤال لما عمله من صالح الأعمال، كذا في مرْقاة الصعود[1].

وأخرج الترمذي في جامعه[2] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قُبِرَ الميِّتُ ـ أوْ قال أحدكم ـ أتاه ملكان أسْوَدَان أزْرقان. يقال لأحدهما المنكرُ والآخرُ النّكيرُ فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقولُ ما كان يقولُ: هو عبدُ الله ورسولُهُ. أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ مُحمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كُنّا نعلمُ أنّك تقول هذا. ثم يُفْسحُ له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين. ثُمَّ يُنَوّر له فيه، ثم يُقال

(١) نقلاً من عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ١٣ ص ٨٦، ٨٧.
(٢) ج ٤ ص ١٨١ ـ ١٨٤ تحفة الأحوذي.

له: نَمْ فيقول أرْجعُ إلى أهْلي فأخبرهم؟ فيقولان: نَمْ كنومة العروس الذي لا يوقظه إلّا أحبُّ أهله إليه، حتّى يبعثه الله من مضجعه ذلك».

«وإن كان منافقاً قال: سمعت النّاسَ يقولون فقُلتُ مثلَه. لا أدري. فيقولان: قد كُنّا نعلمُ أنّك تقول ذلك. فيُقال للأرض: الْتئمي عليه. فتلْتئم عليه. فتختلف أضْلاعُهُ. فلا يزال فيها مُعذَّباً حتّى يبعثه الله من مضجعه ذلك».

فقوله: «إذا قبر الميت» بصيغة المجهول، أي إذا أدخل في القبر ودفن «أوْ قال أحدكم» شكّ من الراوي، أي: أوْ قال أحدكم مكان لفظ الميّت «أتاه ملكان أسودان يزرفان» بزاء فراء، أي أزرقان أعينهما. زاد الطبراني في الأوسط من طريق أخرى عن أبي هريرة: أعينهما مثل قدور النحاس، وأنيابهما مثل صياصي البقر، وأصواتهما مثل الرّعد. ونحوه لعبد الرزاق من مرسل عمرو بن دينار وزاد: يحفران بأنيابهما ويطآن في أشعارهما، معهما مرْزبة لو اجتمع عليها أهل منَى لم يقلوها. كذا في فتح الباري. «يقال لأحدهما المنكر وللآخر نكير» قال الحافظ في الفتح: ذكر بعض الفقهاء أنّ اسْم اللذين يسْألان المذنب منكر ونكير، واسْم اللّذين يسْألان المطيع مبشر وبشير «فيقولان ما كنت تقول في هذا الرّجل» وفي حديث أنس عند البخاري: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد. ولأحمد من حديث عائشة: ما هذا الرّجل الذي كان فيكم؟ قال القسطلاني: عبّر بذلك امْتحاناً لئلاّ يتلقّن تعظيمه عن عبارة القائل. «فيقول» أي الميت «ما كان يقول» أي قبل الموت «قد كنّا نعلم أنّك تقول هذا» أي الإقرار بالوحدانية والرّسالة. وعلمها بذلك إمّا بإخبار الله تعالى إيّاهما بذلك.

أَوْ بمشاهدتهما في جبينه أثر السعادة وشعاع نور الإيمان والعبادة. «ثمّ يفسح» بصيغة المجهول، أي يوسع «سبعون ذراعاً في سبعين» أي في عرض سبعين ذراعاً. يعني طوله وعرضه كذلك.

قال الطيبي: أصله يفسح قبره مقدار سبعين ذراعاً، فجعل القبر ظرفاً للسبعين. وأسند الفعل إلى السبعين مبالغة في السّعة «ثم ينّور له فيه» أي يجعل النور له في قبره الذي وسع عليه، وفي رواية ابن حبّان: وينور له كالقمر ليلة البدر.

«ثم يقال له نَمْ» أمْرٌ، من نام ينام «فيقول» أي الميت لعظيم ما رأى من السرور «أرجع إلى أهلي» أي أريد الرجوع كذا قيل. «فأخبرهم» أي بأن حالي طيب ولا حزن لي ليفرحوا بذلك «كنومة العروس» هو يطلق على الذكر والأنثى في أول اجتماعهما، وقد يقال للذكر العريس «الذي لا يوقظه» الجملة صفة العروس، وإنّما شبّه نومه بنومة العروس، لأنه يكون في طيب العيش «إلاّ أحبّ أهله إليه» قال المظهر: عبارة عن عزّته وتعظيمه عند أهله يأتيه غداة ليلة زفافه من هو أحبّ وأعطف فيوقظه على الرفق واللطف.

وأما عن المنافق فيقول «سمعت الناس يقولون» وفي بعض النسخ يقولون قولاً، وكذلك في المشكاة، والمراد بالقول: هو أنّ محمداً رسول الله «فقلت مثله» أي مثل قولهم «لا أدري» أي أنّه نبيّ في الحقيقة أمْ لاَ، وهو استيناف، أي ما شعرت غير ذلك القول، وقوله «الْتَأمِي» أي انضمي واجتمعي «فيختلف أضلاعه» بفتح الهمزة جمع ضلع، وهو عظم الجنب، أي تزول عن الهيئة المستوية التي كانت عليها من شدّة التئامها عليه وشدة الضّغطة، وتجاوز جنبيه من كلّ

جنب إلى جنب آخر «فلا يزال فيها» أي في الأرض، أوْ في تلك الحالة[1].

٨ـ وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال «خرجَ النّبيّ ﷺ وقد وجَبَت الشمسُ، فسمع صوتاً، فقال: يهودُ تُعذّبُ في قبورها». رواه البخاري[2].

٩ـ وعن موسى بن عُقبة قال: حدثتني ابْنة خالد بن سعيد بن العاص «أنّها سمعت النبيّ ﷺ وهو يتعوّذُ من عذاب القبر». رواه البخاري[3].

١٠ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله ﷺ يدْعو: اللهم إنّي أعوذُ بكَ من عذاب القبر، ومن عذاب النّار، ومن فتْنة المحْيا والممات، ومن فتنةِ المسيح الدّجّال». رواه البخاري[4].

١١ـ وعن طاوُس قال ابنُ عباسٍ رضيَ الله عنهما: «مرّ النبيّ ﷺ على قبْرين فقال: إنّهما ليعذّبان وما يُعذّبان في كبير. ثم قال: بلَىٰ أمّا أحدُهما فكان يسْعَىٰ بالنميمة، وأمّا أحدهما فكان لا يستترُ من بوله. قال: ثم أخذ عوداً رطباً فكسرهُ باثْنتيْن، ثم غرزَ كلّ واحدٍ منهما على قبرٍ ثم قال: لعلّه يُخَفَّفُ عنهما، مالم يَيْبَسَا». رواه البخاري[5].

قال الزين بن المنير: ـ على هذا الحديث الأخير ـ المراد

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ج ٤ ص ١٨١ ـ ١٨٤ بتصرف.
(٢) ج ٣ ص ٢٤١ فتح.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤٢.

بتخصيص هذين الأمرين بالذكر، تعظيم أمرهما، لا نفي الحكم عمّا عداهما، فعلى هذا لا يلزم من ذكرهما حصر عذاب القبر فيهما، لكن الظاهر من الاقْتصار على ذكرهما أنّهما أمْكن في ذلك من غيرهما، وقد روَى أصحاب السنن من حديث أبي هريرة «اسْتنْزهوا من البول فإنّ عامة عذاب القبر منه»[1].

١٢ـ وعن البراء بن عازب قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبرْ ولَمّا يُلْحَدْ فجلس رسول الله ﷺ وجلسْنـا حوله كأنّما على رُؤوسنا الطير، وفي يده عُودٌ ينكُتُ به في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرّتين أوْ ثلاثاً.

زاد في حديث جرير هٰهنا[2]، وقال: وإنّه ليسمعُ خَفْق نعالهم إذا ولّوا مدبرين حين يُقال له: يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيُّكَ. قال هَنّادٌ[3]: قال: ويأتيه مَلَكَان فيُجلسانه فيقولان له: من ربّك؟ فيقول: ربّيَ الله، فيقولان له: ما دينُكَ؟ فيقولُ: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرّجل الذي بُعثَ فيكم؟ قال: فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان: ما يُدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدَّقت. زاد في حديث جرير: فذلـك قول الله تعـالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّـذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[4]، الآية ـ ثـم اتّفقا ـ قال فينـادي مُنَـادٍ من السّماء أن قد صدق عبدي فأفْرشُوهُ من الجنّة

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٣ ص ٢٤٢.

(٢) جرير: هو أحد رواة الحديث، وقوله «ههٰنا» أي في رواية أبي داود.

(٣) أحد رواة الحديث أيضاً.

(٤) ٢٧ / من سورة إبراهيم.

وألْبسوه من الجنّة وافْتحوا له باباً إلى الجنة [وافْتحوا له باباً إلى الجنّة وألْبسوه من الجنّة]. قال: فيأتيه من روحِهَا وطيبها. قال: ويُفتحُ له فيها مدّ بصره. قال: وإنّ الكافر فذكر موته. قال: وتُعادُ روحه في جسده ويأتيه مَلكـان فيُجْلسانه، فيقولان له: من ربُّكَ؟ فيقول: هَاهْ هَاهْ لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هَاهْ هَاهْ لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هَاهْ هَاهْ لا أدري، فينادي منادٍ من السّماء أن كذب فأفْرشوه من النّار وألْبسوه من النّار وافْتحوا له باباً إلى النّار، قال: فيأتيه من حرّها وسمُومها. قال: ويُضَيّق عليه قبره حتّى تختلف فيه أضلاعُهُ. زاد في حديث جرير قال: ثُم يُقَيّضُ له أعْمَى أبْكَمَ معه مِرْزَبةٌ من حديد لو ضُرب بها جبل لصار تُراباً. قال: فيضربُهُ بها ضرْبة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلاّ الثقلين فيصير تُراباً. قال: ثُمّ تُعادُ فيه الرُّوح». رواه أبو داود(١).

قوله «فأفْرشوه من الجنّة» بهمزة القطع، قال في القاموس: أفْرش فلاناً بساطاً بسطه له كفرشه فرشاً، وفرشه تفريشاً. وقوله: «من روحها» الروح بالفتح: الرّاحة والنّسيم «ويفتح له فيها» أي في تربته وهي قبره، ويدلّ عليه مقابله الآتي ويضيق عليه قبره «مدّ بصره» أي منتهَى بصره «فذكر موته» أي حال موت الكافِر وشدته.

وقـولـه «هاه هاه» بسكون الهاء فيهما بعد الألف، كلمة يقولها المتحير الذي لا يقدر من حيرته للخوف أوْ لعدم الفصاحة أن يستعمل لسانه في فيه «لا أدري» أيّ شيئاً مَا، أوْ ما أجيب به، وهذا كأنّه بيان لقوله هاه هاه، وقوله «من حرّها» أي حرّ النّار وهو تأثيرها «وسمومها»

---

(١) ج ١٣ ص ٨٩ ـ ٩٢ عون المعبود.

وهي الـريح الحـارة «ويضيق» بصيغة المجهول من التضييق «حتّى تختلف فيه أضلاعه» بفتح الهمزة جمع ضلع، وهو عظم الجنب، أي حتّى يدخل بعضها في بعض من شدة التضييق والضغطة «ثمّ يقيض» أي يسلط ويوكـل «أعْمَى» أي زبانية أعمَى كيلا يرحم عليه. «معه مرزبة» قال في النهاية: المرزبة ـ بالتخفيف ـ المطرقة الكبيرة التي تكـون للحـداد ويقـال لهـا الأرزبة بالهمزة والتشديد. انتهى. وقال القاري: المسموع في الحديث تشديد الباء، وأهل اللغة يخففونها، وهي التي يدق بها المدر ويكسر[1].

وقـد ذكـر شارح سنن أبي داود العلامة «أبي الطيب» مجموعة أحاديث طيبة تفي بالغرض المطلوب فأحببت أن أذكر بعضاً منها.

١٣ـ ففي صحيح مُسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لوْلا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر».

١٤ـ وفي صحيحه أيضاً عن زيد بن ثابت قال: «بينا النبي ﷺ في حائط لبني النّجار على بغْلة له ونحن معه، إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقْبر ستّة، أوْ خمسة، أوْ أربعة. فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل أنا، فقال متَى مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراك. فقال: إنّ هذه الأمّة تبتلَى في قبورها. فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله عزّ وجـلّ أن يسمعكم عذاب القبر الذي أسمع منه، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوّذوا بالله من عذاب النّار. فقالوا: نعوذ بالله من عذاب النّار. قال: تعوذوا بالله من عذاب القبر. قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر. قال: تعوّذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قالوا: نعوذ

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ١٣ ص ٩٠ ـ ٩٣.

بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال: تعوّذوا بالله من فتنة الدّجال. قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال».

١٥- وفي الصحيحين عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو بهذه الدعوات: اللّهم إني أعوذ بك من فتنة النّار وعذاب النّار، وفتنة القبر وعذاب القبر - الحديث».

١٦- وفي الصحيحين عن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ يقول: اللّهم إنّي أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، ومن شرّ فتنة المحيا والممات».

١٧- وفي الصحيحين عن أسمـاء بنت أبي بكـر قالت: «خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فدخلت على عائشة وهي تصلّي، فقلت: ما شأن النّاس يصلّون؟ فأشارت برأسها إلى السماء، فقلت: آية؟ قالت نعم. فأطـال رسـول الله ﷺ القيام جدّاً، حتّى تجلاني الغشي، فأخذت قربة من ماء، فجعلت أصبّ على رأسي، أوْ على وجهي من المـاء. قالت: فانصـرف رسـول الله ﷺ، وقـد تجلّت الشمس، فخطب رسول الله ﷺ النّاس، فحمد الله وأثْنى عليه، ثم قال: أمّا بعد، ما من شيء لم أكن رأيته إلاّ قد رأيته في مقامي هذا حتّى الجنّة والنّار، وإنّه قد أوحي إليّ: أنكم تفتنون في قبوركم قريباً أوْ مثل فتنة المسيح الدّجال - لا أدري أيّ ذلك قالت أسماء؟ - فيأتي أحدهم، فيقال: ما علمك بهذا الرّجل؟ فأما المؤمن أو الموقن - لا أدري أيّ ذلـك قالت أسمـاء - فيقول: هو محمد رسول الله جاءنا بالبيّنات والهدى، فأجبنا وأطعْنا - ثلاث مرات - فيقال له: قد نعلم أنك تؤمن به. فنم صالحاً، وأمّا المنافق، أو المرْتاب - لا أدري أيّ

ذلك قالت أسماء ـ فيقول: لا أدري، سمعت النّاس يقولون شيئاً فقلت».

١٨ـ وفي صحيح ابن حبّان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾[1] قال: «عذاب القبر».

١٩ـ وفي صحيحه أيضاً عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن في قبره لفي روضة خضراء، ويرحب له في قبره سبعين ذراعاً، وينور له كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيما أنزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ أتدرون ما المعيشة الضّنك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده إنّه ليسلّط عليه تسعة وتسعون تنّيناً، أتدرون ما التّنّين؟ سبعون حيّة لكلّ حيةّ تسع رؤوس يلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون».

فيه دراج أبو السمح عن عبد الرحمن بن حجيرة عن أبي هريرة[2].

٢٠ـ وعن عبد الله بن بجير أنّه سمع هانئاً موْلى عثمان قال: كان عثمانُ إذا وقف على قبْرٍ بكَى حتّى يَبُلَّ لحْيتَه، فقيل له تُذْكر الجنّةُ والنّارُ فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فقال إنّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ القبر أوّل منزلٍ من منازلِ الآخرة فإنْ نَجا منْهُ فما بعْدَهُ أيْسرُ منه، وإن لَمْ ينْجُ منه فما بعده أشدُّ منه» قال: وقال رسول الله ﷺ «ما رأيتُ منْظراً قطُّ إلّا والقبْرُ أفْظعُ منه». قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعرفه

---

(١) ١٢٤/ من سورة طٰه.

(٢) نقلاً من عون المعبود ج ١٣ ص ٩٣ ـ ٩٦ باختصار.

إلّا من حديث هشام بن يُوسف[1].

قولـه: «بكَىٰ حتّى يبل» بضم الموحدة، أي بكاؤه يعني دموعه «لحْيَته» أي يجعلها مبلولة من الدّموع «فلا تبكي» أي من خوف النّار واشْتياق الجنّة «وتبكي من هذا» أي من القبر، يعني من أجل خوفه؟ قيل إنّما كان يبكي عثمان رضي الله عنه وإن كان من جملة المشهود لهم بالجنة، أمّا الاحتمال أنّه لا يلزم من التبشير بالجنّة عدم عذاب القبـر، بل ولا عدم عذاب النّار مطلقاً مع احتمال أن يكون التبشير مقيداً بقيد معلوم أوْ مبهم، ويمكن أن ينسى البشـارة حينئـذ لشـدّة الفظاعة، ويمكن أن يكون خوفاً من ضغطة القبر.

وقوله: «أنّ القبر أوّل منزل من منازل الآخرة» ومنها عرضة القيامة عند العرض، ومنها الوقوف عند الميزان، ومنها المرور على الصراط، ومنها الجنّة أو النّار في بعض الروايات، وآخر منزل من منازل الدّنيا ولذا يسمّى البرزخ «فإنْ نجا» أي خلص المقبور «منه» أي من عذاب القبر «فما بعده» أي من المنازل «أيْسر منه» أي أسهل، لأنّه لو كان عليه ذنب لكفّر بعذاب القبر «وإنْ لمْ ينج منه» أي لم يتخلص من عذاب القبر ولم يكفر ذنوبه به وبقي عليه شيء ممّا يستحق العذاب له «فما بعده أشدّ منه» لأنّ النّار أشدّ العذاب، والقبر حفْرة من حفر النيران «قال» أي عثمان « ما رأيت منظراً» بفتح الميم والظاء أي موضعاً ينظر إليه، وعبّر عن الموضع بالمنظر مبالغة، لأنّه إذا نفي الشيء مع لازمه ينتفي بالطريق البرهاني «قط» بفتح القاف وتشديد المضمومة: أي أبداً، وهو لا يستعمل إلّا في الماضي «إلّا والقبرُ أفظع منه» من

---

(١) ترمذي ج ٦ ص ٥٩٥، ٥٩٦ تحفة الأحوذي.

فظع الأمر، أي اشتدت شناعته وجاوز المقدار في ذلك، يعني أشدّ وأفظع وأنكر من ذلك المنظر. قيل: المسْتثنى جملة حالية من منظر وهو موصوف، حذفت صفته، أي ما رأيت منظراً فظيعاً على حالة من أحوال الفظاعة، إلاّ في حالة كون القبر أقبح منه، فالاسْتثناء مفرغ. انتهى.

والحديث أخرجه أيضاً ابن ماجة والحاكم وصححه واعتُرض، قاله المناوي.[1].

٢١ـ وعن سمرة بن جُندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ ممّا يُكثر أن يقول لأصحابه: «هلْ رأى أحدٌ منكم من رُؤْيا؟» فيقُصُّ عليه مَنْ شاءَ اللهُ أن يقُصَّ، وإنّه قال لنا ذات غداة: «إنّه أتاني الليلةَ آتيان، وإنّهما قالاَ لي: انْطلقْ، وإنّي انْطلقتُ معهما، وإنَّا أتينا على رجلٍ مُضطجع، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بصخرةٍ، وإذا هُوَ يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغُ[2] رأسه، فيَتدهْدَهُ الحجرُ هٰهنا، فيتبعُ الحجرُ فيأخذهُ فلا يرجع إليه حتّى يصحّ رأسُهُ كما كان، ثم يعودُ عليه فيفعل به مثل ما فعل المرّة الأولى!» قال: «قُلْتُ لهما: سبحان الله! ما هٰذا؟ قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا، فأتينا على رجلٍ مُسْتلْقٍ لِقَفَاهُ، وإذا آخر قائمٌ عليه بكَلُّوبٍ من حديد، وإذا هو يأتي أحدَ شقَّيْ وجهه فيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قفاهُ، ومنخرَهُ إلى قفاه، وعينَه إلى قفاه، ثم يتحولُ إلى الجانب الآخر فيفعلُ به مثَل ما فعلَ بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتّى يصحّ ذلك الجانبُ كما كان، ثم يعودُ عليه فيفعل مِثْلَ

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ج ٦ ص ٥٩٥، ٥٩٦ باختصار.

(٢) يشدخ.

ما فعلَ في المرّة الأولى» قال: «قلت» سبحان الله! ما هٰذان؟ قالا لي: انـطلق انطلق، فانطلقنا، فأتينا على مثْل التَّنُّور» فأحسب أنّه قال: «فإذا فيه لَغَطٌ، وأصواتٌ، فاطّلعنا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساءٌ عُراةٌ، وإذا هم يأتيهم لهبٌ من أسفـل منهم فإذا أتـاهـم ذلك اللهب ضَوْضَوْا[1] قلت: ما هٰؤلاء؟ قال لي: انـطلق انـطلق، فانطلقنا فأتينا على نهْر حَسِبْتُ أنّـه كان يقـول أحمـر مثل الدّم، وإذا في النّهر رجلٌ سابحٌ يسبح، وإذا علَى شطّ النّهر رجلٌ قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السّابح يسبح ما يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفْغَر له فاه فيلْقمُهُ حجراً، فينطلق فيسبحُ ثم يرجع إليه كلّما رجع إليه فَغَـرَ لَهُ فاه فألْقَمـه حجـراً. قلت لهما: ما هٰذان؟ قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة أوْ كأكره ما أنت راءٍ رجلاً مرْأى فإذا هو عنده نارٌ يحُشُّها ويسعَى حوْلها. قلت لهما ما هٰذا؟ قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا علَى رَوْضةٍ مُعْتمةٍ فيها من كلّ نَوْرِ[2] الرّبيع، وإذا بين ظهري الرّوْضة رجلٌ طويل لا أكادُ أرَى رأْسَه طُولاً في السمـاء، وإذا حوْل الرجل مِنْ أكْثر وِلْدان ما رأيتُهُم قطُّ. قلت: ما هذا؟ ومـا هٰؤلاء؟ قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا إلى دوْحةٍ عظيمـة لم أر دوْحـةً قطُّ أعْظم منها ولا أحسنَ! قالا لي أرْق فيها؟ فارْتقينا فيها إلى مدينة مبنيّة بلبن ذهب ولبن فضة، فأتينا باب المدينة فاسْتفتحنا ففُتحَ لنا فدخلناها فتلقّانا رجالٌ شطرٌ منْ خَلْقِهم كأحسن ما أنتَ راءٍ! وشطرٌ منهم كأقبح ما أنتَ راءٍ! قالا لهمُ: اذْهبوا فقعوا في ذلـك النّهـر، وإذا هو نهـرٌ معتـرضٌ يجـري كأنّ ماءه المحضُ في

---

(١) رفعوا أصواتهم.

(٢) أي زهْر.

البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السُّوءُ عنهم فصاروا في أحسن صورةٍ»، قال: «قالا لي: هذه جنّةُ عدنٍ، وهذاك منزِلُكَ، فَسَمَا بصري صُعداً فإذا قصرٌ مثلُ الرّبابةِ البيضاء. قالا لي: هٰذاك منزلُك؟ قلت لهما: بارك الله فيكما، فذراني فأدْخُلَهُ. قالا أما الآن فلاَ وأنت داخلُهُ: قلت لهما: فإنّي رأيتُ منذُ الليلة عجباً؟ فما هٰذا الذي رأيت؟ قالا لي: أما إنَّا سنُخبرك: أمّا الرّجل الأول الذي أتيت عليه يُثْلَغُ رأسه بالحجر فإنّه الرجل يأخذُ القرآن فيرفُضُه، وينام عن الصلاة المكتوبة، وأمّا الرجل الذي أتيت عليه يُشَرْشَرُ شدْقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاهُ وعينهُ إلى قفاه فإنّه الرجل يغدو من بيته يكذب الكذبة تبلغ الآفاق، وأما الرجال والنساء العُراةُ الذين هم في مثل بناء التّنور فإنّهم الزُّناة والزّواني، وأمّا الرّجل الذي أتيت عليه يسبحُ في النّهر ويُلْقَمُ الحجارة فإنّه آكل الرّبا، وأمَّا الرجل الكريهُ المرآةِ الذي عند النار يحُشُّها ويسعَى حولها فإنّه مالكٌ خازن جهنم، وأما الرجلُ الطويل الذي في الرّوضة فإنه إبراهيم، وأما الولدان الذين حوْله فكل مولود مات على الفطرة» وفي رواية البرْقانيّ: «وُلِدَ علَى الفطرة» فقال بعضُ المسلمين: يا رسـول الله وأولادُ المشـركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأولادُ المشـركين» «وأمّا القومُ الذين كانوا شطْرٌ منهمٍ حسن وشطرٌ منهم قبيحٌ فإنّهم قومٌ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً تجاوز الله عنهم». رواه البخاري[1].

---

(١) نقلاً من رياض الصالحين «باب تحريم الكذب ص ٥٦١ ـ ٥٦٤.

أبواب صفة القيامة

١ـ باب : ما جاء في شأن الحساب والقصاص وحال النَّاس يوم القيامة

١ـ عن عدّي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من رجل إلّا سيكلمه ربُّهُ يوم القيامة وليس بينه وبينه تُرْجمان ثم ينظر أيْمنَ منه فلا يَرى شيئاً إلَّا شيئاً قدّمه، ثم ينظر أشْأم منه فلا يرى شيئاً إلّا شيئاً قدَّمه، ثم ينظر تلْقاء وجهه فتستقبله النّارُ». قال رسول الله ﷺ: «من اسْتطاع منكم أن يقِيَ وجهَه النَّار ولوْ بشقّ تمرة فلْيفعل».

٢ـ وعن ابن عمر عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «لا تزولُ قدمَا ابن آدم يوم القيامة من عند ربّه حتّى يُسألَ عن خَمْسٍ: عن عُمْرِهِ فيما أفْنَاه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أيْن اكْتسبَهُ وفيما أنفقهُ وماذا عملَ فيما عَلِمَ».

قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ إلَّا من حديث حُسَين بن قيس. وحُسَينُ يُضعّف في الحديث.

٣ـ وعن أبي برْزة الأسلميّ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدمَا عبْدٍ حتّى يُسْأَلُ عن عُمره فيما أفْناه، وعن علْمه فيما فعل، وعن ماله من أيْنَ اكْتسبه وفيما أنْفقه، وعن جسْمه فيما أبْلاه». قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

٤ـ وعن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلسُ فينا يا رسول الله من لا درْهم له ولا متاع. قال رسول الله ﷺ: المفلسُ من أُمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيقعُدُ فيقتصُّ هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُهُ قبل أن يُقْتصَّ ما عليه من الخطايا أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَ عليه ثم طُرِحَ في النّار». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

٥ـ وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله عبداً كانت لأخيه عنده مظْلمةٌ في عرضٍ أوْ مالٍ، فجاءه فاسْتحلّه قبل أن يُؤخذ وليس ثمَّ دينارٌ ولا درْهمٌ، فإنْ كانت له حسناتٌ أُخِذَ من حسناته. وإن لم تكن له حسناتٌ حملُوا عليه من سيئاتهم». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

٦ـ وعنه أيضاً أنّ رسول الله ﷺ قال: «لتؤدّن الحقوق إلى أهلها حتّى تُقادَ الشّاةُ الجلْحاء من الشّاة القرْناء». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[1].

قوله في حديث عديّ: «ما منكم من رجل» من مزيدة لاسْتغراق النفي، والخطاب للمؤمنين «إلاّ سيكلمه ربّه» أي بلا واسطة، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال «وليس بينه وبينه» أي بين الرّب والعبد «ترجمان» بفتح الفوقية وسكون الراء وضمّ الجيم، أي مفسر للكلام بلغة عن لغة، «ثم ينظر» أي ذلك العبد «أيْمن منه» أي من

(١) الأحاديث من ١ـ٦ نقلاً من جامع الترمذي ج ٧ ص ٩٨ـ١٠٤ تحفة الأحوذي.

ذلك الموقف، والمعنى: ينظر في الجانب الذي على يمينه «فلا يرَى شيئاً إلَّا شيئاً قدّمه» أي من عمله الصالح. وفي المشكاة: فلا يرى إلَّا ما قدم من عمله «ثمّ ينظر أشْأم منه» أي في الجانب الذي في شماله «فلا يرَى شيئاً إلَّا شيئاً قدّمه» أي من عمله السيىء.

قال الحافظ: ويحتمل أن يكون سبب الإلتفات إنّه يترجَّىْ أن يجد طريقة يذهب فيها ليحصل له النّجاة من النّار، فلا يرَى إلاّ ما يفضي به إلى النّار «ثم ينظر تلْقاء وجهه فتستقبله النار» قال ابن هبيرة: والسبب في ذلك أنّ النَّار تكون في ممرّه فلا يمكنه أن يحيد عنها، إذ لا بد له من المرور على الصراط «ولوْ بشقّ تمرة» أي ولو بمقدار نصفها أوْ ببعضها. والمعنى: ولو بشيء يسير منها أو من غيرها. وفي رواية البخاري: اتّقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة. قال الحافظ: أي اجعلوا بينكم وبينها وقاية من الصدقة وعمل البر ولو بشيء يسير[1].

وقوله في حديث أبي هريرة: «أتدرون» أي أتعلمون، وهذا سؤال إرْشاد لا اسْتعلام. ولذلك قال: إن المفلس كذا وكذا «فينا» أي فيما بيننا «من لا درهم» أي من لا نقد «له» أي ملْكاً «وَلا متاع» أي ممّا يحصل به النّقد ويتمتع به من الأقمشة والعقار والجواهر وأمثال ذلك. والحاصل أنّهم أجابوا بما عندهم من العلم بحسب عرف أهل الدّنيا كما يدلّ عليه قولهم «فينا» غفلوا عن أمْر الآخرة وكان حقهم أن يقولوا: الله ورسوله أعْلم. لأنّ المعنَى الذي ذكروه كان واضحاً عنده ﷺ: «قال رسول الله ﷺ: المفلس» أي الحقيقي، أو المفلس في الآخرة

---

(١) تحفة الأحوذي ج ٧ ص ٩٨، ٩٩.

«من أمّتي» أي أمّة الإجابة ولوْ كان غنيّاً في الدّنيا بالدّراهم والمتاع «من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة» أي مقبولات «ويأتي» أي ويحضر أيضاً «قد شتم هذا» أي حال كونه قد شتم هذا «وقذف هذا» أي بالزّنا ونحوه «وأكل مال هذا» أي بالباطل «وسفك دم هذا» أي أراق دم هذا بغير حقّ «وضرب هذا» أي غير استحقاق، أو زيادة على ما يستحقه، والمعنَى جمع بين تلك العبادات وهذه السيئات «فيقعد» أي المفلس «فيقتص هذا من حسناته» أي يأخذ هذا من حسناته قصاصاً. قال النووي: يعني حقيقة المفلس هذا الذي ذكرت. وأمّا من ليس له مال، ومن قلّ ماله فالنّاس يسمّونه مفْلساً، وليس هذا حقيقة المفلس، لأنّ هذا أمْر يزول وينقطع بموته، وربما انقطع بيسار يحصل له بعد ذلك في حياته بخلاف ذلك المفلس فإنّه يهلك الهلاك التام.

وقوله في حديث أبي هريرة ـ أيضاً ـ «لتؤدّنّ» بفتح الدال المشددة قال التوربشتي: هو بناء المجهول، والحقوق: مرفوع، هذه هي الرواية المعتد بها «حتّى تقاد الشّاة الجلحاء» ـ بالمد ـ هي الجمَّاء التي لا قرن لها «من الشاة القرناء» أي التي لها قرن. قال النووي: الجلحاء ـ بالمد ـ هي الجَمَّاء التي لا قرن لها، والقرناء ضدّها.

وهـذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها كما يعاد أهل التكليف من الآدميين والأطفال والمجانين ومن لم تبلغه دعوة. وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسّنّة، قال تعالى جلّ جلاله ولا إله غيره: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[1] وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره شرع ولا عقل، وجب حمله على ظاهره.

---

(١) ٥/ من سورة التكوير.

وأمّا القصاص من القرناء للجلْحاء فليس من قصاص التكليف، بل هو قصاص مقابلة. انتهى[1].

٧ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: «يقومُ النّاس لربِّ العالمين حتّى يغيب أحدهم في رشْحه إلى أنْصاف أذنيه» متفق عليه. والرّشْح: العرَقُ.

٨ـ وعن المقداد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «تُدنَى الشّمس يوم القيامة من الخلق حتّى تكون منهم كمقدار ميل» قال سُلَيمُ بن عامر: ـ الراوي عن المقداد ـ فوالله ما أدري ما يعني بالميل أمسافة الأرض، أم الميل الذي يكحلُ به العينُ، «فيكون النّاس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكونُ إلى كعبيه، ومنهم من يكونُ إلى رُكبتيه، ومنهم من يكونُ إلى حَقْويه، ومنهم من يُلجمهُ العرقُ إلْجاماً» وأشارَ رسول الله ﷺ بيده إلى فيه، رواه مُسْلم.

٩ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «يَعْرقُ النّاسُ يوم القيامة حتّى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهم حتّى يبلغ آذانهم» متفق عليه. ومعنى «يذهب في الأرض»: ينزلُ ويغوص[2].

قوله في حديث ابن عمر: «حتّى يغيب أحدهم في رشْحه إلى أنصاف أذنيه» وهذه رواية مُسلم، ورواية البخاري: «يقوم أحدهم في رشْحه إلى أنصاف أذنيه». قال الحافظ ابن حجر: الرّشح ـ بفتح الراء وسكون الشين المعجمة بعدها مهملة ـ هو العَرَقْ، شُبّهِ برشح الإناء

---

(١) تحفة الأحوذي ج ٧ ص ١٠١ ـ ١٠٤ باختصار.

(٢) نقلاً من رياض الصالحين «باب الخوف» ص ١٨٨، ١٨٩.

لكونه يخرج من البدن شيئاً فشيئاً، وهذا ظاهر في أنّ العرق يحصل لكلّ شخص من نفسه، وفيه تعقب على من جوز أن يكون من عرقه فقط أوْ من عرقه وعرق غيره، وقال عياض: يحتمل أن يريد عرق الإنسان نفسه بقدر خوفه ممّا يشاهده من الأهوال، ويحتمل أن يريد عرقه وعرق غيره فيشدد على بعض ويخفف على بعض، وهذا كلّه بتزاحم النّاس وانضمام بعضهم إلى بعض حتّى صار العرق يجري سائحاً في وجه الأرض كالماء في الوادي بعد أن شربت منه الأرض وغاص فيها سبعين ذراعاً. قلت[1]: واستشكل بأنّ الجماعة إذا وقفوا في الماء الذي على أرض معتدلة كانت تغطية الماء لهم على السواء، لكنّهم إذا اختلفوا في الطول والقصر تفاوتوا، فكيف يكون الكلّ إلى الأذن؟ والجواب: أنّ ذلك من الخوارق الواقعة إلى يوم القيامة، والأوْلَى أن تكون الإشارة بمن يصل الماء إلى أذنيه إلى غاية ما يصل الماء، ولا ينفي أن يصل الماء لبعضهم إلى دون ذلك، فقد أخرج الحاكم من حديث عقبة بن عامر رفعه «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق النّاس، فمنهم من يبلغ عرقه عقبه، ومنهم من يبلغ نصف ساقه، ومنهم من يبلغ ركْبته، ومنهم من يبلغ فخذه، ومنهم من يبلغ خاصرته، ومنهم من يبلغ منكبه، ومنهم من يبلغ فاه، وأشار بيده فألْجمها فاه، ومنهم من يغطيه عرقه، وضرب بيده على رأسه» وله شاهد عند مُسْلم من حديث المقداد بن الأسود[2] وليس بتمامه وفيه «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتّى تكون منهم كمقدار ميل، فتكون النّاس على مقدار أعمالهم في العرق» الحديث، فإنّه ظاهر في

---

(١) القائل: هو ابن حجر.

(٢) راجع نصّ الحديث كاملاً «رقم ٨» من هذا الباب.

أنّهم يستوون في وصول العرق إليهم ويتفاوتون في حصوله فيهم.

وأخرج أبو يعْلى وصححه ابن حبّان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم النّاس لربّ العالمين، قال: مقدار نصف يوم من خمسين ألْف سنة فيهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس إلى أن تغرب» وأخرجه أحمد وابن حبّان نحوه من حديث أبي سعيد والبيهقي في البعث من طريق عبد الله بن الحارث عن أبي هريرة «يحشر النّاس قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء فيلجمهم العرق من شدّة الكرب».

وأما حديث أبي هريرة «يعرق النّاس يوم القيامة حتّى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذرعاً، ويلجمهم العرق حتّى يبلغ آذانهم» جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنّ الذي يلجمه العرق الكافر، أخرجه البيهقي في البعث بسند حسن عنه قال: «يشتد كرب ذٰلك اليوم حتّى يلجم الكافر العرق، قيل له: فأين المؤمنون؟ قال: على الكراسي من ذهب ويظلل عليهم الغمام» وبسند قوي عن أبي موسى قال: «والشمس فوق رؤوس النّاس يوم القيامة وأعمالهم تظلهم» وأخرج ابن المبارك في الزهد وابن أبي شيبة في المصنف واللفظ له بسند جيد عن سلمان قال: «تُعطى الشمس يوم القيامة حرّ عشر سنين، ثم تدنى من جماجم النّاس حتّى تكون قاب قوسين فيعرقون حتّى يرشح العرق في الأرض قامة ثم ترتفع حتى يغرغر الرجل» زاد ابن المبارك في روايته «ولا يضرّ حرّها يومئذ مؤمناً ولا مؤمنة».

قال القرطبي: المراد من يكون كامل الإيمان لما يدلّ عليه حديث المقداد وغيره أنّهم يتفاوتون في ذلك بحسب أعمالهم[1].

---

(١) فتح الباري ج ١١ ص ٣٩٣، ٣٩٤.

٢ـ باب : ما جاء في شأن الحشر

١٠ـ عن عائشة قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشرُ النّاس يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً»، قُلْتُ يا رسول الله: النّساءُ والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض، قال ﷺ: «يا عائشة الأمرُ أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

١١ـ وعن ابن عباس قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: «يا أيّها النّاس إنّكم تُحشرون إلى الله حُفَاةً عُراةً غُرْلاً كما بدأنا أوّل خَلْق نُعيدُه وعْداً علينا إنّا كُنّا فاعلين، ألاَ وإنّ أوّل الخلائق يُكْسَى يوم القيامة إبراهيم «عليه السلام» ألاَ وإنّه سيُجاء برجال من أمّتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيُقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبدُ الصالح: ﴿وكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا توَفَّيْتَنِي كُنْتَ أنْتَ الرَّقيبَ عَلَيْهِمْ وَأنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شهيدٌ إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإنَّكَ أنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] قال: فيُقال لي إنّهم لم يزالوا مُرْتدين على أعقابهم منذ فارقتهم».

١٢ـ وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يُحشر النّاس على ثلاث طرائق راغبين راهبين واثْنان على بعير، وثلاثةٌ على بعير، وأرْبعةٌ على

---

(١) ١١٧، ١١٨/ من سورة المائدة.

بعير، وعشرةً على بعير، وتَحْشُرُ بقيَّتَهُمُ النّارُ تبيتُ معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمْسُوا[1]».

قوله في حديث عائشة «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً» الغرل ـ بضم الغين المعجمة وإسْكان الراء ـ معناه: غير مختونين، جمع أغْرل، وهو الذي لم يختن، وبقيت معه غرْلته، وهي قلفته، وهي الجلدة التي تقطع في الختان.

والمقصود: أنّهم يحشرون كما خُلِقوا لا شيء معهم ولا يفقد منهم شيء حتّى الغرلة تكون معهم[2].

وقوله في حديث ابن عبّاس «وإنّ أوّل الخلائق يكسَى يوم القيامة إبراهيم ـ عليه السلام ـ» والحكمة في كون إبراهيم أوّل من يكسَى، أنّه جُرِّدَ حين ألقى في النّار، وقيل: لأنّه أوّل من اسْتَنَّ التستر بالسّراويل، وقيل: إنّه لم يكن في الأرض أخْوف للهِ منه فعجلت له الكسوة أماناً له ليطمئن قلبه. وقيل: غير ذلك.

وقوله «وإنّه سيجاء برجال من أمّتي فيؤخذ بهم ذات الشمال» أي إلى جهة النّار، ووقع ذلك صريحاً في حديث أبي هريرة: «فإذا زمْرة حتّى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم، فقلت: إلى أين؟ قال: إلى النّار» الحديث. وفي حديث أنس «ليردن عليّ ناس من أصحابي الحوض حتّى إذا عرفتهم اختلجوا دوني» الحديث.

---

(1) الأحاديث من ١٠-١٢ نقلاً من صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧ ص ١٩٢ ـ ١٩٥.

(2) المصدر السابق ص ١٩٣.

وفي حديث سهل «ليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم» وفي حديث أبي هريرة عنـد مُسْلم «ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم: ألاَ هلم».

«فأقول يا ربّ أصحابي» وفي رواية «أصيْحابي» بالتصغير «فيقال إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك» وفي رواية لأبي هريرة «إنهم ارْتدوا على أدبارهم القهقرى» زاد: فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، فيقـال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول سُحْقاً سُحْقاً» أي بُعْداً بُعْداً، والتأكيد: للمبالغة.

«فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿**وكُنْتُ عَلَيْهم شَهيداً**﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿**الحكيم**﴾ «قال: فيقال لي إنّهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» قال الفربري: ذكر عن أبي عبد الله البخاري عن قبيصة قال: هم الذين ارْتدوا على عهد أبي بكر فقاتلهم أبو بكر، يعني حتّى قتلوا وماتوا على الكفر.

وقال الخطابي: لم يرتد من الصحابة أحد وإنّما ارْتد قوم من جفاة الأعـراب ممّن لا نصـرة له في الـدين، وذلـك لا يوجب قدحاً في الصحـابـة المشهـورين، ويدل قوله «أصيحابي» بالتصغير على قلّة عددهم. وقال غيره: قيل هو على ظاهره من الكفر، والمراد بأمتي، أمة الدعوة لاَ أمّة الإجابة. ورجح بقوله في حديث أبي هريرة: «فأقول بعْداً لهم وسحْقاً» ويؤيده كونهم خفي عليه حالهم، ولو كانوا من أمّة الإجابة لعرف حالهم بكون أعمالهم تعرض عليه. وهذا يرده قوله في حديث أنس «حتّى إذا عرفتهم» وكذا في حديث أبي هريرة. وقال ابن التين: يحتمل أن يكونوا منافقين أوْ من مرتكبي الكبائر. وقيل: هم قوم

من جفاة الأعراب دخلوا في الإسلام رغبة ورهبة. وقال الداودي: لا يمتنع دخول أصحاب الكبائر والبدع في ذلك.

وقال النووي: قيل هم المنافقون والمرتدون، فيجوز أن يحشروا بالغرّة والتحجيل لكونهم من جملة الأمّة فيناديهم من أجل السّيما التي عليهم فيُقال: إنّهم بدّلوا بعدك، أي لم يموتوا على ظاهر ما فارقتهم عليه[1].

وأما قوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «يحشر النّاس على ثلاث طرائق راغبين راهبين، واثنان على بعير وثَلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتَهم النّارُ تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمْسوا» قال العلماء: وهذا الحشر في آخر الدنيا قبيل القيامة، وقبيل النفخ في الصور بدليل قوله ﷺ: «بقيتهم النّار تبيت معهم وتقيل وتصبح وتمسي»، وهذا آخر أشراط الساعة كما ذكر ذلك الإمام مُسلم رحمه الله في آيات السّاعة قال: وآخر ذلك نار تخرج من قعر عدن ترحّل النّاسَ، وفي رواية: تطرد النّاس إلى محشرهم، والمراد بثلاث طرائق: ثلاث فرق، ومنه قوله تعالى إخْباراً عن الجنّ ﴿كُنّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾[2] أي فرقاً مختلفة الأهواء[3].

---

(١) فتح الباري ج ١١ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٦ باختصار وتصرف.

(٢) ١١/ من سورة الجنّ.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧ ص ١٩٤، ١٩٥.

٣ـ باب: ما جاء في الحساب والصُّور وشأن الصِّراط

١ـ عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حُوسبَ يوم القيامة عُذِّبَ، فقلتُ: أليس قد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾(١) فقال: ليس ذاك الحسابُ إنّما ذاك العرضُ، من نُوقِشَ الحساب يوم القيامة عُذِّب». رواه مُسْلم(٢).

وفي رواية أخرى عن عائشة ـ أيضاً ـ ليس أحدٌ يُحاسبُ إلاّ هلك، قُلْتُ: يا رسول الله أليس الله يقول ﴿حساباً يَسيراً﴾ قال: «ذاك العرْضُ، ولكن من نُوقش الحسابَ هلك».

قوله ﷺ: «من نوقش الحساب يوم القيامة عذّب» معنى «نوقش»: استقْصى عليه. قال القاضي: وقوله «عُذِّب» له معنيان أحدهما: أنّ نفس المناقشة وعرض الذّنوب والتوقيف عليها هو التعذيب، لما فيه من التوبيخ.

والثاني: أنّه مفض إلَى العذاب بالنّار، ويؤيده قوله في الرواية الأخرى «هلك» مكان «عذّب» هذا كلام القاضي، وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أنّ التقصير غالب في العباد، فمن اسْتقصى عليه

---

(١) ٨/ من سورة الإنشقاق.

(٢) ج ١٧ ص ٢٠٨ نووي.

ولم يسامح هلك ودخل النّار ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء[1].

٢ـ وعن أنس بن مالك أنّ نَبيَّ الله ﷺ كان يقول: «يُجاءُ بالكافر يومَ القيامة فيُقال له: أرأيتَ لو كان لك مِلْءُ الأرض ذهباً أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد كنتَ سُئِلْتَ ما هو أيسر من ذلك». رواه البخاري[2].

قال الحافظ ابن حجر: ـ رحمه الله ـ ورواه البخاري ـ أيضاً ـ في باب صفة الجنة والنّار[3] من رواية أبي عمران الجوني عن أنس التصريح بأنّ الله سبحانه هو الذي يقول له ذلك ولفظه «يقول الله عزّ وجلّ لأهون أهل النّار عذاباً يوم القيامة: لو أنّ لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول نعم» ورواه مُسْلم والنسائي من طريق ثابت عن أنس. وظاهر سياقه أن ذلك يقع للكافر بعد أن يدخل النار ولفظه «يؤتَى بالرجل من أهل النار فيقال: يا ابن آدم كيف وجدت مضجعك؟ فيقول شرّ مضجع، فيقال له هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً؟ فيقول: نعم يا ربّ، فيُقال له: كذبت».

وقوله: «قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك» وفي رواية أبي عمران فيقول «أردت منك ماهو أهْون من هذا وأنت في صُلْبِ آدم: أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلاّ أن تشرك بي» وفي رواية: «قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النّار» قال عياض: يشير بذلك إلى

(١) صحيح مُسلم بشرح النووي ج ١٧ ص ٢٠٨، ٢٠٩.
(٢) ج ١١ ص ٤٠٠ فتح الباري.
(٣) ج ١١ ص ٤١٦ فتح.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم﴾ الآية[1].

فهذا الميثاق الذي أخذ عليهم في صلْب آدم، فمن وفى به بعد وجوده في الدّنيا فهو مؤمن، ومن لم يوف به فهو الكافر، فمراد الحديث: أردت منك حين أخذت الميثاق فأبيت إذْ أخرجتك إلى الدنيا إلاّ الشرك. ويحتمل أن يكون المراد بالإرادة هنا: الطلب والمعنى: أمرتك فلم تفعل، لأنّه سبحانه وتعالى لا يكون في ملكه إلاّ ما يريد[2].

٣ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «جاء أعرابيٌّ إلى النبيّ ﷺ فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرْنٌ يُنْفَخُ فيه». قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

٤ـ وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أَنْعَمُ وصاحبُ القَرْن قد التَقَم القَرْنَ واسْتمع الإِذْنَ متى يُؤْمَر بالنَّفخ فينفخ، فكأنَّ ذلك ثَقُلَ علَى أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم: قولوا حسبُنا الله ونعم الوكيل على الله توكلّنا». قال الترمذي: هذا حديث حسن[3].

في صحيح البخاري[4] قال مجاهد: الصور كهيئة البوق، انتهى. وقال صاحب الصحاح: البوق الذي يزمر به، وهو معروف،

---

(١) ١٧٢/ من سورة الأعراف.

(٢) فتح الباري ج ١١ ص ٤٠٣ باختصار وتصرف.

(٣) الحديثان ٣، ٤/ نقلاً من جامع الترمذي ج ٧ ص ١١٧، ١١٨، تحفة الأحوذي.

(٤) ج ١١ ص ٣٦٧ فتح.

والصور: إنّما هو قَرْنٌ كما جاء في الأحاديث المرفوعة.

وقوله: «وكيْف أنْعم» أي أفْرح وأتنعم، «وصاحب القرن قد الْتقم القرن» أي وضع طرف القرن في فمه «واستمع الإذن متَى يؤمر بالنفخ فينفخ» وفي رواية للترمذي في التفسير: وحنى جبهته وأصْغَى سمْعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ. والظاهر أنّ كلًّا من الالْتقام والإصْغاء على الحقيقة وأنّه عبادة لصاحبه، بل هو مكلف به.

وقال القاضي رحمه الله: معناه كيف يطيب عيشي وقد قرب أن ينفخ في الصور، فكنى عن ذلك بأنَّ صاحب الصور وضع رأس الصور في فمه وهو مترصد مترقب لأن يؤمر فينفخ فيه «فكأنّ ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ» وفي التفسير[1]: قال المسلمون فكيف نقول يا رسول الله؟

وقوله: «حسبنا الله» مبتدأ وخبر، أي: كافينا الله «ونعم الوكيل» فعيل بمعنى المفعول، أي نعم الموكول إليه الله[2].

٥ـ وعن أبي هريرة قال: قال أناس يا رسول الله، هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فقال: هل تُضارُّون في الشمس ليس دُونها سحاب؟ قالوا: لَا يا رسول الله، قال: هل تضارُّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لَا يا رسول الله، قال: فإنَّكم ترونه يوم القيامة كذلك يجمع الله النّاس فيقول: من كان يعبدُ شيئاً فليتبعه. فيتبعُ من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبدُ القمر، ويتبعُ من كان يعبدُ الطواغيتَ، وتبقى هذه الأمّة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة

(١) أي عند الترمذي في كتاب التفسير.

(٢) تحفة الأحوذي ج ٧ ص ١١٧، ١١٨ باختصار.

التي يعرفون فيقول: أنا ربّكم، فيقولون: نعوذُ بالله منك، هذا مكاننا حتّى يأتينا ربنا فإذا أتانا ربّنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربّنا، فيتبعونه، ويُضْرَبُ جسر جهنم، قال رسول الله ﷺ: فأكون أوّل من يُجيز، ودُعاء الرّسل يومئذ: اللّهم سَلّم سلّم، وبه كلاليبُ مثل شوك السَّعدان، أما رأيتم شوكَ السَّعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنّها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلمُ قدرَ عِظَمها إلاّ الله، فتخطف النّاسَ بأعمالهم: منهم الموبَقُ بعمله، ومنهم المخردَل ثم ينجو. حتّى إذا فرَغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يُخرج من النّار من أراد أن يُخرج ممّن كان يشهد أن لا إله إلاّ الله، أمر الملائكة أن يُخرجوهم فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرّم الله على النّار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيُخرجونهم قد امْتُحشوا، فيصبُّ عليهم ماءٌ يقال له ماءُ الحياة، فينبتون نباتَ الحبّة في حميل السيل، ويبقى رجلٌ مُقبلٌ بوجهه على النّار فيقول: يا ربّ قد قَشبني ريحها وأحرقني ذكاءُها، فاصرف وجهي عن النّار، فلا يزال يدعو الله فيقول: لعلك إن أعطيتُك أن تسألني غيره، فيقول: لَا وعزّتك، لا أسألك غيره، فيصرفُ وجهه عن النّار، ثم يقول بعد ذلك: يا ربِّ قربني إلى باب الجنّة، فيقول: أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره؟ ويْلك يا ابن آدم ما أغْدرك. فلا يزال يدعو، فيقول: لعلّي إن أعطيتك ذلك تسألني غيره، فيقول: لَا وعزّتك، لا أسألك غيره، فيُعطي الله ما شاء من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره، فيقربه إلى باب الجنة، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: ربّ أدخلني الجنّة، ثم يقول: أو ليس قد زعمت أن لا تسألني غيره. ويْلك يا ابن آدم ما أغْدرك. فيقول: يا ربّ

لا تجعلني أشْقَى خلْقك. فلا يزالُ يدعو حتّى يضحك، فإذا ضحك منه أذنَ له بالدخول فيها، فإذا دخل فيها قيل: تَمنَّ من كذا فيتمنّى. ثم يقال له: تمنّ من كذا فيتمنّى، حتّى تنقطع به الأماني، فيقول له: هذا لك ومثله معه. قال أبو هريرة: وذلك الرجلُ آخرُ أهل الجنة دخولاً».

قال عطاء[1] وأبو سعيد الخدريُّ جالسٌ مع أبي هريرة لا يُغيرُ عليه شيئاً من حديثه حتّى انتهى إلى قوله: «هذا لك ومثله معه» قال أبو سعيد «سمعت رسول الله ﷺ يقول: هذا لك وعشرةُ أمثاله»، قال أبو هريرة: حفظتُ «مثله معه». رواه البخاري[2].

الشاهد في هذا الحديث الطويل قوله: «ويُضرب جسر جهنم، قال رسول الله ﷺ فأكون أنا وأمتي أوّل من يجيز» الخ. قال النووي: المعنى أكون أنا وأمتي أوّل من يمضي على الصراط ويقطعه، يقال: جاز الوادي وأجازه إذا قطعه وخلفه.

وقوله: «ودعاء الرّسل يومئذ: اللّهم سلّم سلّم» وفي رواية: «ولا يتكلم يومئذ أحد إلاّ الرسل» وفي رواية «لا يكلمه إلاّ الأنبياء، ودعوى الرّسل يومئذ: اللّهم سلّم سلّم» وللترمذي من حديث المغيرة «شعار المؤمنين على الصراط: ربّ سلّم سلّم» والضمير في الأوّل للرسل، ولا يلزم من كون هذا الكلام شعار المؤمنين أن ينطقوا به بل تنطق به الرّسل يدعون المؤمنين بالعلامة فسمى ذلك شعاراً لهم، فبهذا تجتمع الأخبار.

---

(١) أحد رواة الحديث.

(٢) ج ١١ ص ٤٤٥، ٤٤٦ فتح.

وقـوله «وبه كلاليب» الضمير للصراط، وكلاليب: جمع كَلُّوبْ بالتشـديد، قال القـاضي أبـو بكـر بن العربي: هذه الكلاليب هي الشهـوات المشـار إليها في الحديث «حفّت النّار بالشهوات» قال: فالشهوات موضوعة على جوانبها، فمن اقتحم الشهوة سقط في النّار لأنّها خطاطيفها. وقوله «مثل شوك السعدان» بالسين والعين المهملتين بلفظ التثنية، والسعدان: جمع سعدانة وهو نبات ذو شوك يضرب به المثل في طيب مرعاه قالوا: مرعًى ولاَ كالسعدان.

وقوله: «أما رأيتم شوك السعدان» هو استفهام تقرير لاستحضار الصورة المذكورة «غير أنّها لا يعلم قدر عظمها إلاّ الله» أي الشوكة، «فتخـطف النّـاس بأعمالهـم» قال الزّين بن المنير: تشبيه الكلاليب بشوك السعدان خاص بسرعة اختطافها وكثرة الانْتشاب فيها مع التحرز والتصـون تمثيلاً لهم بمـا عرفـوه في الدّنيا وألفوه بالمباشرة. «منهـم الموبق بعمله» وفي رواية «من يوبق» وهما بالموحدة بمعنىَ الهلاك، «ومنهم المخردل» قال الهروي: المعنىَ أنّ كلاليب النّار تقطعه فيهوى في النّار، وقيل: المخردل: المصروع، ورجحه ابن التين، فقال: هو أنسب لسياق الخبر.

«ثم ينجـو» وفي حديث أبي سعيد «فنـاج مسلّم ومخـدوش ومكدوس في جهنم حتّى يمرّ أحدهم فيسحب سحْباً» قال ابن أبي جمـرة: يؤخذ منه أنّ المارين على الصراط ثلاثة أصناف: ناج بلا خدش، وهالك من أوّل وهْلة، ومتوسط بينهما يصاب ثم ينجو. وكلّ قسم منها ينقسم أقساماً تعرف بقوله «بقدر أعمالهم».

وعند ابن ماجة من وجه آخر عن أبي سعيد رفعه «يوضع الصراط

بين ظهراني جهنم على حسك كحسك السعدان، ثم يستجيز النّاس فناج مسلّم، ومخدوش به، ثم ناج ومحتبس به، ومنكوس فيها»[1].

---

(١) فتح الباري ج ١١ ص ٤٥٢ ـ ٤٥٥.

باب: صفة النّار وأهلها

١ـ عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «نارُ بني آدم التي تُوقِدون جُزْءٌ من سبعين جُزْءاً من نار جهنّم» قالوا: يا رسول الله إنْ كانت لكافية، قال: «فإنّها فُضِّلتْ عليها بتسعةٍ وستِّين جُزْءاً» متفق عليه.

٢ـ وعن أبي هريرة أنّه قال: «أترونها حمْراء مثل نارِكم هذه التي تُوقدون، إنّها لأَشَدُّ سواداً من الْقَارِ» رواه مالك في الموطأ، وإسناده صحيح.

٣ـ وعن النعمان بن بشير قال: سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «إنّ أهْونَ أهْلِ النّار عذاباً يوم القيامة رجُلٌ علَى أخْمصِ قدميْه جمْرتان يغْلي منهما دماغُهُ كما يغْلي المِرْجَلُ بالْقُمْقُمِ». متفقَ عليه.

٤ـ وعن أبي سعيد الخدري أنّه سمع النبيّ ﷺ وذُكر عنده عمُّهُ، فقال: «لعلّه تنفعُهُ شفاعتِي يوم القيامة، فيُجعَلُ في ضحْضاحٍ من النّار يبلُغُ كعْبَيْه يغْلي منهُ دمَاغُهُ». متفق عليه[1].

قوله في حديث أبي هريرة «نارُ بني آدم التي توقدون جُزْءٌ من سبعين جُزْءاً» في رواية لأحمد «من مائة جزء» والجمع: بأن المراد المبالغة في الكثرة لاَ العدد الخاص، أو الحكم للزائد، زاد الترمذي

(١) الأحاديث من ١ـ٤ نقلاً من شرح السنة للبغوي ج ١٥ ص ٢٣٩ ـ ٢٤١.

من حديث أبي سعيد «لكل جزء منها حرّها».

وقوله: «إنْ كانت لكافية» «إن» هي المخففة من الثقيلة، أي إنَّ نار الدّنيا كانت مجزئة لتعذيب العصاة.

وقوله «فُضّلت عليها» قال الطيبي ما محصله: إنّما أعاد ﷺ حكاية تفضيل نار جهنم على نار الدّنيا، إشارة إلى المنع من دعوى الاجْزاء، أي لا بدّ من الزيادة ليتميز ما يصدر من الخالق من العذاب على ما يصدر من خلقه[1].

وقوله في حديث النّعمان بن بشير: «إنّ أهون أهل النّار عذاباً» قال ابن التّين: يحتمل أن يراد به أبو طالب.

وقوله «أخمص» بخاء معجمة وصاد مهملة وزن أحمر: مالا يصل إلى الأرض من باطن القدم عند المشي.

قوله: «جمرتان» وهي رواية مُسْلم، ورواية البخاري «جمْرة» قال ابن التين: ـ على رواية البخاري ـ يحتمل أن يكون الاقتصار على الجمرة للدلالة على الأخرى لعلم السامع بأنّ لكلّ أحد قدمين.

وقوله: «كما يغلي المرجل بالقمقم» زاد في رواية الأعمش «لا يرى أنّ أحداً أشدّ عذاباً منه وإنّه لأهونهم عذاباً» والمرجل ـ بكسر الميم وسكون الراء وفتح الجيم بعدها لام ـ قدر من نحاس، ويقال أيضاً لكلّ إناء يغلي فيه الماء من أيّ صنف كان، والقمقم: معروف من آنية العطار، ويقال هو إناء ضيق الرأس يسخن فيه الماء يكون من نحاس وغيره، فارسي، ويقال هو رومي[2].

---

(١) فتح الباري ج ٦ ص ٣٣٤ بتصرف.

(٢) فتح الباري ج ١١ ص ٤٣٠، ٤٣١ باختصار وتصرف.

وأمّا حديث أبي سعيد الخدري أنّه سمع النبي ﷺ وذُكر عنده عمّه، فقال: «لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة» الحديث.

وجاء في رواية لمسلم[1] عن العبّاس بن عبد المطلب أنّه قال: يا رسول الله هل نفعتَ أبا طالب بشيء فإنّه كان يحوطُك ويغضب لك؟ قال: «نعَمْ هو في ضحْضاح من نارٍ ولوْلاَ أنَا لكان في الدرك الأسفل من النَّار».

وفي رواية لمُسْلم[2] عن العباس ـ أيضاً ـ يقول: قلت يا رسول الله إنّ أبا طالب كان يحُوطُك وينصُرك فهل نفعهُ ذلك؟ قال: «نعم وجدته في غمرات من النَّار فأخرجتهُ إلى ضحْضاحٍ».

قال النووي رحمه الله قوله «كان يحوطك» هو بفتح الياء وضمّ الحاء، قال أهل اللغة: يقال: حاطه يحوطه حوطاً وحياطة: إذا صانه وحفظه وذبّ عنه وتوفر على مصالحه.

وقوله: «وجدته في غمرات من النّار فأخرجته إلى ضحضاح»، أمّا الضحضاح فهو بضادين معجمتين مفتوحتين، والضحضاح: ما رق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين، واستعير في النّار، وأمّا الغمرات فبفتح الغين والميم، واحدتها غمرة ـ بإسْكان الميم ـ وهي المعظم من الشيء.

وقوله ﷺ: «ولولا أنا لكان في الدّرك الأسفل من النّار»، الدرك الأسفل: قعْر جهنم وأقصَى أسفلها، قالوا: ولجهنم أدراك، فكلّ طبقة

---

(١) ج ٣ ص ٨٤ نووي.

(٢) نفس المصدر السابق.

من أطباقها تسمى دركاً والله أعلم[1].

٥ـ وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بجهنم يومئذٍ لها سبْعُونَ ألْفَ زِمام مع كلّ زمام سبْعون ألْف ملَكٍ يجرُّونها».

٦ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرجُ عُنُقٌ من النّار يوم القيامة له عيْنان تُبصران، وأُذُنان تَسْمعان، ولسَانٌ ينطقُ يقول إنّي وُكِّلْتُ بثلاثةٍ: بكلِّ جبّار عنيدٍ، وبكلِّ من دعَا مع الله إلٰهاً، وبالمُصَوِّرين»[2].

قوله «يُؤْتَى بجهنم يومئذ لها سبعون ألْف زمام» الزمام: ما يجعل في أنْف البعير دقيقاً، وقيل: ما يشدّ به رؤوسها من حبل وسير. «يجرونها» بتشديد الراء، أي يسحبونها.

قال في اللّمعات: لعل جهنم يؤتى بها في الموقف ليراها النّاس ترهيباً لهم، وهذا الحديث أخرجه ـ أيضاً ـ مُسْلم. وقوله: «يخرج عُنُق من النّار» أي تخرج قطعة من النّار على هيئة الرقبة الطويلة.

«يقول إنّي وُكِّلت بثلاثة» أي وكلني الله بأن أُدْخِل هؤلاء الثلاثة النّار وأعذبهم بالفضيحة على رؤوس الأشهاد، «بكل جبّار عنيد» قال في النهاية: الجبار هو: المتمرد العاتي، والعنيد: الجائر عن القصد، الباغي الذي يرد الحق مع العلم به[3].

٧ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النّار إلى ربّها،

---

(١) صحيح مُسْلم بشرح النووي ج ٣ ص ٨٤، ٨٥ باختصار.
(٢) الحديثان ٥، ٦ نقلاً من جامع الترمذي ج ٧ ص ٢٩٤، ٢٩٥.
(٣) تحفة الأحوذي ج ٧ ص ٢٩٤ـ٢٩٦ باختصار.

فقـالت: يا ربّ! أكـل بعضي بعضاً. فجعل لها نفسين. نفسٌ في الشّتــاء، ونفسٌ في الصيف. فشــدّةُ ما تجــدون من البــرْد، من زمْهريرها. وشدّة ما تجدون من الحرّ، من سمومها».

٨- وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى يوم القيامة بأنْعَم أهل الدنيا من الكفار. فيقال: اغْمسُوه في النّار غَمْسةً، فيُغْمسُ فيهـا. ثمّ يُقال له: أي فلان! هل أصابك نعيمٌ قط؟ فيقول: لاَ مَا أصابني نعيمٌ قَطُّ. ويُؤْتَى بأشدّ المؤمنين ضُرًّا وبلاءً. فيُقال: اغْمسُوهُ غَمْســة في الجنّـة. فيُغْمس فيها غَمْسَةً. فيُقال له: أي فلان! هل أصابك ضُرٌّ قَطُّ أوْ بلاءٌ؟ فيَقولُ: ما أصابني قَطُّ ضُرٌّ ولا بلاءٌ»[١].

٩- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لمّا خلق اللهُ الجنـة والنّـار أرسـل جبـريلَ إلى الجنّة، فقال: انْظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها. قال: فجاء فنظر إليها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها. قال: فرجع إليه قال: وعزّتك لا يسمعُ بها أحدٌ إلاّ دخلها، فأُمِرَ بها فحُفّت بالمكاره، فقال: ارْجع إليها فانْظُر إلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فرجع إليها، فإذا هي قدْ حُفَّتْ بالمكاره فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خِفْتُ أن لا يدخُلها أحدٌ، وقال: اذْهب إلى النّار فانظر إليهـا وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، قال: فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال: وعزّتك لا يسمعُ بها أحدٌ فيدخُلَهَا، فأُمِـرَ بها فَحُفّت بالشهوات، فقال: ارْجع إليها، فرجع إليها فقال: وعـزّتـك لقد خشيتُ أن لا ينجُوَ منها أحدٌ إلاّ دخلها. رواه أبو داود

---

(١) الحـديثـان ٧، ٨ نقلاً من سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٤٤٤، ١٤٤٥ رقم ٤٣١٩، ٤٣٢١.

والنسائي والترمذي واللفظ له وقال: حديث حسن صحيح[1].

١٠ـ وعن خالد بن عُمَيْر: قال: خطب عُتْبَةُ بنُ غزْوَان رضيَ الله عنه فقال: إنّه ذُكِرَ لنا أنّ الحجر يُلْقَى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يُدْرِكُ لها قعْراً والله لَتُمْلأنّهُ أفعجبتم؟ . رواه مُسْلم هكذا[2].

١١ـ وعن سمرةَ بن جُنْدُب رضي الله عنه أنّ نبيّ الله ﷺ قال: «منهم من تأخذه النّار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حُجْزته، ومنهم من تأخذه إلى تَرْقُوَته» رواه مُسْلم.

و «الحجـزة»: معقد الإزار تحت السّرّة، و «الترقوَة» بفتح التاء وضم القاف: هي العظم الذي عند ثَغْرة النّحر وللإنسان ترقوتان في جانبي النحر.

١٢ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنّا مع رسول الله ﷺ إذْ سمع وجْبةً فقال: «هل تدرون ما هذا؟» قلنا: اللهُ ورسوله أعلم. قال: «هذا حجرٌ رُمِيَ به في النّار منذُ سبعين خريفاً فهو يهوي في النّار الآن حتى انتهى إلى قعرها فسمعتم وجْبتها». رواه مُسْلم[3].

١٣ـ وعن عياض بن حمار المجاشعيّ أنّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خُطبته: «ألاَ إنّ ربّي أمرني أن أُعَلِّمكُمْ ما جهلتم ممّا علمني يومي هذا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عبداً حلالٌ، وإنّي خلقتُ عبادي حُنَفاءَ كُلّهم

---

(١) نقلاً من الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٦٣.

(٢) نقلاً من المصدر السابق ج ٤ ص ٤٧٠.

(٣) الحديثان ١١، ١٢ نقلاً من رياض الصالحين ص ١٨٨، ١٩٠ باب الخوف.

وإنّهم أتتْهُمُ الشياطينُ فاجْتالتْهُم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحْلَلْتُ لهم وأمرتهم أن يُشركوا بي مالم أُنْزل به سُلْطاناً، وإنّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتُك لأَبْتليك وأبْتلي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسلهُ الماءُ تقرؤهُ نائماً ويقْظانَ، وإنّ الله أمرني أن أُحرِّقَ قُريْشاً، فقلت: ربِّ إذاً يثْلغُوا رأسي فيدعُـوه خُبْزةً، قال استخرجهم كما اسْتخرجوك واغْزُهُم نُغْزكَ وأنفق فسنُنْفق عليك وابْعث جيشاً نبعث خمسةً مثله وقاتل بمن أطاعك من عصـاك، قال وأهل الجنّة ثلاثةٌ: ذُو سُلْطان مُقْسِطٌ متصدّقٌ مُوفَّقٌ، ورجلٌ رحيمٌ رقيقُ القلب لكلّ ذي قُرْبَى ومُسْلمٍ، وعفيفٌ مُتعفِّفٌ ذُو عيالٍ. قال وأهلُ النّار خمسةٌ: الضعيفُ الذي لا زبْرَ له الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائنُ الذي لا يخفى له طمعٌ وإن دقَّ إلاّ خانَهُ، ورجلٌ لا يُصبحُ ولا يُمسي إلاَّ وهو يُخادعُك عن أهلك ومالك وذكر البُخْلَ أوِ الكذبَ، والشِّنْظيرُ الفحاش». رواه مُسْلم في صحيحه[1].

والمقصود من ذكري هذا الحديث: هو صفات أهل النَّار في قوله ﷺ: «وأهل النار خمسةٌ: الضعيف الذي لا زَبْرَ له الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً... الحديث».

فقوله: «زبر» بفتح الزاي وإسكان الموحدة، أي لا عقل له يزبره ويمنعه ممّا لا ينبغي، وقيل: هو الذي لا مال له، وقيل: الذي ليس عنده ما يعتمده، وقوله «لا يبتغون» بالموحدة والغين المعجمة، أي لا يطلبون.

---

(1) ج ١٧ ص ١٩٧ ـ ١٩٩ نووي.

وقوله ﷺ: «الخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دقَّ ألاّ خانه» معنَى «لا يخفَى» لا يظهر، قال أهل اللغة: يقال خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا سترته وكتمته.

وأمّا «الشنظير» فبكسر الشين والظاء المعجمتين وإسكان النون بينهما، وفسره في الحديث بأنّه الفحاش وهو السيىء الخلق[1].

١٤ـ وعن أبي وائل قال: قيل لأسامة لوْ أتيت فلاناً فكلمته، قال: إنكم لترون أنّي لا أكلمه إلاّ أُسمعكم، أنّي أكلمه في السِّرِّ دون أن أفتح باباً لا أكونُ أوّل من فتحه، ولا أقول لرجل ـ أنْ كان عليٌّ أميراً ـ إنّه خير النّاس، بعد شيء سمعته من رسول الله ﷺ. قالوا: وما سمعتَهُ يقول؟ قال: سمعته يقول: يُجاءُ بالرجل يوم القيامة فيُلقَى في النّار، فتندلقُ أقْتابه في النّار، فيدور كما يدور الحمارُ برحاه، فيجتمعُ أهلُ النّـار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنْهاكم عن المنكر وآتيه. رواه البخاري[2].

---

(١) شرح النووي على صحيح مُسْلم ج ١٧ ص ١٩٩، ٢٠٠.

(٢) ج ٦ ص ٣٣١ فتح.

باب: الأعمال بالخواتيم وما يُخاف منها

١ـ عن ابن مسعـود رضي الله عنـه قال: حدثنـا رسول الله ﷺ وهو الصَّادقُ المصدوق: «إنّ أحدكم يجمعُ خلْقُهُ في بطن أُمِّه أرْبعين يوماً نُطفَة، ثم يكونُ علقةً مثلَ ذلكَ، ثم يكونُ مُضْغَةً مثلَ ذلك، ثم يرسل الملَكُ فينفُخُ فيه الرُّوحُ ويُؤْمَر بأربع كلماتٍ بكتْب رزْقه وأجَله وعمله وشَقِيٌّ أوْ سعيدٌ. فوالذي لا إله غيرُهُ إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنَّة حتّى ما يكونُ بينه وبينها إلَّا ذراعٌ فيسبقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعمل أهْل النَّارِ فيدْخُلُها، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النَّار حتّى ما يكونُ بينـه وبينهـا إلَّا ذراعٌ فيسبقُ عليه الكتـابُ فيعملُ بعمل أهل الجنّة فيدخُلها» متفق عليه[1].

٢ـ وعن سهل بن سعد الساعدي قال: «نظر النبيّ ﷺ إلى رجُلٍ يُقاتلُ المشركين ـ وكان من أعظم المسلمين غَناءً عنهم ـ فقال: من أحبَّ أن ينظر إلى رجل من أهل النّار فلينظر إلى هذا، فتبعه رجل، فلم يزل على ذلك حتّى جُرح، فاسْتعجل الموتَ فقال بذُبابة سيفه فوضعه بين ثَدْيَيْه فتحامل عليه حتّى خرج من بين كتفيه، فقال النبيُّ ﷺ: إنَّ العبدَ ليعمـل ـ فيمـا يرى الناسُ ـ عمل أهلِ الجنَّة وإنّه لمن أهل النَّار، ويعملُ ـ فيما يَرى النّاس ـ عملَ أهلِ النَّار وهو من أهلِ الجنّة، وإنّما

---

(١) من رياض الصالحين باب الخوف ص ١٨٧.

الأعمالُ بخواتيمها». رواه البخاري[1].

٣ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنـه قال: «شهـدنا مع رسول الله ﷺ خيْبر، فقال رسولُ الله ﷺ لرجلٍ ممن معه يَدَّعي الإسلام: هذا من أهل النّار. فلما حضَر القتال قاتل الرجلُ من أشدّ القتال، وكثرت به الجـراحُ فأثْبَتَتْهُ، فجاء رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت الذي تحدثت أنّه من أهل النَّار؟ قاتل في سبيل الله من أشدّ القتال فكثرت به الجراح. فقال النبيُّ ﷺ: أما إنّه من أهل النَّار، فكاد بعضُ المسلمين يرتاب، فبينما هو على ذلك إذْ وجَد الرجلُ ألَمَ الجراح، فأهْوى بيده إلى كنانته فانْتزع منها سهْماً فانْتحر بها، فاشْتَدَّ رجالٌ من المسلمين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، صدَّقَ اللهُ حديثـك، قد انْتحـر فلانٌ فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ: يا بلالُ، قُم فأذّن: لا يدخُل الجنّة إلاَّ مُؤْمنٌ، وإنَّ اللهَ ليؤيد هذا الدين بالرّجل الفاجر». رواه البخاري[2].

قوله في حديث ابن مسعود: «إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النّار فيدخلها. . .» الحديث.

ووقـع في حديث أبي هريرة عنـد مُسلم: «وإنَّ الـرّجل ليعمل الزّمان الطويل بعمل أهل النّار ثم يختم له بعمل أهل الجنّة» زاد أحمد من وجـه آخر عن أبي هريرة: «سبعين سنة» وفي حديث أنس عند أحمد وصححه ابن حبّان «لا عليكم أن لا تعجبوا بعمل أحد حتّى

(١) ج ١١ ص ٣٣٠ فتح.
(٢) ج ١١ ص ٤٩٨، ٤٩٩ فتح.

تنظروا بِمَ يختم له، فإنّ العامل يعمل زماناً من عمره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنّة ثمَّ يتحوَّل فيعمل عملاً سيِّئاً. . .» الحديث.

وفي حديث عائشة عند أحمد مرفوعاً: «إنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنَّة وهو مكتوب في الكتاب الأول من أهل النَّار، فإذا كان قبل موته تحول فعمل عمل أهل النَّار فمات فدخلها. . .» الحديث، ولأحمد والنسائي والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو «خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان» الحديث وفيه «وهذا كتاب من ربّ العالمين فيه أسماء أهل الجنَّة وأسماء آبائهم وقبائلهم». ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. «فقال أصحابه: ففيم العمل؟ فقال: سددوا وقاربوا، فإنَّ صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أيّ عمل» الحديث، وفي حديث عليّ عند الطبراني نحوه وزاد «صاحب الجنَّة مختوم له بعمل أهل الجنة وإنْ عمل أيّ عمل، وقد يسلك بأهل السعادة طريق أهل الشقاوة حتّى يقال ما أشبههم بهم بل هم منهم، وتدركهم السعادة فتستنقذهم» الحديث.

ويستفاد من هذا الحديث: أنّ السعيد قد يشقَى، وأنّ الشّقيَّ قد يسْعد، لكن بالنسبة إلى الأعمال الظاهرة، وأمَّا ما في علْم الله تعالى فلا يتغير، وفيه أنّ الاعتبار بالخاتمة.

قال ابن أبي جمرة نفع الله به: هذه التي قطعت أعناق الرجال مع ما هم فيه من حسْن الحال لأنّهم لا يدرون بماذا يخْتم لهم. وفيه أنّ عموم مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ الآية[1]، مخصوص بمن مات

(١) ٩٧/ من سورة النّحل.

على ذلك، وأن من عمل عمل السعادة وختم له بالشقاء فهو في طول عمره عند الله شقيّ وبالعكس، وما ورد ممّا يخالفه يؤول إلى أن يؤول إلى هذا، وقد اشتهر الخلاف في ذلك بين الأشعرية والحنفية، وتمسك الأشاعرة بمثل هذا الحديث، وتمسك الحنفية بمثل قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾[1] وأكثر كلّ من الفريقين الإحتجاج لقوله، والحقّ أنّ النزاع لفظي، وأنّ الذي سبق في علْم الله لا يتغير ولا يتبدل، وأنّ الذي يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للنّاس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما في علم الحفظة والموكلين بالآدمي فيقع فيه المحو والإثبات كالزيادة في العمر والنقص، وأمّا ما في علْم الله فلا محو فيه ولا إثبات، والعلم عند الله[2].

وأمّا قوله ـ في حديث سهل ـ «غناء» بفتح المعجمة بعدها نون ممدودة، أي كفاية، وأغنَى فلان عن فلان نابَ عنه وجرَى مجراه. وذبابة السيف حدّه وطرفه.

قال ابن بطَّالْ: في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف، لأنّه لو علم وكان ناجياً أعجب وكسل، وإن كان هالكاً ازْداد عتواً فحجب عنه ذلك ليكون بين الخوف والرجاء، وقد روَى الطبري عن حفص بن حميد قال: قُلت لابْن المبارك رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلماً فقلت في نفسي أنا أفضل من هذا، فقال: أمْنك على نفسك أشدّ من ذنبه، قال الطبري: لأنّه لا يدري ما يؤول إليه الأمر

---

(١) ٣٩/ من سورة الرّعد.

(٢) فتح الباري ج ١١ ص ٤٨٧، ٤٨٨ باختصار.

لعلّ القاتل يتوب فتُقبل توبته، ولعلّ الذي أنكر عليه يختم له بخاتمة السوء[1].

---

(١) فتح الباري ج ١١ ص ٣٣٠.

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

١ـ عن عائشة رضيَ الله عنها: «أنّ رسول الله ﷺ كان إذا تغيّر الهواء وهبّت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كلّ ذلك خوفاً من عذاب الله» متفق عليه.

٢ـ وعن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما قال: «سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته؟ فقال؛ ادْع ربّك، فدعَا ربّه فطلع عليه من قبل المشرق، فجعل يرتفع ويسير، فلمّا رآه صعق» رواه البزار بسند جيّد.

٣ـ وروي أنّه عليه السلام كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيزاً كأزيز المِرْجَل» قال الحافظ العراقي: رواه أبو داود والترمذي في الشمائل، والنسائي من حديث عبد الله بن الشّخير.

٤ـ وعن ابن عبّاس قال: إنّ جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترتعد فرائصه فرقاً من عذاب الله. . . .» الحديث. قال الحافظ العراقي: رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة، وفيه زميل بن سماك الحنفي يحتاج إلى معرفته.

٥ـ وعن أنس أنّه ﷺ قال لجبريل: «مالي لا أرَى ميكائيل يضحك؟ فقال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النّار». قال العراقي: رواه أحمد

وابن أبي الـدنيا في كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس بإسناد جيّد، ورواه ابن شاهين في السّنة من حديث ثابت مرسلاً، وورد ذلك أيضاً في حقّ إسرافيل. رواه البيهقي في الشعب، وفي حقّ جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين[1].

---

(١) من إحياء علوم الدين وتحقيق ما فيه من أحاديث للعراقي. ج ٤ ص ١٨٠، ١٨١ باختصار.

أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدّة الخوف

روى أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق بشراً.

وقال أبو ذر رضيَ الله عنه: وددت لو أنّي شجرة تعضد وكذلك قال طلحة.

وقال عثمان رضيَ الله عنه: وددت إنّي إذا متّ لم أبعث. وقالت عائشة رضيَ الله عنها: وددت أنّي كنت نسْياً منْسيًا.

وروى أنّ عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغْشياً عليه، فكان يعاد أياماً، وأخذ يوماً تبْنة من الأرض، فقال يا ليتني كنت هذه التبنة، يا ليتني لم أكُ شيئاً مذكوراً، يا ليتني كنت نسياً منسياً، يا ليتني لم تلدني أمّي، وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطّان أسودان من الدموع، ولمّا قرأ عمر رضيَ الله عنه ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وانتهى إلى قوله تعالى ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[1] خرّ مغشياً عليه، ومرّ يوماً بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة «والطّور» فوقف يستمع، فلمّا بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ

(١) ١ ـ ١٠/ من سورة التكوير.

دَافع ﴾[1] نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زماناً، ورجع إلى منزله فمرض شهراً يعوده النّاس ولا يدرون ما مرضه[2].

وقال ابن عمر: كان رأس عمر علَى فخذي في مرضه الذي مات فيه، فقال لي: ضعْ رأسي، قال: فوضعته على الأرض، فقال: ويْلي ووَيْلُ أُمّي إن لم يرحمني ربّي.

وقـال المسور بن مخْرمة: لمّا طُعِنَ عمر قال: لوْ أنّ لي طلاع الأرض ذهباً، لافْتديت به من عذاب الله قبل أن أراه.

وبكَى أبو هريرة في مرضه، فقيل له: ما يُبْكيكَ؟ فقال: أما إنِّي لا أبْكي على دنياكم هذه، ولكن أبكي على بُعْد سفري وقلّة زادي، وإنّي أمْسيتُ في صعودٍ على جنّة أوْ نارٍ، لا أدري إلى أيتهما يؤخذ بي.

وقال عبد الله بن مسعود: إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنّه جالسٌ في أصل جبل يخشى أن ينقلب عليه، وإنّ الفاجر يرَى ذنوبه كذباب مرَّ على أنْفه، فقال به هكذا.

وقال أبو أيوب الأنصاري: إنَّ الرّجل ليعمل المحقّرات حتَّى يأتي الله وقد أحطْن به، وإنّ الرجل ليعمل السيِّئة فيفرق منها حتَّى يأتي الله آمناً[3].

وقال عليٌّ رضي الله عنه وقد سلّم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة

---

(1) ١ ـ ٨/ من سورة الطور.

(2) من إحياء علوم الدين ج ٤ ص ١٨٣، ١٨٤.

(3) شرح السنّة للبغوي ج ١٤ ص ٣٧٣، ٣٧٤.

وهـو يقلب يده: لقـد رأيت أصحـاب محمّد ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبْراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتـوا للهِ سجّـداً وقيامـاً يتلون كتـاب الله يراوحـون بين جباههم وأقـدامهم، فإذا أصبحـوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر في يوم الرّيح، وهملت أعينهم بالدموع حتّى تبلَّ ثيابهم.

وقـال أبـو عبيدة بن الجـراح رضيَ الله عنـه: وددت أنّي كبْش فيذبحني أهْلي فيأكلون لحْمي ويحسون مرقي.

وكـان عليّ بن الحسين رضي الله عنـه إذا توضـأ اصْفـرّ لونه، فيقولون له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

وقال موسى بن مسعود: كنّا إذا جلسنا إلى الثوري كأنَّ النّار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه.

وقيل: مرض سفيان الثـوري فعـرض دليله على طبيب ذمّي، فقال: هذا رجل قطع الخوف كبده، ثم جاء وَجسّ عروقه، ثم قال: ما علمت أنّ في الملّة الحنيفية مثله.

وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: سألت الله عزّ وجلّ أن يفتح عليَّ باباً من الخوف، ففتح فخفْتُ عَلى عقلي، فقلت: يا ربّ علَى قدْر ما أطيق، فسكن قلْبي.

وحكى أنّ قوماً وقفوا بعابد وهو يبكي، فقالوا: ما الذي يبكيك يرحمـك الله؟ قال: قرْحة يجدها الخائفون في قلوبهم، قالوا: وما هي؟ قال: روْعة النداء بالعرض على الله عزّ وجلّ.

وقـال رجل للحسن: يا أبا سعيد كيف أصبحت؟ قال: بخير، قال: كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال: تسألني عن حالي؟ ما ظنّك بناس ركبوا سفينة حتّى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كلّ إنسـان منهم بخشبة؟ عَلى أيّ حال يكون؟ قال الرجل: على حال شديدة. قال الحسن: حالي أشدّ من حالهم[1].

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ج ٤ ص ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧ باختصار.

الترغَيب في الرّجاء وبيان فضله من الكتاب

يقول الغزالي رحمه الله :

اعْلم أنّ العمل على الرجاء أعْلى منه على الخوف، لأنّ أقْرب العباد إلى الله تعالى أحبّهم له، والحبّ يغلب الرّجاء، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه، ولذلك ورد في الرّجاء وحسن الظّن رغائب لا سيّما في وقت الموت. قال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾[1] فحرم أصْل اليأس.

وقال ﷺ: «لَا يَموتن أحدكم إلَّا وهو يحسن الظَّنّ بالله تعالى»[2].

وقال ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ: أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما شَاء»[3].

ودخل ﷺ على رجل وهو في النزع فقال: «كيف تجدك»؟ فقال: أجدني أخاف ذنوبي وأرْجو رحْمة ربِّي. فقال ﷺ: «ما اجْتمعا في

---

(١) ٥٣/ من سورة الزّمر.

(٢) رواهُ مُسْلم من حديث جابر.

(٣) أخرجه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله «فليظنّ بي ما شاء». [نقلاً من تخريج الإحياء ج ٤ ص ١٤٥]

قلب عبْدٍ في هذا الموطن إلاّ أعْطاه الله ما رَجَا وَأمّنه ممّا يخاف»[1][2].

وها أنا أحبُّ أن أسوق بعض الآيات القرآنية ـ وشيء من تفسيرها ـ التي تدعو إلى الرّجاء وحسن الظّنّ بالله.

قال تعالىٰ:

١ـ ﴿إنّ الَّـذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

قال الطبري: يعني بذلك جلّ ذكره: إنّ الذين صدقوا بالله وبرسوله وبما جاء به، وبقوله ﴿الّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الذين هجروا مساكنة المشركين في أمْصارهم ومجاورتهم في ديارهم فتحوّلوا عنهم وعن جوارهم وبلادهم إلى غيرها هجرة لما انْتقل عنه إلى ما انْتقل إليه.

وأصْل المهاجرة: المفاعلة، من هجرة الرجل الرّجل للشحناء تكون بينهما ثم تستعمل في كلّ من هجر شيئاً لأمْر كرهه منه.

وإنّما سمي المهاجرون من أصحاب رسول الله ﷺ مهاجرين لما وصفنا من هجرتهم دورهم ومنازلهم كراهة منهم النزول بين أظهر المشركين وفي سلطانهم بحيث لا يأمنون فتنتهم على أنفسهم في ديارهم إلى الموضع الذي يأمنون ذلك.

وأما قوله: ﴿وَجَاهَدُوا﴾ فإنّه يعني وقاتلوا وحاربوا، وأصل

---

(١) رواه الترمذي وقال: غريب، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث أنس، وقال النووي: إسناد جيد. [نقلاً من المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٥]

(٢) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ١٤٤، ١٤٥.

(٣) ٢١٨/ من سورة البقرة.

المجاهدة: المفاعلة. وأمّا ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ فطريقه ودينه.

فمعنى قوله إذا: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾: والذين تحولوا من سلطان أهل الشرك هجرة لهم وخوف فتنتهم على أديانهم وحاربوهم في دين الله ليدخلوهم فيه وفيما يرضي الله[1]. ثم قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ﴾ ﴿يَرْجُونَ﴾ معناه يطمعون ويستقربون. وإنّما قال ﴿يَرْجُونَ﴾ وقد مدحهم لأنّه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنّه صائر إلى الجنّة ولوْ بلغ في طاعة الله كلّ مبلغ، لأمرين: أحدهما: لا يدري بما يُختم له. والثاني: لئلا يتّكل على عمله، والرّجاء ينْعَمُّ، والرّجاء أبداً معه خوف ولا بُدّ، كما أنّ الخوف معه رجاء. والرّجاء من الأمل ممدود، يقال: رَجَوت فلاناً رَجْواً وَرَجَاء ورَجَاوة، يقال: ما أتيتك إلاّ رَجاوةَ الخير.

وقد يكون الرّجْو والرّجاء بمعنى الخوف، قال الله تعالى: ﴿مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً﴾[2] أي لا تخافون عظمة الله[3].

وقال الرازي رحمه الله:

ليس المراد من الآية أنّ الله شكك العبد في هذه المغفرة، بل المراد وصْفهم بأنّهم يفارقون الدّنيا مع الهجرة والجهاد، مستقصرين أنفسهم في حقّ الله تعالى، يرون أنّهم لم يعبدوه حقّ عبادته، ولم يقْضوا ما يلزمهم في نصْرة دينه، فيقدمون على الله مع الخوف والرّجاء، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى

---

(1) طبري ج ٢ ص ٢٠٧.

(2) ١٣/ من سورة نوح.

(3) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٥٠.

﴿رَبِّهِمْ رَاجِعُون﴾[1].

ثم قال تعالى: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إنّ الله تعالى يحقق لهم رجاءهم إذا ماتوا على الإيمان والعمل الصالح، وأنّه غفور رحيم[2].

وقال تعالى:

٢- ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً﴾[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ قال ابن عمر: لمّا نزلت: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[4] قالوا لرسول الله ﷺ: والشرك؟ فكره رسول الله ﷺ ذلك، فنزلت هذه.

والمراد من الآية: لا يغفر لمشرك مات على شركه. وفي قوله ﴿لِمَنْ يَشَاء﴾ نعمة عظيمة من وجهين، أحدهما: أنّها تقتضي أنّ كلّ ميّت على ذنب دون الشرك لا يقطع عليه بالعذاب، وإن مات مصرًّا. والثاني: أنّ تعليقه بالمشيئة فيه نفع للمسلمين، وهو أن يكونوا على خوف وطمع[5].

---

(١) ٦٠/ سورة المؤمنون.

(٢) التفسير الكبير للرازي ج ٦ ص ٤٢.

(٣) ٤٨/ من سورة النساء.

(٤) ٥٣/ من سورة الزمر.

(٥) زاد المسير في علم التفسير ج ٢ ص ١٠٣، ١٠٤.

لطيفـــــة :

قال أبو البقاء: الشرك أنواع: شرك الإستقلال، وهو إثبات إلٰهين مستقلين. كشرك المجوس. وشرك التبعيض، وهو تركيب الإلٰه من آلهة كشرك النصارى. وشرك التقريب، وهو عبادة غير الله ليقرب إلى الله زلْفىٰ، كشرك متقدمي الجاهلية، وشرك التقليد، وهو عبادة غير الله تبعاً للغير، كشـرك متأخري الجاهلية. وشرك الأسباب، وهو إسناد التأثير للأسباب العادية، كشرك الفلاسفة والطبائعيين ومن تبعهم على ذلك. وشرك الأغراض، وهو العمل لغير الله. فحكم الأربعة الأولى: الكفـر بإجمـاع. وحكم السادس: المعصية من غير كفر بإجماع. وحكم الخامس: التفصيل. فمن قال في الأسباب العادية إنّها تؤثر بطبعها فقد حكَى الإجماع على كفره. ومن قال إنّها تؤثر بقوة أوْدعها الله فيها فهو فاسق. انتهى.

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلكَ﴾ أي ما دون الشرك من المعاصي، صغيرة كانت أوْ كبيرة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ تفضُّلاً منه وإحْساناً.

قال ابن جرير: وقـد أبانت هذه الآية أنّ كلّ صاحب كبيرة في مشيئة الله عزّ وجلّ، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليه، مالم تكن كبيرته شركاً بالله عزّ وجل.

وظاهره أنّ المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقْتضته مشيئته تفضُّلاً منه ورحمة. وإن لم يقع من ذلك المذنب توبة.

وقال ناصر الدين في «الانتصاف»: عقيدة أهل السنّة: أنّ الشرك غير مغفور الْبتة، وما دونه من الكبائر مغفور لمن يشاء الله أن يغفره له. هذا مع عدم التوبة. وأمّا مع التوبة فكلاهما مغفور.

والآية إنّما وردت فيمن لم يتب ولم يذكر فيها توبة كما ترى. فلذلك أطْلق الله تعالى نفي مغفرة الشرك وأثبت مغفرة ما دونه مقْرونة بالمشيئة كما ترى. فهذا وجه انطباق الآية على عقيدة أهل السنّة[1].

فائـــدة:

وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية تدعونا أيضاً إلى جانب الرجاء وحسن الظنّ بالله.

الأول: عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدّواوين عند الله عزّ وجلّ ثلاثة: ديوان لا يعْبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله.

فأمّا الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله. قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية. وقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[2]. وأمّا الديوان الذي لا يعْبأ الله به شيْئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربّه من صوم يوم تركه، أوْ صلاة تركها. فإنّ الله عزّ وجلّ يغفر ذلك ويتجاوز، إن شاء. وأمّا الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة»[3].

الثاني: عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال: «الظلم ثلاثة: فظلْم لا يغفره الله. وظلْم يغفره الله. وظلْم لا يترك الله منه شيئاً.

فأمّا الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك. وقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ج ٥ ص ٢٠٠، ٢٠١.

(٢) ٧٢/ من سورة المائدة.

(٣) رواه الإمام أحمد. وقد تفرد به.

عَظِيمٌ﴾[1]. وأمّا الظلم الذي يغفره الله، فظلم العباد لأنفسهم، فيما بينهم وبين ربّهم. وأمّـا الظلم الذي لا يتركه، فظلْم العباد بعضهم بعضاً حتّى يدين لبعضهم من بعض»[2].

الثـالث: عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلّ ذنب عَسى الله أن يغفره إلاَّ الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً»[3].

الرابع: عن أبي ذرّ أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد قال: لا إلٰه إلاَّ الله، ثم مات على ذلك، إلاّ دخل الجنة. قلت: وإن زنَى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق «ثلاثاً» ثم قال في الرابعة: على رغمِ أنْفِ أبي ذرّ».

قال فخرج أبو ذرّ وهو يجرّ إزاره وهو يقول: وإنْ رغم أنف أبي ذرّ.

وكان أبو ذرّ يحدّث بهذا بعْدُ ويقول: وإنْ رغم أنف أبي ذرّ[4].

وفي رواية للشيخين عن أبي ذرّ: قال ﷺ: قال لي جبريل: «بشّر أمّتك أنّه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. قلت: يا جبريل! وإنْ سرق وإنْ زنى؟ قال: نعم. قلت: وإنْ سرق وإنْ زنَى؟ قال: نعم. قلت: وإنْ سرق وإنْ زَنَى؟ قال: نعم. وإنْ شرب الخمر».

---

(١) ١٣/ من سورة لقمان.

(٢) رواه أبو بكر البزار في مسنده.

(٣) رواه الإمام أحمد والنسائي.

(٤) أخرجه الإمام أحمد والشيخان.

الخامس: عن جابر قال: «جاء أعرابيّ إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله! ما الموجبتان؟

قال: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. ومن مات يشرك به دخل النَّار»(١).

السّادس: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»(٢).

السابع: عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال: قال الله عزّ وجلّ: «منْ علم أنّي ذو قدْرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولاَ أبالي»(٣).

الثامن: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه له، ومن توعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار»(٤).

التاسع: عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابْنَ آدم! إنك ما دعوْتني ورجوْتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي. يا ابْن آدم! لوْ بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم اسْتغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابْن آدم! إنّك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة»(٥).

---

(١) أخرجه مُسلم وعبد بن حميد في مسنده.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) رواه الطبراني.

(٤) رواه البزّار وأبو يعْلَى.

(٥) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه.

العاشر: عن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أنْ لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبدُه ورسوله وأنَّ عيسَى عبد الله ورسوله وكَلِمَتُهُ أَلْقَاها إلى مريم وروح منه وأنّ الجنّة حقٌّ والنَّار حقٌّ أدْخله اللهُ الجنّة على ما كان من العمل»(١).

الحادي عشر: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال. قال رسول الله ﷺ: «وَالـذي نفسي بيده لوْ لـمْ تذنِبُـوا لذَهب اللهُ بكـم وجاء بقومٍ يُذْنبونَ فيستغفرونَ الله تعالى فيغفر لهم»(٢).

الثاني عشر: عن أبي أيوب خالد بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لولاَ أنّكم تُذْنبون لخلَقَ الله خلْقاً يُذْنبونَ فيستغفرونَ فيُغفرُ لهم»(٣).

وقال تعالىٰ:

٣ـ ﴿قُل لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض قُلْ للهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(٤)

قولـه: **﴿قُـل لِمَنْ مَا فِي السَّمَـاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أي: قل أيّهـا الرّسول لقومك الجاحدين لرسالتك المعرضين عن دعْوتك: لمن هذه المخلوقـات عُلْويُّهـا وسفْليُّها؟ وقد كانت العرب تؤمن بأنّ الله خالق السماوات والأرض وأنّ كلّ ما فيهما ملك وعبيد له، كما قال تعالى:

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مُسْلم.

(٣) رواه مُسْلم.

(٤) ١٢/ من سورة الأنعام.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

والمقصود من السؤال التبكيت والتوبيخ.

﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ هذا تقرير للجواب نيابة عنهم، أوْ إلْجاء لهم إلى الإقرار بأنّ الكلّ له سبحانه، ولا خلاف بيني وبينكم في ذلك ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً آخر إليه.

وإتْيان السؤال بالجـواب يَحْسن إذا كان ما يأتي به هو عيْن ما يعتقده المسؤول وما يجيب به إن أجاب، وإنّما يسبقه إليه ليبني عليه شيئاً من لوازمه ممّا يجهله المسؤول أوْ يغفُل عنه أوْ ينكره لجهله أوْ غفلته عن كونه لازماً لما يعرفه ويعتقده[1].

وقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ يقول: قَضَى أنّه بعباده رحيم لا يعجـل عليهم بالعقوبة ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وهذا مِنَ الله تعالى ذكره اسْتعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة.

يقـول تعـالى ذكره: إنّ هؤلاء العادلين بي الجاحدين نبوّتك يا محمـد إنْ تَابُـوا وأنَابُوا قبلت توبتهم وإنّي قد قضيت في خلْقي أنّ رحْمتي وسعت كلّ شَيْء.

فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لمّا فرغ الله من الخلق كتب كتاباً: إنّ رحمتي سبقت غضبي.

وعن سلمان قال: إنّ الله تعالى لما خلق السماء والأرض خلق مائة رحمة، كلّ رحمة ملء ما بين السماء إلى الأرض، فعنده تسْع

---

(١) المراغي ج ٧ ص ٨٥، ٨٦.

وتسعون رحمة، وقسّم رحْمة بين الخلائق فبهَا يتعاطفون وبها تشرب الوحوش والطير الماءَ، فإذا كان يوم القيامة قصرها الله على المتّقين وزادهم تسْعاً وتسعين[1].

ولمّا كان مقتضى الرّحمة والفضل أعمّ وأسْبق من مقْتضَى العدل كان جزاء الظالمين المسيئين على قدْر اسْتحقاقهم، ومنهم من يعْفو الله عنه، فالجزاء على الإساءة قد ينقص منه بالعفو والمغفرة ولا يزاد فيه، وإنّما الزيادة في الجزاء على الإحسان: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[2].

وبيان الدين لهذا النوع من الجزاء رحمة أيضاً.

والخلاصة: إنّه لما قال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فكأنّه قيل: وما تلك الرحمة؟ فقيل: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ذلك أنّه لوْلا خوف العذاب يوم القيامة لحصل الفساد في الأرض واخْتلّت نظم الإجتماع وأكل القوي الضعيف ولا وازع ولا زَاجر، فصار التهديد بهذا اليوم من أسباب الرَّحمة[3].

وقال الرازي. وقوله ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ كلام ورد على سبيل المخاطبة.

والمقصود منه التأكيد في التهديد، كأنّه قيل: لما علمتم أنّ كلّ ما في السماوات والأرض للهِ وملكه، وقد علمتم أنّ الملك الحكيم لا

---

(١) طبري ج ٧ ص ٩٩.

(٢) ١٦٠/ من سورة الأنعام.

(٣) تفسير المراغي ج ٧ ص ٨٦، ٨٧.

يهمل أمْر رعيته، ولا يجوز في حكمته أن يسوي بين المطيع والعاصي وبين المشتغل بالخدمة والمعرض عنها، فهلا علمتم أنّه يقيم القيامة ويحضر الخلائق ويحاسبهم في الكلّ.

وكلمة «إلى» في قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فيها أقوال: الأول: أنّها صلة، والتقدير: ليجمعنكم يوم القيامة. وقيل: «إلى» بمعنى «في» أي ليجمعنكم في يوم القيامة. وقيل: فيه حذف، أي ليجمعنكم إلى المحشر في يوم القيامة، لأنّ الجمع يكون إلى المكان لاَ إلَى الزّمان[1].

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني تعالى ذكره بقوله ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ العادلين به الأوثان والأصنام.

يقول تعالى: ليجمعن الله الذين خسروا أنفسهم: أي الذين أهلكوا أنفسهم وغبنوها بادّعائهم للهِ النّد والعديل فأوْبقوها بإيجابهم سخط الله وأليم عقابه في المعاد.

وأصل الخسارة: الغبن، يقال منه: خسر الرجل في البيع إذا غبن.

وموضع «الذين» في قوله ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ نصب على الرد على الكاف والميم في قوله: ﴿ليجمعنكم﴾ على وجْه البيان عنها، وذلك أنّ الذين خسروا أنفسهم هم الذين خوطبوا بقوله ﴿ليجمعنكم﴾ وقوله ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: فهم لإهلاكهم أنفسهم وغبنهم إيّاها حظّها لا يؤمنون، أي لا يوحدون الله ولاَ يصدّقون

(١) التفسير الكبير للرازي ج ١٢ ص ١٧٥.

بوعْده ووعيده ولا يقرّون بنبوة محمد ﷺ[1].

والخلاصة: إنّ الفوز والفلاح في الدين والدنيا لا يتمّ إلاّ بالعلم الصحيح والعزيمة الحافزة إلى العمل بالعلم، فمن خسر إحْدىَ الفضيلتين فقد خسر نفسه، فَرْداً كان أوْ أمّة، فما بالُ من خسرهما معاً[2].

وقال تعالىٰ:

٤ـ ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

أخرج الفريابي وعبد بن حميد ومسدد في مسنده وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ماهان قال: أتى قوم إلى النبي ﷺ فقالوا إنّا أصَبْنَا ذنوباً عظاماً فما ردّ عليهم شيئاً فانْصرفوا فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ الآية، فدعاهم فقرأها عليهم.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال أخبرت أنّ قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال: كانوا إذا دخلوا على النبي ﷺ بدأهم فقال سلام عليكم، وإذا لقيهم فكذلك أيضاً[4].

وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا

---

(١) طبري ج ٧ ص ١٠١.
(٢) تفسير المراغي ج ٧ ص ٨٧.
(٣) ٥٤/ من سورة الأنعام.
(٤) الدر المنثور ج ٣ ص ١٤.

﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام والسلامة بمعنى واحد. ومعنى ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلمكم الله في دينكم وأنفسكم، نزلت في الذين نَهَى الله نبيّه عليه الصلاة والسلام عن طردهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «الحمد للهِ الذي جعل في أمّتي من أمرني أن أبْدأهم بالسلام» فعلى هذا كان السلام من جهة النبي ﷺ.

وقيل: إنّه كان من جهة الله تعالى، أي أبْلغهم منّا السلام، وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى.

وفي صحيح مُسْلم عن عائِـذ بن عمرو أنّ أبا سفيان أتَى على سلْمان وصُهَيْبٍ وبلالٍ ونَفَر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخـذهـا، قال: فقـال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيّدهم؟! فأتَى النبيّ ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربّك» فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخْوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لاَ، يغْفر الله لكَ يا أخي.

فهذا دليل على رفْعه منازلهم وحرمتهم.

ويستفـاد من هذا احْتـرام الصـالحين واجتنـاب ما يغضبهم أوْ يؤذيهم، فإنّ في ذلك غضب الله، أي حلول عقابه بمن آذَى أحداً من أوْليائه[1].

وقال البيضاوي: وصفهم بالإيمان بالقرآن واتّباع الحجج بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة وأمره بأن يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلام الله إليهم ويبشرهم بسعة رحمته وفضله بعد النّهي عن طردهم إيذاناً بأنهم

---

(١) قرطبي ج ٦ ص ٤٣٥.

الجامعون لفضيلتي العلم والعمل ومن كان كذلك ينبغي أن يقرب ولا يطرد ويعزّ ولا يذلّ ويبشر من الله بالسّلامة في الدّنيا والرّحمة في الآخرة[1].

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجبها على ذاته المقدسة، تفضلاً منه إحْساناً وامْتناناً.

وقوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾ الخ، بدل من ﴿الرَّحْمة﴾. وقرىء بكسر الهمزة على أنّه تفسير للرحمة بطريق الاستئناف. وقوله: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ في موضع الحال، أي: عمله وهو جاهل، وفيه معنيان:

أحدهما: أنّه فاعل فعل الجهلة، لأنَّ من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة، وهو عالم بذلك أوْ ظانّ، فهو من أهل السّفه والجهل، لَا منْ أهْل الحكمة والتدبير.

والثاني: أنّه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرّة، ومن حقّ الحكيم أن لا يقدم على شيء حتّى يعلم حاله وكيفيته ـ كذا في الكشاف ـ.

فعلى الأول الجهل: بمعنى السفه والمخاطرة من غير نظر للعواقب، كما في قول الشاعر:

فنجهل فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلينَا

وعلى الثاني. المراد: الجهالة بمضارّ ما يفعله[2].

---

(١) تفسير البيضاوي ص ١٧٧.

(٢) نقلاً من القاسمي ج ٦ ص ٥٥١، ٥٥٢.

والمعنى: من عمل منكم عملاً تسوء عاقبته، للضرر الذي حرّمه الله لأجله، حال كونه ملتبساً بجهالة دفعته إلى ذلك السوء، كغضب شديد حمله على السّب والضرب، أوْ شهوة مغْتَلِمة قادته إلى انْتهاك العرض، ثم تاب ورجع عن ذلك السوء بعد أن عمله شاعراً بقبحه، نادماً عليه، خائفاً من عاقبته، وأصْلح عمله بأن اتّبع ذلك العمل السيىء بعمل يضاده، ويُذهب أثره من قلبه، حتّى يعود إلى النفس زكاؤها وطهارتها، وتصير أهْلاً للقرب من ربّها، فشأنه تعالى في معاملته أنّه واسع المغفرة والرَّحمة، فيغفر له ما تاب عنه ويتغمده برحمته وإحْسانه.

وقد بيّن سبحانه في هذه الآية من أنواع الرحمة المكتوبة لعباده ماهم أحْوج إلى معرفته بنصّ الوحي، وهو حكم من يعمل السّوء بجهالة من عباده المؤمنين، وبقيّة أنواعها يمكن أن يستدل عليها بالنظر في الأنفس والآفاق، وأمر نبيّه بتبليغها لمن يدخلون في الدين ليهتدوا بها حتّى لا يغتروا بمغفرة الله ورحمته فيحملهم الغرور على التفريط في جنب الله والغفلة عن تزكية أنفسهم، وحتّى يبادروا إلى تطهيرها من إفْساد الذّنوب خوف أن تحيط بها خطيئتها: **﴿إنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتوبُونَ مِنْ قَرِيب﴾**[1][2].

وقال تعالى:

٥ـ **﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* خُذْ مِنْ أمْوَالِهِمْ صَدَقَةً**

---

(١) ١٧/ من سورة النّساء.

(٢) تفسير المراغي ج ٧ ص ١٣٩.

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

قوله ﴿وَآخَرُونَ﴾ بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم في أمْر الدّين ولمْ يكونوا منافقين على الصحيح. وقيل: هم طائفة من المنافقين إلاّ أنّهم وفّقوا للتوبة فتاب الله عليهم. ﴿اعْتَرَفُوا﴾ أي أقرّوا عن معرفة ﴿بِذُنُوبِهِم﴾ التي هي تخلفهم عن الغزو[2] وإيثار الدّعة عليه والرّضا بسوء جوار المنافقين ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة المؤكدة بالأيمان الفاجرة، وكانوا ـ على ما أخرج البيهقي في الدلائل وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ـ عشرة تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوْثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان ممرّ النبيّ عليه الصلاة والسلام إذا رجع في المسجد عليهم، فلمّا رآهم قال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله وقد أقسموا أن لا يطلقوا أنفسهم حتّى تكون أنت الذي تطلقهم، فقال رسول الله ﷺ: وأنا أقسم بالله تعالى لا أطلقهم ولا أعذرهم حتّى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم، فأنزل الله تعالى الآية، فأرسل عليه الصلاة والسلام إليهم فأطلقهم وعذرهم[3].

وروى البخاري عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ

---

(١) ١٠٢ ـ ١٠٤/ من سورة التوبة.

(٢) راجع الآيات التي قبلها من أول الآية ٩٠/ من نفس السورة.

(٣) روح المعاني للألوسي ج ١١ ص ١١، ١٢.

لنا: «أتاني الليلة آتيان فابْتعثاني فانْتهيَا بي إلى مدينة مبْنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء، قالا لهم اذْهبوا فقعوا في ذلك النّهر فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السُّوء عنهم فصاروا في أحْسن صورة، قالا لي: هذه جنّة عدن وهذا منزلك. قالا: وأمّا القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنّهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً تجاوز الله عنهم». هكذا رواه البخاري مختصراً في تفسير هذه الآية[1].

و ﴿عَسَى﴾ للاطْماع، وهو من أكْرم الأكرمين إيجاب، وأيَّ إيجاب.

وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل لما أفادته من وجوب القبول، وليس هو الوجوب الذي يقوله المعتزلة كما لاَ يخفَى.

أي أنّه تعالى كثير المغفرة والرَّحمة يتجاوز عن التّائب ويتفضل عليه[2].

ثم قال سبحانه: **﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**.

يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: يا محمد خُذْ من أموالِ هؤلاء الـذين اعْتـرفوا بذنوبهم فتابوا منها صدقة تطهرهم من دنس ذنوبهم **﴿وتـزكيهم بهـا﴾** يقـول: وتنميهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل

(١) نقلاً من تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٠٠

(٢) روح المعاني ج ١١ ص ١٣، ١٤.

النفاق بها إلى منازل أهل الإخلاص، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: وادْع لهم بالمغفرة لذنوبهم واستغفر لهم منها ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ يقول: إنّ دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم بأنّ الله قدْ عفَا عنهم وقبل توبتهم ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول: والله سميع لدعائك إذا دعوت لهم ولغير ذلك من كلام خلقه، عليم بما تطلب لهم بدعائك ربّك لهم وبغير ذلك من أمور عباده[1].

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.

هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كلّ منهما يحطّ الذنوب ويمحصها ويمحقها، وأخبر تعالى أنّ كلّ من تاب إليه تاب عليه ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإنّ الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتّى تصير التمرة مثل أُحُد، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ[2].

﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي إنّه تعالى هو الذي يقبل التوبة إثْر التوبة من المذنبين الذين ينيبون إلى ربّهم، وأنّه هو الرَّحيم بالتّائبين الذي يثيبهم على ما قدموا من عمل، ويمنعهم الخوف أن يصرّوا على ذنب كما قال تعالى في وصْف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3][4].

(١) طبري ج ١١ ص ١٣.   (٢) ابن كثير ج ٢ ص ٤٠٠.

(٣) ١٣٥/ من سورة آل عمران.

(٤) المراغي ج ١١ ص ٢٠.

ثم قال سبحـانه بعد ذلك بآية: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي عن التوبة، وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الـدَّعـة والحفظ وطيب الثمار والظلال لا شكاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلـك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرْجَى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية، وهي قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَىٰ النبيّ والْمُهَاجِرينَ والْأَنْصَار﴾ الآية[1] ﴿وَعَلَىٰ الثلاثة الذِينَ خُلّفُوا حَتَّىٰ إذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾[2] الآية.

وقوله ﴿إمّا يُعَذّبُهُمْ وَإمّا يتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هم تحت عفو الله، إنْ شَاءَ فعـل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبـه ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمن يستحق العقـوبـة ممّن يستحق العفو، حكيم في أفْعاله وأقواله لا إله إلاّ هو ولا ربّ سواه[3].

فائـــدة: قال في «العنـــاية»: وإنَّمـا اشتـد الغضب عليهم مع إخلاصهم، والجهاد فرض كفاية لما قيل إنّه كان على الأنصار خاصة فرضَ عين، لأنَّهم بايعوا النبيَّ ﷺ عليه، ألاَ ترى قول راجزهم في الخندق:

---

(١) ١١٧/ من سورة التوبة.

(٢) ١١٨/ من سورة التوبة.

(٣) ابن كثير ج ٢ ص ٤٠١، ٤٠٢.

نحنُ الـــذيــن بايعـوا محمـــداً على الجهــاد ما بقينــا أبــداً

وهؤلاء من أجلّهم فكان تخلفهم كبيرة.

﴿وَإِمَّا﴾ في الآية، إمّا للشّك بالنسبة إلى المخاطب، أوْ للإبهام بالنسبـة إليه أيضاً، بمعنى أنّه تعالى أبْهم على المخاطبين أمرهم. والمعنى: ليكن أمرهم عندكم بين الرجاء والخوف، والمراد تفويض ذلك إلى إرادته ومشيئته، أوْ للتنويع، أي أمرهم دائر بين هذين الأمْرين[1].

وقال تعالىٰ على لسان نبيه يعقوب عليه السلام:

٦ـ ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُـوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّه لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[2].

أخـرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضيَ الله عنه في قوله: ﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾. قال: من رحمة الله.

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضيَ الله عنه مثله.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله: ﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾ قال: من فرج الله يفرج عنكم الغمّ الذي أنتم فيه[3].

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ج ٨ ص ٣٢٠، ٣٢١.

(٢) ٨٧/ من سورة يوسف.

(٣) الدر المنثور ج ٤ ص ٣٣.

قال القرطبي: قوله تعالى على لسان نبيّه يعقوب: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هذا يدل على أنّه تيقّن حياته، إمّا بالرؤيا، وإمّا بإنْطاق الله تعالى الذئب ـ كما في أول القصة ـ[1] وإمّا بإخبار ملك الموت إيّاه بأنّه لم يقبض رُوحه، وهو أظهر.

والتّحسُّس: طلب الشيء بالحواسّ، فهو تفعل مِن الحِسّ، أي اذْهبُوا إلى هذا الذي طلب منكم أخاكم، واحْتال عليكم في أخْذه فاسْألوا عنه وعن مذهبه.

﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾ أي: لا تقنطوا من فرج الله، قاله ابن زيد، يريد: أنّ المؤمن يرجو فرج الله، والكافر يقنط في الشدة. وقال قتادة والضحاك: من رحمة الله[2]. وقرىء بضم الراء، أي من رحمته التي يحيي بها العباد، وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أبْهم في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾[3][4].

ثم قال: ﴿إنَّه لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: إنّ المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرّخاء.

واعْلم أنّ اليأْس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلاّ إذا اعْتقد الإنسان أنّ الإلٰه غير قادر على الكمال، أوْ غير عالم بجميع المعلومات، أوْ ليس بكريم بل هو بخيل، وكلّ واحد من هذه الثلاثة

---

(١) راجع إن شئت سورة يوسف.

(٢) قرطبي ج ٩ ص ٢٥٢.

(٣) ٨٦/ من سورة يوسف.

(٤) تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٣٠٢، ٣٠٣.

يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلّا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكلّ واحد منها كفر، لأنّ اليأس لا يحصل إلّا لمن كان كافراً والله أعلم[1].

وقال القرطبي: ﴿إنَّه لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُون﴾ دليل على أنَّ القنوط مِنْ الكبائر، وهو اليأس[2].

أمّا المؤمن حقًّا فلا تُقْنِطه المصايب ولاَ الشدائد من رحمة ربّه وتفريجه لكربه[3].

وما أحسن ما قاله الشاعر:

يا صاحب الهمّ إنّ الهمّ منفرجٌ	أبشر بخير فإنّ الفارج اللهُ
الله يحدث بعد العُسْر ميْسرةً	لا تجزعنّ فإنّ الصانع اللهُ
وَإذَا ابْتُليتَ فثِق بالله وارْضَ بهِ	إنّ الذي يكشف البلْوى هو اللهُ

وقال تعالى:

٧ـ ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾[4].

يقول الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: وربّك السّاتر يا محمد على ذنوب عباده بعفوه عنهم إذا تابوا منها، ذو الرَّحمة بهم، لو يؤاخذهم بما كسبوا هؤلاء المعرضين عن آياته إذا ذكّروا بها بما

(١) الرازي ج ١٨ ص ٢٠٣ بتصرف.

(٢) قرطبي ج ٩ ص ٢٥٢.

(٣) المراغي ج ١٣ ص ٣٠.

(٤) ٥٨/ من سورة الكهف.

كسبوا من الذنوب والآثام لعجل لهم العذاب، ولكنه لرحمته بخلقه غير فاعل ذلك بهم إلى ميقاتهم وآجالهم ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ يقول: لكن لهم موعد، وذلك ميقات محل عذابهم، وهو يوم بدر، ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ يقول تعالى ذكره: لن يجد هؤلاء المشركون وإن لم يعجل لهم العذاب في الدنيا من دون الموعد الذي جعلته ميقاتاً لعذابهم ملْجأ يلجؤن إليه، ومنْجَى ينجون منه، يعني أنّهم لا يجدون معقلاً يعتقلون به من عذاب الله(١).

فائـدة: إن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أنّ تأخير العذاب عن الكفار برحمة الله، ومعلوم أنّه لا نصيب لهم في رحمته. فعنه جوابان. أحدهما: [أن] الرحمة هاهنا بمعنى النّعمة، ونعمة الله لا يخْلو منها مؤمن ولا كافر. فأمّا الرَّحمة التي هي الغفران والرّضى، فليس للكافرين فيها نصيب.

والثاني: أنّ رحمة الله محظورة على الكفار يوم القيامة، فأمّا في الدّنيا، فإنّهم ينالون منها العافية والرزق(٢).

ونحو الآية قوله:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾(٣)، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٤) إلى نحو ذلك من الآيات الكثيرة في هذا الباب(٥).

---

(١) طبري ج ١٥ ص ١٧٤.

(٢) زاد المسير في علم التفسير ج ٥ ص ١٦٠.

(٣) ٤٥/ من سورة فاطر.

(٤) ٦/ من سورة الرّعد.

(٥) تفسير المراغي ج ١٥ ص ١٦٩.

وقال تعالى:

٨ـ ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً﴾ قال: مغاضباً لقومه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قال: ظنّ أن لن يأخذه العذاب الذي أصابه.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قال: ظَنَّ أن لنْ نعاقبه بذلك[2]. و ﴿ذَا النُّونِ﴾ هو لقب ليونس بن متّى لابْتلاع النون إيّاه. والنون: الحوت.

وفي حديث عثمان رضي الله عنه أنّه رأى صبيًّا مليحاً فقال: دسِّموا نُونته كي لا تصيبه العين.

﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً﴾ قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير: مغاضباً لربه عزّ وجلّ. واخْتاره الطبري والقتبي واستحسنه المهدوي، وروي عن ابن مسعود.

(١) ٨٧، ٨٨/ من سورة الأنبياء.

(٢) الدر المنثور ج ٤ ص ٣٣٣.

وقـال النحاس: وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح. والمعنى: مغاضباً من أجل ربّه، كما تقول: غضبت لك، أي من أجلك. والمؤمن يغضب لله عزّ وجلّ إذا عصي[1].

﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي نُضَيِّقْ عليه في بطن الحوت. يروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم، واخْتاره ابن جرير.

﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، وكذا روى عن ابن عبّاس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وقتادة[2]. وقوله: ﴿إِنِّي كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِين﴾ يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم. وقيل: في الخروج من غير أن يؤذن له.

وقيل: من الظالمين في دعائي على قومي بالعذاب. وقد دعَا نوح على قومه فلم يؤاخذ. وقال الواسطي في معناه: نزه ربَّه عن الظلم، وأضاف الظلم إلى نفسه اعْترافاً واسْتحقاقاً. ومثل هذا قول آدم وحواء: ﴿ربَّنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾[3] إذ كانا السبب في وضعهما أنفسهما في غير الموضع الذي أنزلاَ فيه.

وروى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعاء ذي النّون في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ

---

(١) قرطبي ج ١١ ص ٣٢٩.

(٢) ابن كثيرج ٣ ص ٢٠١.

(٣) ٢٣ / من سورة الأعراف.

﴿الظَّالِمِينَ﴾ لم يدع به رجل مُسْلم في شَيء قط إلَّا اسْتجيب له».

وقد قيل: إنّه اسْمُ الله الأعظم. ورواه سعد عن النبي ﷺ.

وفي الخبر: في هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه وينجيه كما أنْجاه، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمعنى: أي نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم. وذلك قوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

وهـذا حفظ من الله عزّ وجـلّ لعبده يونس رعَى له حقّ تعبده، وحفظ زمام ما سلف له من الطاعة[2].

وقال الرازي: شرط كل من يلتجىء إلى الله أن يبدأ بالتوحيد، ثم بعده بالتسبيح والثناء، ثم بالإستغفار والإعتراف بالذنب[3].

وقال تعالى:

٩ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ* لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[4].

وقـوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ﴾ أي يداومون على قراءته حتّى صارت سمة لهم وعنواناً كما يشعر به صيغة المضارع، والمراد

(١) ١٤٣، ١٤٤/ من سورة الصافات.

(٢) قرطبي ج ١١ ص ٣٣٤.

(٣) نقلاً من تفسير المراغي ج ١٧ ص ٦٥.

(٤) ٢٩، ٣٠/ من سورة فاطر.

بكتاب الله: القرآن، فقد قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: هذه آية القرّاء.

وأخرج عبد الغني بن سعيد الثّقفي في تفسيره عن ابن عبّاس أنّها نزلت في حصين بن الحارث بن عبد المطلب القرشي، ثم إنّ العبرة بعموم اللفظ، فلذا قال السدي في التّالِين: هم أصحاب رسول الله ﷺ، وقال عطاء: هم المؤمنون أي: عامة، وهو الأرجح، ويدخل الأصحاب دخولاً أوّلياً، وقيل معنى يتلون كتاب الله: يتبعونه فيعملون بما فيه، وكأنّه جعل يتلو من تلاه إذا تبعه، أوْ حمل التلاوة المعروفة على العمل لأنّها ليس فيها كثير نفع دونه.

وقد ورد «ربّ قارىء للقرآن والقرآن يلعنه»[1].

﴿وَأَقَامُوا الصلاة﴾ أي فعلوها في أوقاتها مع كمال أركانها وأذكارها.

﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾ فيه حثّ على الإنفاق كيْفَما تهيأ فإن تهيأ، سرًّا فهو أفضل، وإلاّ فعلانية، ولا يمنعه ظنّه أن يكون رياء، ويمكن أن يراد بالسّر: صدقة النفل، وبالعلانية: صدقة الفرض.

وجملة ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُور﴾ في محل رفع على خبرية «إنّ» كما قال ثعلب وغيره، والمراد بالتجارة: ثواب الطاعة، ومعنى ﴿لَنْ تَبُور﴾ لن تكسد ولن تهلك، وهي صفة للتجارة، والإخبار برجائهم لثواب ما عملوا بمنزلة الوعد بحصول مرجوهم[2].

---

(1) روح المعاني ج ٢٢ ص ١٩٢.

(2) فتح القدير للشوكاني ج ٤ ص ٣٤٨.

وقال العلامة أبو السعود: ﴿لَنْ تَبُور﴾ أي لن تكسد ولن تهلك بالخسران أصلاً، وهي صفة لتجارة، جيء بها للدلالة على أنّها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الرّبح والخسران، لأنّه اشتراء باقٍ بِفَانٍ، والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عدة قطعية بحصول مرجوهم[1]. وقوله: ﴿لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهم﴾ يقول: يوفيهم الله على فعلهم ذلك ثواب أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يقول: وكي يزيدهم على الوفاء من فضله ما هو له أهل[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تعليل لما قبله من التوفية والزيادة عند الكثير، أي غفور لفرطات المطيعين شكور لطاعاتهم، أي مجازيهم عليها أكْمل الجزاء فيوفي هؤلاء أجورهم ويزيدهم من فضله[3].

ويقول صاحب الظلال رحمه الله:

وتلاوة كتاب الله تعني شيئاً آخر غير المرور بكلماته بصوت أوْ بغير صوت. تعني تلاوته عن تدبر ينتهي إلى إدراك وتأثر، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك. ومن ثمّ يتبعها بإقامة الصلاة، وبالإنفاق سرًّا وعلانية من رزق الله.

ثم رجاؤهم بكل هذا ﴿تِجَارَةً لَنْ تَبُور﴾ . . . فهم يعرفون أنّ ما

(١) تفسير أبي السعود ج ٧ ص ١٥٢.
(٢) طبري ج ٢٢ ص ٨٧.
(٣) روح المعاني ج ٢٢ ص ١٩٣.

عنـد الله خير ممّا ينفقون. ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح. يعاملون فيها الله وحده، وهي أربح معاملة، ويتاجرون بها في الآخرة وهي أربح تجارة. . تجارة مؤدية إلى توفيتهم أجورهم، وزيادتهم من فضل الله. . . ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ . . . يغفر التقصير ويشكر الأداء. وشكره ـ تعالى ـ كناية عما يصاحب الشكر عادة من الرضَى وحسن الجزاء. ولكن التعبير يوحي للبشر بشكر المنعم. تشبهاً واسْتحياء. فإذا كان هو يشكر لعباده حسن الأداء، أفلا يشكرون له هم حسْن العطاء؟! [1].

وقال تعالىٰ:

١٠ـ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ* وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾[2].

قال ابن عبّاس: نزلت في أهل مكة، قالوا: يزعم محمد أنّ من عبد الأوثان، وقتل النفس التي حرّم الله ـ لم يغْفر له، فكيف نهاجر ونسلم، وقد عبدنا مع الله إلٰهاً آخر، وقتلنا النفس التي حرّم الله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقـال ابن عمـر: نزلت هذه الآية في عياش بن [أبي] ربيعة، والـوليد بن الوليد، ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فُتِنُوا وعُذِّبُوا

---

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٦٩٩.

(٢) ٥٣ ـ ٥٥/ من سورة الزّمر.

فافْتنوا، فكنّا نقول: لا يقبل الله من هؤلاء صرْفاً ولا عدْلاً أبداً، قوم أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عُذِّبوا به. فنزلت هذه الآيات. وكان عمر كاتباً فكتبها إلى عيّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وأولئك النّفر، فأسْلموا وهاجروا.

وروى البخاري عن ابن عبّاس: أنّ ناساً من أهل الشرك كانوا قد قَتلوا فأكثروا، وزَنَوْا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إنّ الذي [تقول و] تدعو إليه لحسن [لو] تخبرنا [أن] لما عملناه كفارة. فنزلت هذه الآية[1].

وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان بسند لين عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي بن حرب قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه يا محمد كيف تدعوني وأنت تزعم أنّ من قتل أوْ أشرك أوْ زنَى يَلْق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً وأنا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة؟ فأنزل الله: ﴿إلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾[2] فلعلي لا أقدر على هذا فأنزل الله: ﴿إنَّ الله لَا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَ لِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[3] فقال وحشي هذا أرَى بعد مشيئته فلا أدري يغفر لي أمْ لَا فهل غير هذا؟ فأنزل الله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أنْفسهم﴾ الآية. قال وحشي: هذا فهم، فأسْلم، فقال النّاس يا رسول الله إنّا أصْبنا ما أصاب وحْشي، قال: بَلَى للمسلمين عامة.

---

(1) أسباب النزول للواحدي ص ٤٢٧، ٤٢٨.

(2) ٧٠/ من سورة الفرقان.

(3) ٤٨، ١١٦/ من سورة النساء.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية. قد دعَا الله إلى مغفرته من زعم أنّ المسيح هو الله، ومن زعم أنّ المسيح ابن الله، ومن زعم أنّ عزيراً ابن الله، ومن زعم أنّ الله فقير، ومن زعم أنّ يدَ الله مغْلولـة، ومن زعم أنّ الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾[1] ثم دعا إلى توبتـه من هو أعظم قولاً من هؤلاء من قال: ﴿أَنَا رَبكم الْأَعْلَىٰ﴾[2] وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[3] قال ابن عباس رضي الله عنهما: من آيس العباد من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتّى يتوب الله عليه.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال: إنّ إبـليس قال يا ربّ زدنـي، قال: صدورهـم مســاكن لكم وتجْرون منهم مجْرى الدّم، قال يا ربّ زدْني. قال: ﴿اجْلِبْ عَلَيْهِمْ بخَيْلِكَ ورَجلك وشَارِكْهُم فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ فقال آدم عليه السلام: يا رب قد سلطته عليّ وإنّي لا أمتنع منه إلاّ بك. فقال: لا يولد لك ولد إلاّ وكّلت به من يحفظه من قرناء السّوء، قال: يا ربّ زدْني، قال: الحسنة عشراً أوْ أزيد، والسّيّئة واحدة أوْ أمْحوها، قال: يا رب زدني، قال: باب التوبة مفْتوح ما كان الرّوح في الجسد: قال: يا ربّ زدْني قال:

---

(١) ٧٤/ من سورة المائدة.

(٢) ٢٤/ من سورة النازعات.

(٣) ٣٨/ من سورة القصص.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1].

يقول الرازي رحمه الله:

اعْلم أنّ هذه الآية تدلّ على الرَّحمة من وجوه:

الأول: أنّه سمَّى المذنب بالعبد، والعبودية مفسرة بالحاجة والذلّة والمسكنة، واللاَّئق بالرّحيم الكريم إفاضة الخير والرّحمة على المسكين المحتاج.

الثاني: أنّه تعالى أضافهم إلى نفسه بياء الإضافة فقال ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ وشرف الإضافة إليه يفيد الأمْن من العذاب.

الثالث: أنّه تعالى قال: ﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ ومعناه أنّ ضرر تلك الذّنوب ما عاد إليه، بل هو عائد إليهم، فيكفيهم من تلك الذّنوب عوْد مضارّها إليهم.

الرابع: أنّه قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ نهاهم عن القنوط فيكون هذا أمْراً بالرّجاء، والكريم إذا أمر بالرّجاء فلا يليق به إلاّ الكرم.

الخامس: أنّه تعالى قال أوّلاً ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ وكان الألْيق أن يقول لا تقنطوا من رحمتي، لكنّه ترك هذا اللفظ وقال ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ لأنّ قولنا «الله» أعظم أسماء الله وأجلّها، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرّحمة والفضل.

السادس: أنّه قال: ﴿لَا تَقْنَطوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ كان الواجب أن يقول

---

(1) الدر المنثور ج ٥ ص ٣٣٠ ـ ٣٣٢.

إنّه يغفر الذنوب جميعاً، ولكنّه لم يقل ذلك، بلْ أعاد اسْم الله وقرن به لفْظة «إنَّ» المفيدة لأعظم وجوه التّأكيد وكلّ ذلك يدلّ على المبالغة في الوعد بالرحمن.

السابع: أنّه لوْ قال «يغفر الذنوب» لكان المقصود حاصلًا لكنّه أرْدفه باللفظ الدال على التّأكيد فقال «جَميعاً» وهذا أيضاً من المؤكدات.

الثامن: أنّه وصف نفسه بكونه «غَفُوراً»، ولفظ الغفور يفيد المبالغة.

التاسع: أنه وصف نفسه بكونه رحيماً، والرحمة تفيد فائدة على المغفرة، فكان قوله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ إشارة إلى إزالة موجبات العقاب، وقوله ﴿الرحيم﴾ إشارة إلى تحصيل موجبات الرّحمة والثواب.

العاشر: أنّ قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يفيد الحصر، ومعناه: أنّه لا غفور ولا رحيم إلاّ هو، وذلك يفيد الكمال في وصْفه سبحانه بالغفران والرحمة، فهذه الوجوه العشرة مجموعة في هذه الآية، وهي بأسرها دالة على كمال الرحمة والغفران، ونسأل الله تعالى الفوز بها والنّجاة من العقاب بفضله ورحمته[1].

وقال الحافظ ابن كثير:

وهذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأنّ الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة لأنّ الشرك لا يغفر لمن

(١) التفسير الكبير للرّازي ج ٢٧ ص ٤، ٥.

لم يتب منه. وسرد بعض الأحاديث المتعلقة بهذه الآية التي تدّل على سعة رحْمة الله وفضْله، ثم قال: وهذه الأحاديث كلّها دالّة على أنّ المـراد أنّه يغفر جميع الذنوب مع التوبة، قال: ولا يقنطنّ عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإنَّ باب الرحمة واسع، قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[1] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يَعْمَـلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَـهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِـرِ اللهَ يَجِـدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيمـاً﴾[2] وقـال جلّ وعلا في حقّ المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الـدَّرْكِ الأَسْفَـلِ مِنَ النَّـارِ وَلَنْ تَجِـدَ لَهُمْ نَصِيـراً * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾[3] وقال جلّ جلاله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم قال جَلَّتْ عظمته: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[4].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾[5] قال الحسن البصري رحمة الله عليه: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلي التوبة والمغفرة.

والآيات في هذا كثيرة جداً.

---

(١) ١٠٤/ من سورة التوبة.

(٢) ١١٠/ من سورة النساء.

(٣) ١٤٥، ١٤٦/ من سورة النساء.

(٤) ٧٣، ٧٤/ من سورة المائدة.

(٥) ١٠/ من سورة البروج.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم ندم وسأل عابداً من عبّاد بني إسرائيل هلْ له من توبة؟ قال لاَ، فقتله وأكْمل به مائة، ثم سأل عالماً من علمائهم هل له من توبة، فقال ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبدُ الله فيها فقصدها، فأتاه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله عزّ وجلّ أنْ يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيّهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة، وذكر أنه نأى بصدره عند الموت، وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الخيّرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد هذا معنى الحديث[1][2].

---

(١) ابن كثير ج ٤ ص ٦٣، ٦٤ باختصار.

(٢) قلت: ونص الحديث كما في رياض الصالحين «باب التوبة» ص ٢٠، ٢١ عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سِنانٍ الخدريّ رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على راهب، فأتاه فقال: إنّه قتل تسعة وتسعين نفساً فهلْ له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعْلم أهلِ الأرض فدلّ على رجل عالم فقال: إنّه قتل مائة نفسٍ فهلْ له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحُول بينهُ وبين التوبة؟ انطلق إلى أرْض كذا وكذا فإنّ بها أُناساً يعبدون الله تعالَى فاعبُد الله معهم ولا ترجع إلى أرضكَ فإنّها أرْض سوء، فانطلقَ حتّى إذا نصفَ الطريقَ أتاه الموتُ فاختصمتْ فيه ملائكة الرّحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنّه لمْ يعملْ خيراً قطّ، فأتاهم ملك في صورة آدميّ فجعلوه بينهم ـ أي حكماً ـ فقال: قيسوا ما بين الأرْضيْن فإلى أيّتهما كان =

إنّها الرّحمة الواسعة التي تسع كلّ معصية، كائنة ما كانت، وإنّها الـدعـوة للأوبة، دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضـلال، دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله. إنّ الله رحيم بعباده، وهو يعلم ضعفهم وعجزهم، ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخـل كيانهم ومن خارجـه، ويعلم أنّ الشيطان يقعـد لهم كلّ مرْصد، ويأخذ عليهم كلّ طريق، ويجلب عليهم بخيله ورجله، وأنّه جاد كل الـجـدّ في عمله الخبيث! ويعلم أنّ بنـاء هذا المخلوق الإنسـاني بنـاء واه، وأنّه مسكين سرعان ما يسقط إذا أفْلت من يده الحبـل الذي يربطه والعروة التي تشده، وأنّ ما ركِّبَ في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرْعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أوْ هناك، ويوقعه في المعصية وهو ضعيف عن الاحْتفاظ بالتوازن السليم... يعلم الله ـ سبحانه ـ عن هذا المخلوق كلّ هذا فيمدّ له في العون ويوسع له في الرّحمة، ولا يأخذه بمعصيته حتّى يهيىء له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط.

وبعد أن يلج في المعصية، ويسرف في الذنب، ويحسب أنّه قد طرد وانتهَى أمره، ولم يعدْ يقبل ولا يستقبل.

= أدنَى فهـو له، فقاسوا فوجدوه أدنَى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة» متفق عليه.

وفي رواية في الصحيح «فكان إلى القرية الصالحة بشبرٍ فجعل من أهلها»

وفي رواية في الصحيح «فأوحى الله تعالى إلي هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقربَ بشبر فغفر له».

وفي رواية: «فَنأى بصدرِهِ نحوه».

في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط، يسمع نداء الرّحمة الندي اللطيف: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾... وليس بينه ـ وقد أسرف في المعصية، ولج في الذنب، وأبَق عن الحِمَى، وشرد عن الطريق ـ ليس بينه وبين الرَّحمة الندية الرخية، وظلالها السّمحة المحيية، ليس بينه وبين هذا كلّه إلاَّ التوبة، التّوبة وحدها. الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾. الإنابة، والإسلام، والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام... هذا هو كلّ شيء، بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء!

إنّه حساب مباشر بين العبد والرب، وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق. من أراد الأوبة من الشاردين فلْيؤب، ومن أراد الإنابة من الضّالين فلينب، ومن أراد الإستسلام من العصاة فليستسلم، وليأت... ليأت وليدخل فالباب مفتوح. والفيء والظلّ والندى والرّخاء: كلّه وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب! وهيّا. هيّا، قبل فوات الأوان. هيّا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾.

فما هنالك من نصير. هيّا فالوقت غير مضمون. وقد يفصل في الأمر وتغلق الأبواب في أيّة لحظة من لحظات الليل والنهار[1].

---

(١) في ظلا القرآن ج ٧ ص ١٥٠، ١٥١.

ومعنى ﴿أَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي ارْجعوا إليه بالطاعة. والإنابة: الـرّجوع إلى الله بالإخلاص ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي اخضعوا له وأطيعوا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ أي لا تمنعون من عذابه.

وروي من حديث جابر أنّ رسول الله ﷺ قال: «من السعادة أن يطيل الله عمر المرء في الطاعة ويرزقه الإنابة، وإنَّ من الشّقاوة أن يعمل المرء ويعجب بعمله».

ثم قال سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

﴿أَحْسَنَ مَا أُنْـزِلَ﴾ هو القـرآن وكلّه حسن، والمعنى ما قال الحسن: الْتَزموا طاعته واجتنبوا معصيته. وقال السدّي: الأحسن ما أمر الله به في كتابه. وقال ابن زيد: يعني المحكمات، وكِلُوا علْم المتشابه إلى عالمه[1].

والمعنى: اتّبعوا ما أمركم به ربكم في تنزيله، واجْتنبوا ما نهاكم عنه فيه، من قبل أن يأتيكم العذاب فجْأة وأنتم لا تعلمون به حتّى يغشاكم[2] فهيّا قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة وعلى التفريط في حقّ الله، وعلى السخرية بوعد الله: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾....

أوْ تقول إنّ الله كتب عليّ الضلال ولوْ كتب عليّ الهدَى لاهْتديت

---

(١) قرطبي ج ١٥ ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(٢) المراغي ج ٢٤ ص ٢٤.

واتّقيْت: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ . . . وهي علّة لا أصْل لها. فالفرصة ها هي ذي سانحة، ووسائل الهدَى ما تزال حاضرة. وباب التوبة ها هو ذا مفْتوح! ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ . . . .

وهي أمنية لا تنال. فإذا انْتهت هذه الحياة فلا كرّة ولا رجوع، وها أنتم أولاء في دار العمل. وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود. وستسألون عنها مع التبكيت والترذيل[1].

وقال تعالىٰ:

١١ـ ﴿فَسَتَـذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَىٰ اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[2].

قولـه سبحـانـه على لسـان العبـد الصـالح [مؤمن آل فرعون] ﴿فَسَتَـذْكُـرُونَ مَا أَقُـولُ لَكُمْ﴾ أي فستعلمـون صدق ما أمـرتكم به ونهيتكم عنه وتتذكرونه فتندمون حيث لا ينفع الندم، وإني قد بالغْت في نصحكم وتذكيركم بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد.

ثم ابتدأ كلاماً آخر يبين به اطمئنانه إلى ما يجري به القدر ويخبئه له الغيب كما هو دأب المؤمنين الصادقين فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَىٰ اللهِ﴾ أي وأتوكل على ربي وأفوض إليه أمري وأستعين به ليعصمني من كلّ سوء[3].

---

(١) في ظلال القرآن ج ٧ ص ١٥١.

(٢) ٤٤، ٤٥/ من سورة غافر.

(٣) تفسير المراغي ج ٢٤ ص ٧٦.

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ﴾ يقول: إنَّ الله عالم بأمور عباده، ومن المطيع منهم والعاصي له والمستحق جميل الثواب والمستوجب سيىء العقاب. وقوله: ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ يقول تعالى ذكره: فدفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون بإيمانه وتصديق رسوله «موسى» مكروه ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه من العذاب والبلاء فنجاه منه.

وقوله: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ يقول: وحلّ بآل فرعون ووجب عليهم، وعَنَى بآل فرعون في هذا الموضع أتباعه وأهل طاعته من قومه[1].

وعن ابن عبّاس: إنّ هذا المؤمن لمّا أظهر إيمانه قصد فرعون قتله، فهرب إلى جبل فبعث في طلبه ألف رجل، فمنهم من أدركه يصلّي والسّباع حوله، فلمّا همّوا ليأخذوه ذبَّتْ عنهم فأكلتهم، ومنهم من مات في الجبل عطشاً، ومنهم من رجع إلى فرعون خائباً فاتّهمه وقتله وصلبه، فالمراد بآل فرعون: هؤلاء الألف الذين بعثهم إلى قتله، أي فنزل بهم وأصابهم[2].

---

(١) تفسير الطبري ج ٢٤ ص ٤٦.

(٢) روح المعاني للألوسي ج ٢٤ ص ٧٢، ٧٣.

باب: ما جاء في الرّجاء وحسن الظنّ بالله عز وجلّ من السّنّة المطهرة

١ـ عن أنس رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى يا ابْن آدم إنّك ما دعوْتني ورجَوْتَني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أُبالي، يا ابْن آدم لوْ بلغت ذُنُوبُكَ عنانَ السَّماء ثم اسْتغفرتني غفرتُ لك، يا ابْنَ آدم لو أتيتني بقُراب الأرض خطايَا، ثم لقيتني لا تُشرِكُ بي شيئاً لأتيتُك بقُرابِها مغفرة» رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

٢ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قال: قال الله عزّ وجلّ: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني . . .» الحديث. رواه البخاري ومسلم.

٣ـ وعن أبي هريرة ـ أيضاً ـ عن النبي ﷺ قال: حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ العبادة. رواه أبو داود وابن حبّان في صحيحه واللفظ لهما والترمذي والحاكم ولفظهما قال: «إنّ حُسْنَ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ عبادة الله».

٤ـ وعن جابر رضي الله عنه أنّه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقولُ: لا يمُوتَنَّ أحدُكم إلاَّ وهُو يُحسنُ الظنَّ بالله عزّ وجلّ. رواه مُسلم وأبو داود وابن ماجة[1] ورواه أيضاً البيهقي[2].

---

(١) الأحاديث من ١ـ٤ نقلاً من الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩.

(٢) ج ٣ ص ٣٧٨.

فقوله ﷺ عن الله عزّ وجلّ: «يا ابن آدم إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي» فهذا في مقدور الله ولا يعجزه أحد، فرحمته وسعت كلّ شيء وهو القائل: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَ. لِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1] وهو القائل ـ أيضاً ـ لمن دعا معه آلهة أخرى، ولمن قال إنّ عيسى ابن الله، ولمن قال إنّ العزير ابن الله، يقول الله لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2] والقرآن مليء بذلك، وكذلك سنّة المصطفى ﷺ. ثم قال: «يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السّماء ثم استغفرتني غفرت لك» فهي فرصة عظيمة لمن قَصَّرَ في حقّ الله فالباب لم يسدّ وما زال مفتوحاً لكل من أراد أن يتوب ويرجع وينيب إلى الله عزّ وجلّ، فما عليه فقط إلّا أن يتضرع إلى الله سبحانه ويستغفره ويطلب منه المغفرة ويعزم على ألّا يعود إلى معصيته قط.

«يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

ومعنى «قُراب الأرْض» بكسر القاف وضمها أشهر: هو ما يقارب ملأها. حقاً إنّ الشرك لظلم عظيم، فمن أتى الله بكلّ المعاصي ولم يشرك معه فهو ممن تشمله مغفرة الله ـ بمشيئته ـ حتّى ولو عذّب على معاصيه فإنّه لا يخلّد بل سيكون مصيره في النهاية الاستقرار في جنّة الله. بخلاف المشرك فإنّه لا تناله مغفرة الله وهو بعيد كلّ البعد عنها، فها هو المولى سبحانه يقول لنبيه ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ

---

(١) ٤٨، ١١٦/ من سورة النساء.

(٢) ٧٤/ من سورة المائدة.

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

وأما حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: قال الله عزّ وجلّ: «أنا عند ظنّ عبدي بي» ونصّه كما جاء في صحيح البخاري «يقول الله تعالى: أنَا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقـرّب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرْوَلَة»[2].

ومعنى «أنا عند ظن عبدي بي» أي قادر على أن أعمل به ما ظنَّ أنّي عامل به، وقال الكرماني: وفي السياق إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخوف، وكأنَّه أخذه من جهة التسوية، فإنَّ العاقل إذا سمع ذلك لا يعدل إلى ظن إيقاع الوعيد وهو جانب الخوف لأنَّه لا يختاره لنفسه بل يعدل إلى ظنَّ وقوع الوعد وهو جانب الرّجاء، وهو كما قال أهل التحقيق: مقيد بالمحتضر، ويؤيد ذلك حديث «لا يموتن أحدكم إلاَّ وهو يحسن الظن بالله». - وسيأتي - .

وقال ابن أبي جمرة: المراد بالظنَّ هنا العلم وهو كقوله: ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إلاَّ إلَيْهِ﴾[3] وقال القرطبي في المفهم: قيل: «معنى ظنَّ عبدي بي» ظنَّ الإجابة عند الدّعاء وظنَّ القبول عند التوبة، وظنَّ المغفـرة عنـد الإستغفـار، وظنّ المجازاة عند فعْل العبادة بشروطها تمسكاً بصادق وعْده، قال ويؤيده قوله في الحديث الآخر: «ادْعُوا الله

---

(١) ٦٥/ من سورة الزّمر.

(٢) البخاري ج ١٣ ص ٣٨٤ فتح.

(٣) ١١٨/ من سورة التوبة.

وأنتم موقنون بالإجابة» قال: ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام بما عليه مُوقناً بأنّ الله يقبله ويغفر له لأنّه وعَدَ بذلك وهو لا يخلف الميعاد، فإن اعْتقد أوْ ظنَّ أنّ الله لا يقبلها وأنّها لا تنفعه فهذا هو اليأس من رحمة الله وهو من الكبائر، ومن مات على ذلك وكّل إلى ما ظنّ كما جاء في بعض الحديث المذكور «فليظنَّ بي عبدي ما شاء» قال: وأمّا ظنَّ المغفرة مع الإصرار فذلك محْض الجهل والغرة وهو يجرّ إلى مذهب المرجئة[1].

وأمّا حديث جابر «لا يموتن أحدكم إلاّ وهو يحسن الظنّ بالله عزّ وجلّ» قال العلماء: هذا تحذير من القنوط وحثّ على الرَّجاء عند الخاتمة، ومعنى «حسْن الظنّ بالله تعالى» أن يظنّ أنّه يرحمه ويعْفو عنه، قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفاً راجياً، ويكونان سواء. وقيل: يكون الخوف أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غلب الرّجاء أوْ محضه، لأنّ مقصود الخوف الإنكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص على الإكْثار من الطاعات والأعمال وقد تعذر ذلك أوْ معظمه في هذا الحال فاسْتحب إحْسان الظنّ المتضمن للإفتقار إلى الله تعالى والإذْعان له، ويؤيده قوله ﷺ: «يبعث كلّ عبد على ما مات عليه». قال العلماء، معناه: يبعث على الحالة التي مات عليها[2].

وقوله: «لا يموتَنَّ أحدكم الخ» أي لا يموت أحدكم في حال من الأحوال إلاّ في هذه الحالة، وهي حسْن الظنّ بالله بأن يغفر له، فالنهي وإن كان في الظاهر عن الموت وليس إليه ذلك حتّى ينتهي،

---

(١) فتح الباري ج ١٣ ص ٣٨٥، ٣٨٦.

(٢) شرح النووي على صحيح مُسْلم ج ١٧ ص ٢٠٩، ٢١٠.

لكن في الحقيقة عن حالة ينقطع عندها الرجاء لسوء العمل كيْلا يصادفه الموت عليها، قاله القاري.

وقال في مرْقاة الصعود: زاد ابن أبي الدنيا في حسْن الظنّ: فإنّ قوماً قد أرداهم سوء ظنّهم بالله تعالى فقال الله في حقهم: ﴿وَذَالِكُم ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1] قال الخطابي: إنّما يحسن الظنّ من حَسُنَ عمله، فكأنّه قال أحْسِنُوا أعمالكم يحسن ظنّكم باللهِ، فمن ساء عمله ساء ظنّه، وقد يكون أيضاً حسْن الظنّ بالله من ناحية [جهة] الرجاء وتأميل العفو.

وقال الرافعي في تاريخ قزْوين: يجوز أن يريد به الترغيب في التوبة والخروج من المظالم، فإنّه إذا فعل ذلك حَسُنَ ظنّه ورجَا الرّحمة.

وقال النووي في شرح المهذب: معنى تحسين الظنّ بالله تعالى أن يظنَّ أنّ الله تعالى يرحمه ويرجو ذلك بتدبر الآيات والأحاديث الواردة في كرم الله تعالى وعفْوه وما وعد به أهل التوحيد وما سيبدلهم من الرّحمة يوم القيامة كما قال سبحانه وتعالى في الحديث الصحيح: «أنا عند ظنِّ عبدي بي» هذا هو الصواب في معنى الحديث وهو الذي قاله جمهور العلماء[2].

وعن ثابت البُنَاني قال: مرِضَ رجلٌ من الأنْصار، فجعل رسولُ الله ﷺ يعُودُهُ، فوافقهُ وهو في الموت، فسلّم عليه، وقال: كيف تجدُكَ؟ قال: بخير أرْجو الله، وأخافُ ذُنُوبي، فقال رسولُ اللهِ ﷺ:

(١) ٢٣/ من سورة فصّلت.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ٨ ص ٣٨٢، ٣٨٣.

«لا يجتمعـان في قلْب العبد في مثل هذا الموْطن إلَّا أعْطاهُ اللهُ ما يَرْجُو، وآمنَهُ ممّا يخاف»[1].

وقال ابنُ عبّاس: إذا رأيتم الرَّجُلَ بالموت، فبشّروهُ ليَلْقَى ربَّهُ وهُو حَسَنُ الظنِّ به، وإذا كان حيًّا، فخوِّفُوه بربِّه عزّ وجلّ. وقالُ معْتمر بن سليمان: قال أبي عند موته: يا مُعْتمر حدِّثْني بالرُّخَص لعلِّي ألْقَى الله وأنَا حَسَنُ الظّنِّ به[2].

٥ـ وعن حيّان أبي النَّضْر قال: خرجتُ عائداً ليزيد بن الأسود فلقيتُ واثلةَ بن الأسْقع وهو يرُيدُ عيادتَهُ فدخلْنا عليه، فلمّا رأى واثلَةَ بسطَ يده وجعـل يُشير إليه، فأقبـل واثلَةُ حتَّى جلس، فأخذ يزيدُ بكفَّيْ واثلَةَ فجعلهُمَا على وجهه، فقال له واثلَةُ: كيف ظَنُّكَ بالله؟ قال: ظَنِّي بالله والله حَسَنٌ. قال: فأبْشر. فإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: قال الله جلّ وعلاَ: أنا عند ظنّ عبدي بي، إنْ ظَنَّ خيْراً فلَهُ، وإنْ ظنَّ شَرًّا فلَهُ. رواه أحمد[3] وابن حبّان في صحيحه والبيهقي.

٦ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: والذي لا إلَه غيرُه لا يُحسِنُ عبْدٌ بالله الظنّ إلَّا أعْطاه ظنَّهُ، وذلك بأنَّ الخيْر في يده. رواه الطبراني موقوفاً، ورواته رواة الصحيح، إلَّا أنّ الأعمش لم يدرك ابن مسعود[4].

٧ـ وعن أبي هريرة أوْ أبي سعيد الخـدري رضي الله عنهمـا ـ شك

(١) ذكره صاحب شرح السنّة الإمام البغوي ج ٥ ص ٢٧٤، ٢٧٥.
(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧٥.
(٣) ورجال أحمد ثقات [مجمع الزوائد ج ٢ ص ٣٢١].
(٤) الحديثان ٥،٦ من الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٦٩، ٢٧٠.

الراوي ولا يضر الشك في عيْن الصحابي لأنَّهم كُلُّهم عدول ـ قال: لمّا كان يوم غزوة تبوك أصابَ الناس مجاعة فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[1] فأكلنا وادَّهنَّا، فقال رسول الله ﷺ: «افْعلوا» فجاء عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إنْ فعلتَ قَلَّ الظهرُ[2] ولكن ادْعُهُم بفضل أزْوادهم، ثمَّ ادْعُ الله لهم عليها بالبركة لعلّ الله أن يجعل في ذلك البركة. فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فدعا بنطع[3] فبسطه، ثم دعَا بفضل أزْوادهم، فجعل الرجل يجيء بكفّ ذُرة، ويجيء الآخر بكفّ تمْر، ويجيء الآخر بكسرةٍ حتّى اجتمع على النّطع من ذلك شيء يسيرٌ، فدعا رسول الله بالبركة، ثم قال: «خذوا في اوْعيتكم» فأخذوا في أوْعيتهم حتّى ما تركوا في العسكر وعاء إلّا ملؤوه، وأكلوا حتّى شبعوا وفضل فضْلة فقال رسول الله ﷺ: «أشهدُ أن لا إلَـه إلّا الله وأنّي رسول الله لا يلْقَى الله بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيُحجِب عن الجنّة» رواه مُسْلم.

٨ـ وعن عِتْبان بن مالك رضيَ الله عنه وهو ممّن شهدَ بدراً قال: كنتُ أُصَلِّي لقومي بني سالم وكان يحُولُ بيني وبينهم وادٍ إذا جاءت الأمطارُ فيشُقُّ علَيَّ اجْتيازهُ قِبَل مسجدهم، فجئتُ رسول الله ﷺ فقلت له: إنّي أنكرتُ بصري وإنّ الوادِي الذي بيني وبين قومي يسيلُ إذا جاءت الأمطار، فيشقّ عليّ اجتيازُهُ فوددت أنّك تأتي فتصلي في بيتي مكاناً أتخذُه مصلًّى، فقال رسول الله ﷺ: «سأفعل» فغدا رسول الله وأبو بكر

(١) جمع ناضح: البعير الذي يسقى عليه.

(٢) الدواب.

(٣) بُساط متّخذ من أديم.

رضي الله عنه بعدما اشْتَدّ النّهار، واسْتأذن رسول الله ﷺ فأذنتُ له، فلم يجلس حتّى قال: «أين تُحبَّ أن أُصلّي من بيتك؟» فأشرتُ له إلى المكان الذي أُحبّ أن يصلي فيه، فقام رسول الله ﷺ فكبَّر وصفَفْنا وراءه، فصلَّى ركعتين ثم سلّم وسلّمنا حين سلّم، فحبسْتُهُ على خزيرَةٍ[1] تصنع له، فسمع أهْل الدّار أنّ رسول الله ﷺ في بيتي، فثابَ رجالٌ منهم حتّى أكثر الرِّجالُ في البيت، فقال رجلٌ: ما فعل مالـكٌ لا أراه! فقال رجلٌ: ذلك منافقٌ لا يحبّ الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقلْ ذلك، ألاَ تراهُ قال: لا إلَه إلاَّ الله يبتغي بذلك وجْه الله تعالى» فقال: الله ورسوله أعلم، أما نحنُ فوالله ما نرىَ ودَّهُ ولاَ حديثَهُ إلاَّ إلَى المنافقين! فقال رسول الله ﷺ: «فإنّ الله قدْ حرّمَ على النَّار من قال لا إله إلاَّ الله يبتغي بذلك وجْه الله». متفق عليه.

٩ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنَّا قعوداً مع رسول الله ﷺ معنا أبو بكر وعُمر رضي الله عنهما في نفر، فقامَ رسول الله ﷺ من بين أظهُرنا، فأبْطأ علينا فخشينا أن يُقْتطع دوننا ففزعنا فقمنا، فكُنتُ أوّل من فَزَعَ، فخرجتُ أبتغي رسول الله ﷺ حتَّى أتيتُ حائطاً للأنصار ـ وذكر الحديث بطوله إلى قوله فقال رسول الله ﷺ: «إذْهب فمن لقيتَ وراءَ هذا الحائط يشهدُ أن لا إله إلاَّ الله مُسْتيقناً بها قلبه فبشِّرْهُ بالجنّة» رواه مُسْلم.

١٠ـ وعنه عن النبي ﷺ فيما يحْكي عن ربّه تبارك وتعالى قال: «أذْنب ذنبـاً عبْدٌ فقال اللّهم اغْفر لي ذنْبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذْنب عبدي ذنباً فعلم أنّ له ربَّا يغفرُ الذّنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذْنب

---

(١) دقيقٌ يطبخُ بشحم.

فقال: أي ربِّ اغْفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنبَ عبدي ذنباً فعلم أنّ له ربًّا يغفر الذّنب ويأخذُ بالذّنب ثم عادَ فأذنب فقال: أي ربِّ اغْفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنبَ عبدي ذنْباً فعلمَ أنّ له ربًّا يغفر الذّنب ويأخذ بالذنب، قد غفرتُ لعبدي فلْيفعلْ ما شاء» متفق عليه.

وقوله تعالى: «فلْيفعل ما شاء» أي ما دام يفعلُ هكذا يُذْنبُ ويتوبُ أغْفرُ له فإنّ التوبة تهدم ما قبلها.

١١ـ وعن مُعاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رِدْف النبي ﷺ على حِمار فقال: «يا مُعاذُ هل تدري ما حقُّ الله على عباده، وما حقُّ العباد علَى الله؟» قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنَّ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقّ العباد على الله أن لا يعذّب من لا يشرك به شيئاً» فقلت يا رسول الله أفلا أُبشرُ النّاس؟ قال «لا تبشرهم فيتّكلوا». متفق عليه.

١٢ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدْنَي المؤمن يومَ القيامة من ربِّه حتّى يضع كنفهُ عليه فيقرِّرُه بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنْب كذا؟ أتعرفُ ذنبَ كذا؟ فيقول: ربِّ أعرف، قال: فإنِّي قدْ سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيُعْطَى صحيفة حسناته» متفق عليه.

١٣ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ رجلاً أصاب من امْرأةٍ قُبْلةٍ فأتى النبيّ ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى: ﴿**وأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾[1] فقال الرجل: ألي هذا يا

---

(١) ١١٤/ من سورة هود.

رسول الله؟ قال: «لجميع أمّتي كلّهم». متفق عليه.

١٤ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله أصبْتُ حدًّا فأقمهُ عليَّ، وحضرت الصلاةُ، فصلّى مع رسول الله ﷺ، فلما قَضَى الصلاةَ، قال: يا رسول الله إنّي أصبْتُ حداً فأقمْ فيَّ كتاب الله، قال: «هل حضرتَ معنا الصلاةَ؟» قال: نعم. قال: «قد غُفِرَ لك» متفق عليه.

وقوله «أصبْتُ حدًّا» معناه: معصية توجب التعزير، وليس المرادُ الحدَّ الشرعيّ الحقيقيّ كحدّ الزّنا والخمر وغيرهما فإنّ هذه الحدود لا تسقط بالصلاة ولا يجوز للإمام تركها.

١٥ـ وعن أبي نجيح عمرو بن عَبَسةَ «بفتح العين والباء» السُّلميّ رضي الله عنه قال: كنتُ وأنا في الجاهلية أظنُّ أنّ النّاس على ضلالةٍ وأنّهم ليسوا على شيْء وهم يعبدون الأوثان، فسمعتُ برجلٍ بمكة يخبر أخباراً، فقعدتُ على راحلتي، فقدمتُ عليه فإذا رسول الله ﷺ مُستخفياً جُرءَاءُ عليه قومه، فتلطَّفْتُ حتَّى دخلتُ عليه بمكة، فقلتُ له: ما أنتَ؟ قال: «أنا نبيٌّ» قلت: وما نبيّ؟ قال: «أرسلني الله» قلت: بأيِّ شَيْء أرْسلك؟ قال: «أرْسلني بصلة الأرْحام وكسْر الأوْثانِ وأن يُوَحَّد اللهَ لا يُشْرك به شَيْء» قلت: فمن معكَ على هذا؟ قال: «حُرٌّ وعبْدٌ» ومعه يومئذ أبو بكر وبلالٌ رضيَ الله عنهما، قلتُ: إنّي مُتَّبعُكَ، قال: «إنّكَ لنْ تستطيع ذلك يومَك هذا، ألا ترى حالي وحال النّاس؟ ولكن ارْجع إلى أهلك فإذا سمعتَ بي قد ظهرت فأْتِني» قال: فذهبتُ إلى أهلي وقدَم رسول الله ﷺ المدينة وكنتُ في أهلي، فجعلتُ أتخبّرُ الأخبار وأسألُ النّاس حين قدَم المدينة حتّى قدمَ نفرٌ

من أهلي المـدينة، فقلتُ: ما فعلَ هذا الرّجلُ الذي قدم المدينة؟ فقـالـوا: النَّاسُ إليه سراعٌ وقد أرادَ قومه قتْله، فلم يستطيعُوا ذلك، فقـدمتُ المدينة فدخلتُ عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: «نعم أنتَ الذي لقيتني بمكة» قال فقلتُ: يا رسول الله أخبرني عمّا علّمك الله وأجهله، أخبرني عن الصلاة؟ قال: «صلِّ صلاة الصبح ثم اقْصر عن الصلاة حتى ترتفع الشمس قدرَ رُمْح، فإنّها تطلعُ حين تطلعُ بين قرني شيطان، وحينئـذٍ يسجـد لها الكفار، ثم صلّ فإنّ الصلاة مشهودة محضورة حتّى يستقلّ الظلُّ بالرُّمح ثم اقْصُر عن الصلاة فإنّه حينئـذٍ تسجـرُ جهنم، فإذا أقبـلَ الفيءُ فصـلِّ فإنّ الصلاة مشهودةً محضـورة حتَّى تصلّي العصـر، ثم اقْصُـر عن الصـلاة حتّى تغْربَ الشمسُ فإنّها تغربُ بيْن قَرْنَيْ شيطانٍ وحينئذٍ يسجد لها الكفارُ» قال فقلت: يا نبيَّ الله فالوضوء حدِّثْني عنهُ؟ فقال: «ما منكم رجلٌ يقرِّبُ وضـــوءَه فيتمضمضُ ويستنشقُ فينْتثـرُ إلاَّ خرت خطايا وجْهـــه وفيه وخياشيمه، ثمَّ إذا غسل وجهه كما أمر الله إلاَّ خرّت خطايا وجهه من أطراف لِحْيته مع الماء، ثم يغسل يديْه إلى المرفقين إلاَّ خرّت خطايا يديه من أناملِهِ مع الماء، ثم يمسحُ رأْسهُ إلاَّ خرّتْ خطايا رأْسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلاَّ خرّت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلّى فحمد الله تعالى وأثْنَى عليه ومجّـده بالـذي هو لَهُ أهْلٌ وفرغَ قلْبهُ للهِ تعالى إلاَّ انْصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدتهُ أمُّه».

فحدث عمرو بن عبسة بهذا الحديث أبا أُمامة صاحبَ رسول الله ﷺ، فقال له أبو أمامة يا عمرو بن عبسة انظر ما تقولُ في مقامٍ واحدٍ يُعْـطى هذا الـرّجـل؟ فقال عمرو: يا أبا أمامة لقد كبِرت سنّي ورقَّ

عظمي واقْتربَ أجلي وما بي حاجة أنْ أكْذبَ على الله تعالى ولاَ علَى رسول الله ﷺ لوْ لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلاَّ مرّةً أوْ مرّتيْن أوْ ثلاثاً، حتّى عدّ سبْع مراتٍ، ما حدّثت أبداً به ولكنّي سمعته أكْثر من ذلك» رواه مُسْلم.

١٦ـ وعن أبي موسَى الأشعريّ رضيَ الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله تعالى رحْمةَ أُمَّةٍ قبضَ نبيَّها قَبْلها فجعله لها فرطاً وسلفاً بيْن يديها، وإذا أراد هلكةَ أُمَّةٍ عذّبها ونبيُّها حيٌّ فأهلكها وهو حيٌّ ينظر، فأقرّ عينهُ بهلاكها حين كذّبوهُ وعصوا أمْرهُ» رواه مُسْلم[1].

وفي مروج الذّهب عن فقير بن مسكين قال: دخلت على الشافعي أعوده في مرض موته، فقلت له كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: أصبحت من الدّنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ولكأس المنيّة شارباً، ولا أدري إلى الجنّة تسير روحي فأهنيها أمْ إلى النّار فأعزّيها وأنْشأ يقول:

ولما قَسَا قلْبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجاء منّي لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلمّا قرنته ... بعفوك ربّي كان عفوك أعظما

وما يعزى للرافعي قوله:

إذا أمْسَى فراشي من تراب ... وصرت مجاور الربّ الرحيم
فهنوني أحبائي وقولوا ... لك البشرى قدمت على كريم[2]

---

(١) الأحاديث من ٧ـ ١٦ نقلاً من رياض الصالحين ص ١٩٤ ـ ٢٠٥ باب الرجاء.

(٢) من حاشية مصطفى محمد عمارة على رياض الصالحين ص ٢٠٦ آخر باب الرجاء.

باب: من أحبَّ لقاء الله تعالى أحبَّ الله لقاءه

١ـ عن عُبادة بن الصّامت أنّ نبيَّ الله ﷺ قال: «منْ أحبَّ لِقاء اللهِ أحبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، ومنْ كرِهَ لِقَاءَ الله كرِهَ اللهُ لِقاءَه» رواه مُسْلم(١).

٢ـ وعن عائشة قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «منْ أحبَّ لِقَاء اللهِ أحبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، ومنْ كرِهَ لِقَاءَ اللهِ كرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ، فقلتُ يا نَبِيَّ اللهِ أكراهيةَ الموتِ فكُلُّنَا نكرَهُ الموتَ، فقالَ ليس كذلك، ولٰكنَّ المؤمنَ إذا بُشِّرَ برحْمة الله ورِضْوانه وجنَّته أحبَّ لِقَاءَ اللهِ فأحبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وإنّ الكافر إذا بُشِّرَ بعذاب الله وسخطه كرِهَ لقَاء الله وكره الله لقَاءه». رواه مُسْلم(٢).

٣ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحبَّ لِقَاء الله أحبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، ومن كرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ، قال فأتيْتُ عائشةَ فقلتُ يا أُمّ المؤمنين: سمعتُ أبا هريرة يذكُر عن رسول الله ﷺ حديثاً إنْ كان كذلك فقد هلكْنا، فقالت: إنّ الهالكَ من هلك بقوْل رسول الله ﷺ، وما ذاك؟ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحبَّ لِقاء الله أحبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، ومن كَرِهَ لِقَاء الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ، وليس منّا أحدٌ إلّا وهو يكْرهُ الموت، فقالت: قدْ قالهُ رسول الله ﷺ وليْس بالذي تذْهبُ إليه،

---

(١) ج ١٧ ص ٩ نووي.

(٢) ج ١٧ ص ٩ نووي.

ولكن إذا شَخصَ البصرُ وحشْرجَ الصّدْرُ واقْشعرّ الجلْدُ وتشنّجتِ الأصابعُ فعند ذلك من أحبَّ لِقاء الله أحبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، ومن كَرِهَ لِقَاء الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ». رواه مُسْلم[1].

قال النَّووي رحمه الله:

حديث عائشة يفسّر آخره أوّله، ويبيّن المراد بباقي الأحاديث المطلقة «من أحبَّ لقاء الله... ومن كره لقاء الله..»، ومعنى الحديث: أنَّ الكراهة المعتبرة هي التي تكون عند النزع في حالة لا تقبل توبته ولا غيرها، فحينئذٍ يبشر كلّ إنسان بما هو صائر إليه وما أعِدَّ له ويكشف له عن ذلك، فأهل السعادة يحبون الموت ولقاء الله لينتقلوا إلى ما أعدّ لهم ويحب الله لقاءهم، أي: فيجزل لهم العطاء والكرامة، وأهْل الشقاوة يكرهون لقاءه لما علموا من سوء ما ينتقلون إليه، ويكره الله لقاءهم، أي يبعدهم عن رحمته وكرامته، ولا يريد ذلك بهم، وهذا معنَى كراهته سبحانه لقاءهم، وليس معنَى الحديث أنَّ سبب كراهة الله تعالى لقاءهم كراهتهم ذلك، ولاَ أنَّ حبّه لقَاء الآخرين حبّهم ذلك بلْ هو صفة لهم[2].

وفي شرح السنّة[3]: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيَّتُها النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾[4] أي: المُصَدِّقَةُ بالثَّواب.

قال الحسنُ: إذا أراد الله قبْضَها، اطْمأنَّتْ إلى الله، واطْمأنّ الله

---

(1) ج ١٧ ص ١٠، ١١.

(2) شرح النووي على صحيح مُسْلم ج ١٧ ص ٩ - ١١.

(3) ج ٥ ص ٢٦٢.

(4) ٢٧/ من سورة الفجر.

إليه، ورضيَ عنِ الله، ورضيَ الله عنه، فأمر بقبض رُوحها، وأدْخله الجنة، وجعله من عباده الصالحين.

٤ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: جاء مَلَكُ الموتِ إلى موسَى، فقال له: أجبْ ربَّك، قال: فلطم مُوسى عيْن ملَكِ الموت، فَفَقأها، قال: فرجع المَلَكُ إلى الله عزّ وجلّ، فقال: إنَّكَ أرْسلْتني إلى عبْدٍ لكَ لا يُريد الموت، وقد فقأ عيْني، قال: فردّ إليه عيْنه، قال: ارجع إلى عبدي، فقُلْ له: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متْن ثَوْرٍ، فما وارتْ يدك من شَعْرةٍ، فإنك تعيش بها سنة، قال: ثمَّ مَهْ؟ قال: ثمّ تموت، قال: فالآن من قريب، قال: ربّ أدْنني من الأرض المقدسة رمْية بحجر، قال رسول الله ﷺ: «لوْ أنّي عنده لأرَيْتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر» متفق عليه.

وهذا الحديث يجب على المرْء المسْلم الإيمانُ به على ما جاء به من غير أن يعتبره بما جرَى عليه عُرْفُ البشر، فيقع في الارْتياب، لأنّه أمْرٌ مصْدرُهُ عن قدْرة الله سبحانه وتعالى وحُكْمه، وهو مجادلة بين ملَكٍ كريم، ونبيّ كليم، كلٌ واحدٍ منهما مخصوص بصفة خرج بها عن حكم عَوامّ البشر، ومجاري عاداتهم في المعنَى الذي خُصَّ به، فلا يُعْتبر حالهما بحال غيرهما، وقد اصْطفى الله سبحانه وتعالى موسَى برسالاته وبكلامه، وأيّده بالآيات الظاهرة، والمعجزات الباهرة كاليد البيضاء، والعصَا، وانْفلاق البحر، وغيرها ممّا نطق به القرآن، ودلّت عليه الآثار، وكلّ ذلك إكْرامٌ من الله عزّ وجلّ أكْرمه بها، فلما دنَت وفاته وهو بشرٌ يكره الموتَ طبْعاً، ويجد ألَمهُ حِسًّا، لطُفَ له بأن لم يُفاجئه به بغْتَةً، ولم يأمر الملك الموكَّل به أن يأخذه به قهراً، لكن أرْسله إليه منذراً بالموت، وأمره بالتعرض له على سبيل الامْتحان في

صورة بشر، فلما رآه موسَى اسْتنكر شأنه، واسْتوعر مكانه، فاحْتجز منه دفْعاً عن نفسه بما كان من صكّه إيّاهُ، فأتَى ذلكَ على عينه التي رُكِّبَتْ في الصورة البشرية التي جاءه فيها دون صورة الملكية التي هو مجبولٌ عليها، وقد كان في طبع موسَى ﷺ حَميَّةٌ وحِدَّةٌ على ما قصّ الله علينا من أمْره في كتابه من وكْزِهِ القبطيّ، وإلْقَائه الألواح، وأخْذه برأس أخيه يجُرُّهُ إليه.

وقد جرت سُنَّة الدين بدفع من قصدك بسوء، كما جاء في الحديث «من اطّلع في بيت قوم بغير إذنهم حلَّ لهم أنْ يفْقؤوا عيْنَه»[1] فلما نظر موسَى إلى شخص في صورة بشر، هجَم عليه يُريدُ نفسه، ويقصد هلاكه، وهو لا يثبته، ولا يعرفه أنّه رسولُ ربّه دفعه عن نفسه، فكان فيه ذهابُ عينه، فلما عاد الملكُ إلى ربّه، وردّ الله إليه عينه، وأعاده رسولاً إليه ليُعلمَ نبيّ الله عليه السلام إذا رأى صحّة عينه المفْقوءة أنه رسول الله بعثه لقبض روحه، فاسْتَسْلم حينئذ لأمره، وطاب نفساً بقضائه، وكلّ ذلك رفقٌ من الله عزّ وجلّ، ولُطْف منه في تسهيل ما لم يكن بُدٌّ من لقائه، والانْقياد لمورد قضائه، وما أشبه معنَى «ما تردّدْتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس الموت» يكره الموت بترديده رسوله ملك الموت إلى نبيّه موسَى عليه السلام، فيما كرهه من نزول الموت به[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) من شرح السنّة للبغوي ج ٥ ص ٢٦٦ - ٢٦٨.

باب: جعل الله الرّحمة مائة جزْء

عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «جعلَ اللهُ الرَّحمةَ في مائة جُزْء، فأمْسك عندهُ تسْعةً وتسعين جُزْءاً، وأنزل في الأرض جُزءاً واحداً، فمن ذلك الجُزء تتراحَمُ الخلق، حتَّى ترفع الفرسُ حافِرهَا عن وَلدِها خَشْيَة أن تُصيبَه» رواه البخاري[1].

وعند البخاري ـ أيضاً ـ في الرقاق «إنّ الله خلق الرّحمة يوم خلقها مائة رحمة».

ولمُسْلم من رواية عطاء عن أبي هريرة: «إنّ للهِ مائة رحمة» وله من حديث سلمان: «إنّ الله خلق مائة رحمة يوم خلق السماوات والأرض، كلّ رحْمة طباق ما بين السماء والأرض».

وقال القرطبي: يجوز أن يكون معنَى «خلق» اخْترع وأوْجد، ويجوز أن يكون بمعنَى قدَّر، وقد ورد خلق بمعنى قدر في لغة العرب، فيكون المعنَى إنّ الله أظهر تقديره لذلك يوم أظهر تقدير السماوات والأرض.

وقوله: «كل رحمة تسع طباق الأرض» المراد بها التعظيم والتكثير، وقد ورد التعظيم بهذا اللفظ في اللّغة والشّرع كثيراً.

---

(١) ج ١٠ ص ٤٣١ فتح.

«فأمسَك عنده تسْعة وتسعين جُزءاً» وفي رواية عطاء «وأخّر عنده تسْعة وتسعين رحْمة» وفي رواية العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عند مُسلم «وخبأ عنده مائة إلاّ واحدة».

وقوله «وأنزل في الأرض جزءاً واحداً» في رواية المقبري: «وأرسل في خلقه كلّهم رحمة» وفي رواية عطاء «أنزل منها رحمة واحدة بين الجنّ والإنس والبهائم» وفي حديث سلمان «فجعل منها في الأرض واحدة».

«فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتّى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشْية أن تصيبه» في رواية عطاء «فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها» وفي حديث سلْمان «فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض» قال ابن أبي جمرة: خصّ الفرس بالذكر لأنّها أشدّ الحيوان المألوف الذي يعاين المخاطبون حركته مع ولده، ولما في الفرس من الخفّة والسرعة في التنقل. ومع ذلك تتجنب أن يصل الضرر منها إلى ولدها. ووقع في حديث سلمان عند مُسْلم في آخره من الزيادة «فإذا كان يوم القيامة أكْملها بهذه الرحمة مائة» وفيه إشارة إلى أنّ الرحمة التي في الدّنيا بين الخلق تكون فيهم يوم القيامة يتراحمون بها أيضاً، وصرح بذلك المُهَلَّبُ فقال: الرَّحمة التي خلقها الله لعباده وجعلها في نفوسهم في الدّنيا هي التي يتغافرون بها يوم القيامة التبعات بينهم.

قال: ويجوز أن يستعمل الله تلك الرّحمة فيهم فيرحمهم بها سوَى رحمته التي وسعت كلّ شيء، وهي التي من صفة ذاته ولم يزل موصوفاً بها، فهي التي يرحمهم بها زائداً على الرّحمة التي خلقها

لهم، قال: ويجوز أن تكون الرحمة التي أمسكها عند نفسه هي التي عند ملائكته المستغفرين لمن في الأرض، لأنّ استغفارهم لهم دال على أنّ في نفوسهم الرّحمة لأهل الأرض.

وأمّا مناسبة هذا العدد الخاص فحكَى القرطبي عن بعض الشراح أنّ هذا العدد الخاص أطلق لإرادة التكثير والمبالغة فيه، وتعقبه بأنّه لم تجر عادة العرب بذلك في المائة وإنّما جرى في السبعين، كذا قال. وقال ابن أبي جمْرة: ثبت أنّ نار الآخرة تفضل نار الدُّنيا بتسع وستين جزْءاً، فإذا قوبل كلّ جزء برحمة زادت الرّحمات ثلاثين جزءاً، فيؤخذ منه أنّ الرّحمة في الآخرة أكثر من النقمة فيها. ويؤيده قوله: «غلبت رحمتي غضبي».

قال ابن حجر: لكن تبقَى مناسبة خصوص هذا العدد. فيحتمل أن تكون مناسبة هذا العدد الخاص لكونه مثل عدد درج الجنّة، والجنّة شي محلّ الرّحمة، فكان كلّ رحمة بإزاء درجة، وقد ثبت أنّه لا يدخل أحد الجنّة إلّا برحمة الله تعالى، فمن نالتْه منها رحمة واحدة كان أدنَى أهل الجنّة منزلة، وأعْلاهم منزلة من حصلت له جميع الأنواع من الرّحمة.

وقال ابن أبي جمْرة: في الحديث إدْخال السرور على المؤمنين، لأنّ العادة أنّ النفس يكمل فرحها بما وهبَ لها إذا كان معلوماً ممّا يكون موعوداً، وفيه الحثّ على الإيمان، واتّساع الرّجاء في رحمات الله تعالى المدخرة[1].

---

(١) من فتح الباري ج ١٠ ص ٤٣٢، ٤٣٣ باختصار وتصرف.

باب: سعة رحمة الله تعالى وأنّها تغلب غضبه

١ـ عن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال: «لمّا خلَق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إنّ رحمتي تغلب غضبي» رواه مُسْلم[1].

٢ـ وعنه أيضاً قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرّحمة مائة جُزْء، فأمسكَ عنده تسعةً وتسعين وأنزل في الأرض جُزْءاً واحداً، فمن ذٰلك الجُزْءُ تتراحم الخلائقُ حتّى ترفع الدابة حافرَهَا عن ولدها خَشْيَة أن تُصِيبَهُ» رواه مُسْلم[2].

٣ـ وعن عُمر بن الخطاب أنّه قال: «قدِمَ على رسول الله ﷺ بَسبْي فإذا امْـرأةٌ من السّبْي تبتغي إذا وجدتْ صبيًّا في السَّبْي أخذتْهُ فألْصَقَتْهُ ببطنها وأرْضَعَتْهُ، فقال لنا رسول الله ﷺ أترونَ هذه المرأة طارِحَةً ولدَها في النَّار؟ قُلنا: لَا والله وهي تقدرُ علَى أن لا تطرَحهُ، فقال رسول الله ﷺ: لَلَّهُ أرْحَمُ بعباده من هذه بولدها» رواه مُسْلم[3].

٤ـ وعن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «قال رجُلٌ لمْ يعمل حسنة قطُّ لأهله إذا مات فحرِّقُوه ثم اذْروا نصفه في البرّ ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليُعذِّبَنَّهُ عذاباً لَا يُعذِّبُهُ أحداً من العالمين، فلمّا

(١) ج ١٧ ص ٦٧، ٦٨ نووي.

(٢) ج ١٧ ص ٦٨ نووي.

(٣) ج ١٧ ص ٧٠ نووي.

مات الـرَّجل فعَلُوا ما أمرهـم، فأمر اللهُ البَرَّ فجمع ما فيه وأمر البحْر فجمع ما فيه، ثم قال: لِمَ فعلْتَ هذا، قال: من خشيتك يا ربّ وأنت أعلمُ، فغفر الله له» رواه مُسْلم[1].

قوله ﷺ «جعل الله الرَّحمة مائة جزْء إلى آخره» قال النووي رحمه الله: هذه الأحـاديث من أحـاديث الرَّجاء والبشارة للمسلمين، قال العلماء: لأنّه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة في هذه الدّار المبنية على الأكدار الإسلام والقرآن والصلاة والرّحمة في قلبه وغير ذلك ممّا أنعم الله تعالى به، فكيف الظنّ بمائة رحمة في الدّار الآخرة، وهي دار القرار، ودار الجزاء. والله أعلـم.

وقوله في حديث عُمر: «فإذا امْرأة من السّبْي تبْتغي»، تبتغي من الابْتغاء وهو الطلب، قال القاضي عياض: وهذا وهْم، والصواب ما في رواية البخـاري «تسْعَى» بالسين من السعي. قلت[2]: كلاهمـا صواب لا وهم فيه، فهي ساعية وطالبة مبتغية لابْنها. والله أعلم[3].

وقـولـه ﷺ: «في الـرجل الذي لم يعمل حسنة أوصَى بنيه أن يحرقوه ويذروه في البحر والبرّ، وقال: فوالله لئن قدر عليّ ربّي ليعذبني عذابـاً ما عذبـه أحـداً، ثم قال في آخره لِمَ فعلْت هذا؟ قال: من خشيتك يا ربّ وأنت أعلم فغَفر له».

هذا الحديث سبق الكلام عليه عند باب الخوف، وذكرناه هنا لبيان سعة رحمة الله وذلك في قوله «لِمَ فعلت هذا، قال: من خشيتك

(١) ج ١٧ ص ٧٠، ٧١ نووي.

(٢) القائل: هو النووي.

(٣) شرح النووي عى صحيح مُسْلم ج ١٧ ص ٦٨ ـ ٧٠ باختصار.

يا رب وأنت أعلم، فغَفَر الله له».

٥ـ وعن أنس قال: مرّ النبي ﷺ ونفر من أصحابه وصبيّ في الطريق، فلمّا رأت أمّ الصبيّ القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تَسْعَى وتقول: ابْني ابْني، وسعت فأخذته، فقال القوم يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ابْنها في النَّار، قال فخفضهم[1] النبي ﷺ وقال: لَا والله ما يلقي حبيبه في النَّار. رواه أحمد والبزار بنحوه، وأبو يعْلَى ورجالهم رجال الصحيح.

٦ـ وعن عمر بن الخطاب أنّه قال: قدم سبْي على رسول الله ﷺ فذكر الحديث إلى أن قال: وبلغني أنّ رسول الله ﷺ كان في بعض مغازيه، فبينما هم يسيرون إذْ أخذوا فرْخ طير، فأقبل أحد أبويه حتّى سقط في أيدي الذي أخذه، فقال رسول الله ﷺ: ألا تعجبون لهذا الطير أخذ فرْخه، فأقبل حتّى سقط في أيديهم، والله لله أرْحم بخلقه من هذا الطير بفرخه. رواه البزار من طريقين ورجال إحداهما رجال الصحيح.

٧ـ وعن ابن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال: يكون قوم في النّار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يرحمهم الله فيخرجهم منها، فيكونون في أدْنى الجنّة فيغتسلون في نهْر يقال له الحيوان يسميهم أهل الجنة الجهنميين لوْ ضاف أحدهم أهل الجنّة لعرسهم وأطعمهم وسقاهم ولحفهم، ولا أظنّه إلاّ قال: ولزوجهم لا ينقصه ذلك شيئاً. رواه أحمد وأبو يعْلَى ورجالهما رجال الصحيح غير عطاء بن السَّائب وهو ثقة ولكنّه اخْتلط.

---

(١) أي: سكنهم وهوّن عليهم الأمر.

٨ـ وعن أبي سعيد وأبي هريرة قالاَ: قال رسول الله ﷺ: آخر من يخرج من النّار رجلان، يقول الله لأحدهما: يا ابْن آدم ما أعددت لهذا اليوم، هل عملت خيراً قطّ أوْ رجوتني؟ فيقول: لا يا ربّ، فيؤمر به إلى النّار، وهو أشدّ أهل النّار حسْرة، ويقول للآخر: هل عملت خيراً قط أوْ رجوْتني، فيقول: نعم يا ربّ كنت أرْجو إنْ أخْرجتني أن لا تعيدني فيها، وهو آخر من يدخل الجنّة. رواه أحمد والبزار وزاد: هلْ خفْتني، ورجاله رجال الصحيح غير علي بن زيد وهو حسن الحديث[1].

٩ـ وعن علّي بن أبي طالب رضيَ الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصاب في الدنيا ذنْباً، فعوقب به، فالله أعْدلُ من أن يُثَنّيَ عقوبته على عبده، ومن أذْنب ذنْباً، فستره الله فالله أكْرمُ من أن يعُودَ في شَيءٍ قد عَفَا عنه». ذكره صاحب شَرح السنّة للبغوي[2].

١٠ـ وعن أبي سعيد الخدريّ أنّ نبيّ الله ﷺ قال: كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نَفْساً، فسأل عن أعْلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنّه قتَل تسعةً وتسعين نفساً فهل له من توبةٍ؟ فقال: لاَ، فقتله، فكمّل به مائةً، ثم سأل عن أعْلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنَّه قتل مائة نفْسٍ فهلْ له من توبة؟ فقال: نعمْ ومن يحُولُ بيْنَهُ وبيْن التّوبة انْطلق إلى أرْضٍ كذا وكذا فإنّ بها أُنَاساً يعبُدُون الله فاعْبُد اللهَ معهم ولا ترجع إلى أرْضك فإنّها أرضُ سَوءٍ،

---

(١) نقلاً من مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج ١٠ ص ٣٨٦، ٣٨٧.

(٢) ج ١٤ ص ٣٧٩، ٣٨٠ وقال المحقق: رجاله ثقات إلاّ أنّ حجاج بن محمد قد اخْتلط في آخر عمره، وأخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم وصححه ووافقه الذهبي اهـ بتصرف.

فانطَلَقَ حتَّى إذا نصفَ الطريقَ أتاه الموتُ، فاختصمت فيه ملائكةُ الرَّحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرَّحمة جاء تائباً مُقْبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكةُ العذاب إنّه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملَكٌ في صورة آدميٍّ فجعلُوه بينهم، فقـال: قيسُوا ما بين الأرْضَيْن فإلَى أيَّتِهمَا كان أدْنَى فهو له، فقاسُوهُ فوجدوه أدْنَى إلى الأرض التي أراد فقبضتهُ ملائكةُ الرّحمة.

قال قتادة ـ أحد رواة الحديث ـ فقال الحسن: ذُكِرَ لنَا أنّه لمّا أتاهُ الموتُ ناءَ بصدره. رواه مُسْلم[1].

١١ـ وذكر صاحب شرح السنة[2] الإمام البغوي رحمه الله بسنده: عن ضمضم بن جوْسٍ قال: دخلتُ مسجدَ المـدينة، فناداني شيخٌ، فقال: يا يَماميُّ تعالَ وما أعرفهُ، فقال: لا تقولنّ لرجل والله لا يغفرُ اللهُ لكَ أبداً، ولا يُدْخِلُكَ اللهُ الجنّة، قُلْت: ومن أنت يرحُمك الله؟ قال: أبو هريرة، قال: فقلتُ إنّ هذه لكلمةٌ يقولُها أحدُنا لبعض أهله إذا غضِب، أوْ لزوجته، أوْ لخادمه، قال: فإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ رجليْن كانا في بني إسرائيلَ متحابَّيْن، أحدُهما مجتهد في العبادة، والآخر كأنّه يقولُ: مُذْنِبٌ، فجعل يقولُ: أقْصِرْ أقْصِر عمّا أنت فيه، قال: فيقولُ خَلِّنِي وربِّي، قال: حتَّى وجده يوماً على ذنبٍ اسْتعظمه، فقال: أقْصِرْ، فقال: خلِّني وربِّي، أبُعِثْتَ علينا رقيباً؟! فقال: والله لا يغفر اللهُ لكَ أبداً، ولا يُدْخِلُك اللهُ الجنّة أبداً، قال: فبعث الله إليهمـا ملَكـاً، فقبض أرواحهُمَـا، فاجْتمعـا عنده، فقال

(١) ج١٧ ص٨٢ـ ٨٤ نووي.

(٢) ج١٤ ص٣٨٤، ٣٨٥.

للمُذْنب: ادْخل الجنّة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظُرَ على عبـدي رحمتي، فقال: لاَ يا ربّ، قال: اذْهبوا به إلى النّـار» قـال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكَلَّم بكلمة أوْ بَقَتْ دُنياهُ وآخرتَهُ[1].

١٢ـ وعن أبي الدرداء أنّه سمع رسول الله ﷺ يقُصُّ علَى المنْبر وهو يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[2] قُلْتُ: وإنْ زَنَى وإنْ سرق يا رسـول الله؟ فقـال رسول الله ﷺ الثانية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فقُلْتُ الثانية: وإنْ زنَى وإنْ سرق يا رسول الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ الثالثة: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فقلتُ الثالثة: وإنْ زنَى وإنْ سرق يا رسول الله، قال: «وإنْ رَغِمَ أنْفُ أبي الدَّرْداء»[3].

١٣ـ وعن ابن عبّاس في قوله «إلاَّ اللّمَمَ»[4] قال رسول الله ﷺ:

إن تغفـر اللّهم تغفـر جمًّـا وأيُّ عبْـدٍ لكَ لا ألَمّـا

قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح غريب لا نعرفه إلّا من حديث زكريا بن إسحاق[5].

١٤ـ وعن أسامة قال: كان ابْنٌ لبعض بنات النبيِّ ﷺ يقضي فأرسلَت إليه أن يأتيها، فأرسل: إنّ للهِ ما أخذ، وله ما أعْطى، وكلٌّ إلى أجلٍ

---

(١)وأخرجه أحمد وأبو دواود وإسناده حسن أهـ [من تحقيق الأرناؤط لشرح السنة ج١٤ ص٣٨٥].

(٢)٤٦/ من سورة الرحمن.

(٣)من شرح السنة ج١٤ ص٣٨٦، ٣٨٧ وقال المحقق: أخرجه أحمد الطبري وإسناده صحيح.

(٤)٣٢/ من سورة النّجم.

(٥) من المصدر السابق ج١٤ ص٣٨٧.

مُسمًّى، فلْتصْبر ولْتحتسب، فأرسلت إليه، فأقْسمت عليه، فقام رسول الله ﷺ وقمتُ معه ومُعاذ بن جبل وأُبيّ بن كعب وعُبادة بن الصّامت، فلما دخلنا ناولوا رسول الله الصّبيَّ ونفسه تَقَلْقَل في صدره حسبته قال كأنّها شَنَّةٌ فبكى رسولُ الله ﷺ، فقال سعدُ بن عُبادة: أتبكي؟ فقال: إنّما يرحمُ الله من عباده الرُّحماء. رواه البخاري(١).

١٥ـ وعن أبي هريرة عن النّبيَّ ﷺ قال: «اختصمت الجنّة والنَّار إلى ربّهما، فقالت الجنّةُ: يا ربِّ مالها لا يدخُلها إلاّ ضعفاء النَّاس وسقطهم، وقالت النّار: يعني أُوثِرْتُ بالمتكبرين، فقال الله تعالى للجنّة: أنت رحمتي، وقال للنّار: أنت عذابي، أُصيبُ بك من أشاء، ولكلّ واحدةٍ منكما ملؤها، قال: فأمّا الجنّة فإنَّ الله لا يظلمُ من خلقه أحداً، وإنّه ينشىء للنَّار(٢) من يشاء فيُلقون فيها فتقولُ: هل من مزيد ثلاثاً، حتّى يضعَ فيها قدمهُ فتمتلىءُ، ويُردُّ بعضها إلى بعض وتقول: قطْ قطْ قطْ». رواه البخاري(٣).

١٦ـ وعن أنس رضيَ الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليُصيبنّ أقواماً سفْعٌ من النَّار بذنوب أصابوها عقوبة ثم يُدخِلُهم اللهُ الجنّة بفضل رحمته، يُقال لهم الجهنَّميُّون». رواه البخاري(٤).

١٧ـ وعن أبي بُردة عن أبي موسَى قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «إذا كان

---

(١) ج١٣ ص٤٣٤ فتح.

(٢) في حاشية فتح الباري ج١٣ ص٤٣٤ : جزم ابن القيّم بأن هذا غلط من الراوي، صوابه «ينشىء للجنّة».

(٣) ج١٣ ص ٤٣٤ فتح.

(٤) ج١٣ ص ٤٣٤ فتح.

يومُ القيامة دفَع اللهُ عزّ وجلّ إلى كلِّ مُسْلم يهوديًّا أوْ نصرانيًّا، فيقُولُ: هٰذا فكاكُكَ من النَّار» رواه مُسْلم[1].

١٨ـ وعن قتادة أنّ عَوْناً وسعيدَ بن أبي بُرْدة حدّثاهُ أنّهما شهدا أبا بُرْدة يُحدِّث عُمَر بنَ عبد العزيز عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «لا يمُوتُ رجلٌ مُسْلمٌ إلاَّ أدخلَ اللهُ مكانه النَّار يهوديًّا أوْ نصرانيًّا» قال فاسْتحلفه عُمر ابنُ عبد العزيز بالله الذي لا إله إلاّ هو ثلاث مرّات أنّ أباه حدثه عن رسول الله ﷺ؟ قال: فحلف له، قال: فلم يُحدّثني سعيدٌ أنّه اسْتحلفه ولم يُنكر على عوْنٍ قولَهُ. رواه مُسْلم[2].

١٩ـ وعن أبي بُرْدة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «يجيء يومَ القيامة ناسٌ من المسلمين بذُنوب أمْثالِ الجبال فيغفرُهَا الله لهم ويضعها على اليهود والنّصارى»، فيما أحسبُ أنا، قال أبُو رَوْحٍ[3]: لا أدْري ممّن الشكّ؟ قال أبو بُردة: فحدّثتُ به عُمر بن عبد العزيز، فقال: أبوك حدّثك هذا عن النبي ﷺ، قلتُ: نعم. رواه مُسْلم[4].

٢٠ـ وعن صفوان بن مُحْرزٍ قال: قال رجلٌ لابْن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النَّجْوَى؟ قال: سمعته يقول: «يُدْنَى المؤمنُ يوم القيامة من ربّه عزّ وجلّ حتّى يضَعَ عليه كنفَهُ فيُقَرِّرُهُ بذُنُوبه، فيقول: هل تعرفُ؟ فيقول: أيْ ربِّ أعرف، قال: فإنّي قد سَتَرتُها عليك في الدّنيا وإنّي أغفرُهَا لكَ اليومَ فيُعْطى صحيفة حسناته، وأمّا

---

(١) ج١٧ ص ٨٤، ٨٥ نووي.

(٢) ج١٧ ص ٨٥، ٨٦ نووي.

(٣) أحد رواة الحديث.

(٤) ج١٧ ص ٨٦ نووي.

الكفّارُ والمنافقون فَيُنَادَى بهم على رُؤُس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله» رواه مُسْلم[1].

قال النووي ـ رحمه الله ـ قوله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دفع الله تعالى إلى كلّ مُسْلم يهودياً أوْ نصرانياً، فيقول: هذا فكاكك من النّار» وفي رواية: لا يموت رجل مُسْلم إلاّ أدْخل الله مكانه النَّار يهودياً أوْ نصرانيًّا، وفي رواية: يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمْثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى. الفكاك ـ بفتح الفاء وكسرها، الفتح أفصح وأشهر ـ وهو الخلاَص والفداء.

ومعنى هذا الحديث ما جاء في حديث أبي هريرة: لكل أحد منزل في الجنّة ومنزل في النار، فالمؤمن إذا دخل الجنّة خلفه الكافر في النَّار لاسْتحقاقه ذلك بكفره» ومعنَى «فكاكك من النَّار» أنّك كنت معرضاً لدخول النَّار، وهذا فكاكك، لأنَّ الله تعالى قدّر لها عددا يملؤها، فإذا دخلها الكفار بكفرهم وذنوبهم صاروا في معنَى الفكاك للمسلمين.

وأمّا رواية «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب» فمعناه: أنّ الله تعالى يغفر تلك الذنوب للمسلمين ويسقطها عنهم ويضع على اليهود والنّصارى مثلها بكفرهم وذنوبهم، فيدخلهم النَّار بأعمالهم لاَ بذنوب المسلمين، ولا بُدَّ من هذا التأويل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2] وقوله «ويضعها» مجاز، والمراد: يضع عليهم مثلها بذنوبهم كما ذكرناه، لكن لما أسقط سبحانه وتعالى عن

---

(1) ج١٧ ص ٨٦، ٨٧ نووي.

(2) ٧/من سورة الزّمر.

المسلمين سيئاتهم وأبْقى على الكفار سيئاتهم صاروا في معْنى من حمل إثْم الفريقين لكونهم حملوا الإثْم الباقي، وهو إثمهم، ويحتمل أن يكون المراد آثاماً كان للكفار سبب فيها بأن سنّوها، فتسقط عن المسلمين بعفو الله تعالى ويوضع على الكفار مثلها لكونهم سنّوها، ومن سنّ سنّة سيئةً كان عليه مثل وزْر كلّ من يعمل بها. والله أعلم.

وقوله: «فاسْتحلفه عمر بن عبد العزيز أنّ أباه حدّثه» إنّما اسْتحلفه لزيادة الاسْتيثاق والطمأنينة ولما حصل له من السرور بهذه البشارة العظيمة للمسلمين أجمعين، ولأنّه إن كان عنده فيه شكّ وخوف غلط أوْ نسيان، أو اشْتباه، أوْ نحو ذلك أمْسك عن اليمين، فإذا حلف تحقق انْتفَاء هذه الأمور وعرف صحة الحديث، وقد جاء عن عمر بن عبد العزيز والشافعي رحمهما الله أنّهما قالاَ: هذا الحديث أرْجى حديث للمسلمين، ـ وهو كما قالاَ ـ لما فيه من التصريح بفداء كلّ مُسْلم، وتعميم الفداء. ولله الحمد[1].

---

(١) نقْلاً من شرح النووي على صحيح مُسْلم ج١٧ ص ٨٥، ٨٦.

باب: من همّ بحسنة أوْ بسيِّئَةٍ

عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما عن النبيّ ﷺ فيما يروي عن ربِّه عزّ وجلّ قال: «إنّ الله كتبَ الحسناتِ والسيِّئات ثم بيّن ذلك، فمن همّ بحسنةٍ فلم يعملْها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هُوَ هَمّ بها فعَمِلها كتبها الله له عنده عشرَ حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة. ومن همّ بسيِّئة فلم يعملها كتبها اللهُ له عنده حسنةً كاملة، فإن هُوَ همّ بها فعملَها كتبها الله له سيّئة واحدة» رواه البخاري[1].

قوله «باب من همّ بحسنة أوْ بسيئة» الهمّ: ترجيح قصد الفعل تقول: هممت بكذا، أي قصدته بهمتي، وهو فوق مجرد خطور الشيء بالقلب.

وقوله: «إنَّ الله كتب الحسنات والسيِّئات» يحتمل أن يكون هذا من قول الله تعالى، فيكون التقدير قال الله: إنّ الله كتب، ويحتمل أن يكون من كلام النبي ﷺ يحكيه عن فعْل الله تعالى، وفاعل «ثمّ بيّن ذلك» هو الله تعالى.

«فمن هَمَّ» ووقع لمسلم من رواية همّام عن أبي هريرة بلفظ «إذا

(١) ج١١ ص ٣٢٣ فتح.

تحدث» وهو محمول على حديث النفس لتوافق الروايات الأخرى، ويحتمل أن يكون على ظاهره ولكن ليس قيداً في كتابة الحسنة، بل بمجرد الإرادة تكتب الحسنة، نعم ورد ما يدل على أنّ مطلق الهمّ والإرادة لا يكفي، فعند أحمد وصححه ابن حبان والحاكم من حديث خريم بن فانك رفعه: «ومن همّ بحسنة يعلم الله أنّه قد أشعر بها قلبه وحرص عليها» وقد تمسك به ابن حبّان فقال بعد إيراد حديث الباب في صحيحه: المراد بالهمّ هنا العزم، ثم قال: ويحتمل أنّ الله يكتب الحسنة بمجرد الهمّ بها وإن لم يعزم عليها زيادة في الفضل، وقوله «فلم يعملها» يتناول نفي عمل الجوارح، وأمّا عمل القلب فيحتمل نفْيه أيضاً إن كانت الحسنة تكتب بمجرد الهمّ كما في معظم الأحاديث «كتبها الله له» أي للذي همّ بالحسنة «عنده» أي عند الله «حسنة كاملة». قال النووي: أشار بقوله «عنده» إلى مزيد الاعتناء به، وبقوله «كاملة» إلى تعظيم الحسنة وتأكيد أمرها، وعكس ذلك في السيئة فلم يصفها بكاملة، بل أكدها بقوله «واحدة» إشارة إلى تخفيفها مبالغة في الفضل والإحسان.

وقوله: «فإن همّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات» قال ابن عبد السلام في أماليه: معنَى الحديث: إذا همّ بحسنة فإن كتبت له حسنة عملها كملت له عشرة، لأنّا نأخذ بقيد كونها قد همّ بها، وكذا السيئة إذا عملها لا تكتب واحدة للهمّ وأخرى للعمل بل تكتب واحدة فقط، قلت[1]: الثاني صريح في حديث هذا الباب، وهو مقتضَى كونها في جميع الطرق لا تكتب بمجرد الهمّ، وأمّا حسنة الهمّ بالحسنة فالاحْتمال قائم، وقوله بقيد كونها قد همّ بها يعكر عليه من

(١) القائل: ابن حجر.

عمل حسنة بغْتة من غير أن يسبق له أنّه همّ بها، فإنّ قضية كلامه أنّه يكتب له تسعة، وهو خلاف ظاهر الآية ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1] فإنّه يتناول من همّ بها ومن لم يهمّ، والتحقيق أنّ حسنة من همّ بها تندرج في العمل في عشرة العمل، لكن تكون حسنة من همّ بها أعظم قدراً ممّن لم يهمّ بها. والعلم عند الله تعالى.

وقوله «إلى سبعمائة ضعف» الضعف في اللغة: المثل «إلى أضعاف كثيرة» وعند مُسْلم «إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله» وفي حديث أبي ذرّ رفعه: «يقول الله من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد» وهذا يدلّ على أن تضعيف حسنة العمل إلى عشرة مجزوم به، وما زاد عليها جائز وقوعه بحسب الزيادة في الإخلاص وصدق العزم وحضور القلب وتعدي النّفع كالصدقة الجارية والعلم النّافع والسنّة الحسنة وشرف العمل ونحو ذلك، وقوله: «وَمَنْ همَّ بسيّئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة». المراد بالكمال: عظم القدر، لا التضعيف إلى العشرة، وظاهر الإطلاق: كتابة الحسنة بمجرد الترك، لكنّه قيّده في حديث الأعرج عن أبي هريرة ولفظه «إذا أراد عبدي أن يعمل سيئّة فلا تكتبوها عليه حتّى يعملها، فإن عملها فاكْتبوها له بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكْتبوها له حسنة».

ونقل عياض عن بعض العلماء أنّه حمل حديث ابن عبّاس على عمومه، ثم صوب حمل مطلقه على ما قيد في حديث أبي هريرة. قلت[2]: ويحتمل أن تكون حسنة من ترك بغير استحضار ما قيد به دون

---

(١) ١٦٠/ من سورة الأنعام.

(٢) القائل ابن حجر.

حسنة الآخر لأنّ ترك المعصية كفّ عن الشرّ، والكفّ عن الشرّ خير، ويحتمل أيضاً أن يكتب لمن هم بالمعصية ثم تركها حسنة مجردة، فإن تركها من مخافة ربّه سبحانه كتبت حسنة مضاعفة. وقال الخطابي: محلّ كتابة الحسنة على الترك أن يكون التارك قد قدر على الفعل ثم تركه، لأنّ الإنسان لا يسمَّى تاركاً إلاّ مع القدرة.

وقوله: «فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة» في رواية الأعرج «فاكْتبوها له بمثلها» وزاد مُسْلم في حديث أبي ذرّ «فجزاؤه بمثلها أوْ أغفر» ولابن عبّاس «أو يمحوها» والمعنى: أنّ الله يمحوها بالفضل أو بالتوبة أو بالاسْتغفار أو بعمل الحسنة التي تكفر السيئة، والأول أشبه لظاهر حديث أبي ذرّ.

قال ابن بَطَّالْ: في هذا الحديث بيان فضل الله العظيم على هذه الأمّة، لأنه لولا ذلك كاد لا يدخل أحد الجنّة، لأنّ عمل العباد للسيئات أكثر من عملهم للحسنات، ويؤيد ما دلّ عليه حديث الباب من الإثابة على الهمّ بالحسنة وعدم المؤاخذة على الهمّ بالسيئة قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾(1) إذْ ذكر في السوء الإفتعال الذي يدلّ على المعالجة والتكلف فيه بخلاف الحسنة، وفيه ما يترتب للعبد على هجران لذّته وترك شهوته من أجل ربّه رغْبة في ثوابه ورهْبة من عقابه، وفيه أنّ الله سبحانه وتعالى بفضله وكرمه جعل العدل في السيئة والفضل في الحسنة، فضاعف الحسنة ولم يضاعف السيّئة بل أضاف فيها إلى العدل الفضل، فأدارها بين العقوبة والعفو بقوله «كتبت له واحدة أوْ يمحوها» وبقوله «فجزاؤه بمثلها أوْ أغْفر»(2).

---

(1) الآية الأخيرة من سورة البقرة.

(2) نقلاً من فتح الباري ج11 ص 323-329 باختصار وتصرّف.

باب: لن يدخل الجنّة أحدٌ بعمله

١ـ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لنْ يُنْجيَ أحداً منكم عملُهُ، قال رجلٌ ولاَ إيَّاكَ يا رسول الله، قال: ولاَ إيَّايَ، إلاَّ أنْ يتغمدني اللهُ منه برحمةٍ ولكن سدِّدُوا» رواه مُسْلم[1].

٢ـ وعنه أيضاً قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قاربُوا وسَدِّدُوا واعْلمُوا أنّه لن ينجُوَ أحدٌ منكم بعمله، قالوا: يا رسول الله ولاَ أنت، قال: ولاَ أنَا إلاَّ أنْ يتغمدني الله برحمة منه وفضْلٍ» رواه مُسْلم[2].

٣ـ وعن عائشة زوج النبيّ ﷺ أنّها كانت تقول: قال رسولُ الله ﷺ: «سدّدُوا وقاربُوا وأبْشروا فإنّه لنْ يُدْخِلَ الجنّة أحداً عملُهُ، قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله، قال: وَلاَ أنَا إلاَّ أن يتغمدني اللهُ منه برحْمة، واعْلموا أنَّ أحبَّ العمل إلى اللهِ أدْوَمهُ وإنْ قَلَّ» رواه مُسْلم[3].

قال الإمام النووي رحمة الله: قوله ﷺ: «لن يُنْجيَ أحداً منكم عملُهُ، قال رجل: ولاَ إيَّاك يا رسول الله، قال: ولاَ إيَّاي إلاَّ أن يتغمدني الله منه برحمة ولكن سدّدوا» وفي رواية: برحمة منه وفضل، وفي رواية: بمغفرة ورحمة، وفي رواية: إلاَّ أن يتداركني الله منه

(١) ج١٧ ص ١٥٩ نووي.

(٢) ج١٧ ص ١٦٠ نووي.

(٣) ج١٧ ص ١٦١ نووي.

برحمة. ثم قال رحمه الله: اعلم أنّ مذهب أهل السنة أنّه لا يثبت بالعقل ثواب ولاَ عقاب ولاَ إيجاب ولا تحريم ولا غيرهما من أنواع التكليف، ولا تثبت هذه كلّها ولاَ غيرها إلاَّ بالشرع، ومذهب أهل السنّة أيضاً: أنّ الله تعالى لا يجب عليه شيء، تعالى الله، بل العالم ملْكه والدّنيا والآخرة في سلطانه، يفعل فيهما ما يشاء، فلو عذّب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النَّار كان عدْلاً منه، وإذا أكرمهم ونعمهم وأدخلهم الجنّة فهو فضْلٌ منه، ولو نعّم الكافرين وأدخلهم الجنّة كان له ذلك، ولكنّه أخبر، وخبره صدْق أنّه لا يفعل هذا، بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنّة برحمته ويعذّب المنافقين ويدخلهم في النَّار عدْلاً منه.

وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل الحقّ أنّه لا يستحق أحدٌ الثواب والجنّة بطاعته، وأمّا قوله: ﴿ادْخُلوا الجَنّة بمَا كُنْتُمْ تَعْمَلون﴾[1] ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلونَ﴾[2] ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة، فلا يعارض هذه الأحاديث، بل معنَى الآيات: أنّ دخول الجنَّة بسبب الأعمال، ثم بالتوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها، وقبولها برحمة الله تعالى وفضْله، فيصحّ أنّه لم يدخل بمجرد العمل، وهو مراد الأحاديث، ويصحّ أنّه دخل بالأعمال، أي بسببها، وهي من الرّحمة. والله أعلم.

ومعنى «يتغمدني برحمته» يلبسنيها ويغمدني بها. ومعنَى «سدّدوا

(١) ٣٢/ من سورة النّحل.

(٢) ٧٢/من سورة الزخرف.

وقاربوا» اطْلبوا السداد واعْملوا به، وإن عجزتم عنه فقاربوه، أي اقْربوا منه، والسداد: الصواب، وهو بين الإفراط والتفريط فلا تغلوا ولا تقصروا[1].

(١) من شرح النووي على صحيح مُسْلم ج١٧ ص١٥٩-١٦٢ باختصار.

باب: من جاهد نفسه في طاعة الله

عن معاذ بن جبل رضيَ الله عنه قال: بينا أنا رديفُ النبيّ ﷺ ليس بيني وبينه إلاَّ آخرة الرّحل، فقال: يا معاذُ، قُلْتُ: لبَّيك يا رسول الله وسعديك. ثم سارَ ساعةً، ثم قال: يا مُعاذ، قلتُ: لبَّيكَ رسول الله وسعديكَ، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذَ بن جبلَ، قلتُ: لبَّيكَ رسولَ الله وسعديك. قال: هل تدري ما حقّ الله على عباده؟ قلتُ الله ورسوله أعلم. قال: حقّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلتُ: لبَّيكَ رسول الله وسعديك. قال: هل تدري ما حقّ العباد على الله إذا فعلوه؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال؛ حقّ العباد على الله أن لا يعذبهم» رواه البخاري[1].

قوله «باب من جاهد نفسه في طاعة الله عزّ وجلّ» يعني بيان فضل من جاهد، والمراد بالمجاهدة: كفّ النفس عن إرادتها من الشّغل بغير العبادة، وبهذا تظهر مناسبة الترجمة لحديث الباب.

وقال ابن بطال: جهاد المرء نفسه هو الجهاد الأكمل، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ الآية[2].

---

(١) ج١١ ص ٣٣٧ فتح.

(٢) ٤٠/من سورة النازعات.

ويقع بمنع النفس عن المعاصي، وبمنعها من الشبهات، وبمنعها من الإكثار من الشهوات المباحة لتتوفر لها في الآخرة.

قال القشيري: أصل مجاهدة النفس: فطْمها عن المألوفات وحملها على غير هواها. وللنّفس صفتان: انْهماك في الشهوات، وامْتناع عن الطاعات، فالمجاهدة تقع بحسب ذلك، قال بعض الأئمة: جهاد النفس داخل في جهاد العدو، فإنّ الأعداء ثلاثة: رأسهم الشيطان، ثم النفس لأنّها تدعو إلى اللّذات المفضية بصاحبها إلى الوقوع في الحرام الذي يسخط الرّب، والشيطان هو المعين لها على ذلك ويزينه لها، فمن خالف هوَى نفسه قمع شيطانه، فمجاهدة نفسه حملها على اتّباع أوامر الله واجْتناب نواهيه، وإذا قوي العبد على ذلك سهل عليه جهاد أعداء الدين.

وقوله: «هلْ تدري ما حقّ الله على عباده» المراد: ما يستحقه الله على عباده ممّا جعله محتماً عليهم.

وقال القرطبي: حقّ الله على العباد هو ما وعدهم به من الثواب وألْزمهم إيّاه بخطابه.

وقوله «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» المراد بالعبادة: عمل الطاعات واجْتناب المعاصي، وعطف عليها عدم الشرك لأنّه تمام التوحيد، والحكمة في عطفه على العبادة، أنّ بعض الكفرة كانوا يدّعون أنّهم يعبدون الله ولكنّهم كانوا يعبدون آلهة أخرى فاشْترط نفْي ذلك.

وقوله «حقّ العباد على الله أن لا يعذبهم» قال القرطبي: حقّ العباد على الله: ما وعدهم به من الثواب والجزاء، فحقّ ذلك ووجب

بحكم وعـده الصدق، وقوله الحقّ الذي لا يجوز عليه الكذب في الخبر ولاَ الخلفْ في الوعد، فالله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيْء بحكم الأمر، إذْ لاَ آمر فوقه، ولا حكمْ للعقل لأنّه كاشف لا موجب. انتهى.

وقال ابن رجب في شرحه لأوائل البخاري: قال العلماء: يؤخذ من منع معاذ من تبشير النّاس لئلا يتكلوا أنّ أحاديث الرّخص لا تشاع في عموم النَّاس لئلا يقصر فهمهم عن المراد بها، وقد سمعها معاذ فلم يزدد إلاَّ اجْتهاداً في العمل وخشية للهِ عزّ وجلّ. فأمّا من لم يبلغ منزلته فلا يؤمن أن يقصر اتّكالاً على ظاهر هذا الخبر، وقد عارضـه ما تواتر من نصوص الكتاب والسّنة أنّ بعض عصاة الموحدين يدخلون النّـار، فعلَى هذا فيجب الجمع بين الأمرين، وقد سلكوا في ذلك مسـالك: أحدهـا قول الزهري: إنّ هذه الرخصة كانت قبل نزول الفرائض والحدود. واستبعد غيره من أنّ النّسخ لا يدخل الخبر، وبأنّ سماع معاذ لهذه كان متأخراً عن أكثر نزول الفرائض، وقيل: لا نسْح، بل هو على عمـومـه، ولكنّـه مقيد بشرائط كما ترتب الأحكام على أسبابها المقتضية المتوقفة على انْتفاء الموانع، فإذا تكامل ذلك عمل المقتضى عمله، وإلى ذلك أشار وهْب بن منبّه بقوله في شرح «أنْ لا إله إلاَّ الله مفْتاح الجنة»: ليس من مفتاح إلاَّ وله أسنان، وقيل: المراد ترك دخول نار الشرك، وقيل: ترك تعذيب جميع بدن الموحدين لأنّ النَّـار لا تحـرق مواضع السجود، وقيل: , ليس ذلك لكلّ من وحّد وعبَد، بل يخْتص بمن أخْلص، والإخلاص يقْتضي تحقيق القلب بمعنـاهـا، ولا يتصـور حصول التحقيق مع الإصرار على المعصية

لامْتلاء القلب بمحبّة الله تعالى وخشيته فتنبعث الجوارح إلى الطاعة وتنكف عن المعصية. انتهى ملخصاً[1].

(١) من فتح الباري ج ١١ ص ٣٣٧ - ٣٤٠.

بـاب: الإقنـاط

١ـ عن ابن أبي مليكة أنّ عبيد بن عمير دخل على عائشة فقالت: من هذا؟ فقال: عبيد بن عمير، فقالت: عمير بن قتادة؟ فقال: نعم، قالت: ألم أُحَدّث أنّك تجلس ويُجْلَس إليك؟ قال: بلى، يا أمّ المؤمنين! قالت: فإيّاك وإهْلاك النّاس، وتقنيطهم[1].

٢ـ وعن زيد بن أسْلم أنّ رجلاً كان في الأُمم الماضية يجتهد في العبادة، ويشدّد على نفسه، ويقنط النّاس من رحمة الله، ثم مات، فقال: أي ربّ مالي عندك؟ قال: النّار، قال: يا ربّ! فأين عبادتي واجْتهادي؟ فقيل له: كنت تقنّط النّاس من رحمتي في الدّنيا، وأنا أُقنِّطك اليوم من رحْمتي[2].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره مجموعة أحاديث في نفي القنوط أحب أن أذكرها هُنَا.

٣ـ فعن أنس بن مالك رضيَ الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتّى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم، والذي نفس محمد

(١) من مصنف عبد الرزاق ج ١١ ص ٢٨٨، ٢٨٩.

(٢) المصدر السابق.

ﷺ بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عزّ وجلّ بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم» تفرد به أحمد.

٤ـ وعن أبي أيوب الأنصاري رضيَ الله عنه أنّه قال حين حضرته الوفاة قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنّكم تذنبون لخلق الله عزّ وجلّ قوماً يذنبون فيغفر لهم» رواه الإمام أحمد، وأخرجه مُسْلم في صحيحه والترمذي جميعاً عن قتيبة عن الليث بن سعد به.

٥ـ وعن ابن عبّاس رضيَ الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «كفارة الذّنب النّدامة» وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيغفر لهم» تفرد به أحمد.

٦ـ وعن عبيد الله بن عمير قال: «إنّ إبليس ـ لعنه الله تعالى ـ قال: يا ربّ إنّك أخرجتني من الجنّة من أجل آدم وإنّي لا أستطيعه إلاّ بسلطانك، قال: فأنت مسلّط، قال: يا ربّ زدْني، قال: لا يولد له ولد إلاّ وُلِدَ لكَ مثله، قال: يا ربّ زدْني، قال: أُجْعل صدروهم مساكن لكم وتجرون منهم مجْرى الدّم، قال: يا ربّ زدني، قال: اجْلب عليهم بخيْلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً، فقال آدم عليه الصلاة والسلام: يا ربّ قد سلطته عليّ وإنّي لا أمْتنع إلاّ بك، قال تبارك وتعالى: لا يولد لكَ ولد إلاّ وكّلت به من يحفظه من قرناء السوء، قال: يا ربّ زدني، قال: الحسنة عشر أوْ أزيد، والسيّئة واحدة أوْ أمْحوها، قال: يا ربّ زدني، قال: باب التوبة مفتوح ما كان الرّوح في الجسد، قال: يا ربّ زدْني، قال: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ

إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1]

وقال محمد بن إسحاق قال نافعٌ عن عبد الله بن عمر عن عمر رضي الله عنهما في حديثه قال: وكنّا نقول ما الله بقابل ممّن افْتتن صرْفاً ولا عدْلاً ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم، قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ* وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

قال عمر رضيَ الله عنه فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاص رضي الله عنه قال: فقال هشام لما أتتني جعلت أقْرأها بذي طوى أصْعد بها فيه وأصوات ولا أفهمها حتّى قلت اللّهم أفهمنيها، قال فألْقَى الله عزّ وجلّ في قلبي أنّها إنّما أنزلت فينا وفيما كنّا نقول في أنفسنا ويقال فينا، فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة[2].

٧ـ وعن جُندب أنّ رسول الله ﷺ حدّثَ أنّ رجلاً قال: «والله لا يغفرُ اللهُ لِفُلان، وأن الله تعالى قال مَنْ ذَا الذي يتألّى عليَّ أنْ لا أغفرَ لِفُلانٍ فإنّي قد غَفَرْتُ لِفُلانٍ وأحْبَطتُ عَمَلَكَ أوْ كَما قال» رواه مُسْلم[3].

(١) ٥٣/ من سورة الزّمر.
(٢) من تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٦٥ باختصار.
(٣) ج ١٦ ص ١٧٤ نووي.

٨ـ وعن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الرَّجلُ هلَكَ النَّاسُ فهُو أهْلَكهم» رواه مُسْلم[١].

قال النووي رحمه الله: قوله ﷺ: «إنّ رجلاً قال والله لا يغفر الله لفلان، وإنّ الله تعالى قال من ذا الذي يتألّى عليّ أنْ لا أغفر لفلان، فإنّي قد غفرت لفلان وأحبطت عملك». معنى «يتألّى» يحلف، والألية: اليمين، وفيه دلالة لمذهب أهل السّنّة في غفران الذنوب بلا توبة إذا شاء الله غفرانها[٢].

وقوله ﷺ «إذا قال الرّجل هلكَ النّاس فهو أهلكهم». روي «أهلكهم» على وجهين مشهورين، رفع الكاف وفتحها، والرّفع أشهر.

وقال الحميدي في الجمع بين الصحيحين: الرّفع أشهر، ومعناها: أشدّهم هلاكاً، وأمّا رواية الفتح فمعناها: هو جعلهم هالكين، لا أنّهم هلكوا في الحقيقة، واتّفق العلماء علَى أنّ هذا الذَّم إنّما هو فيمن قاله على سبيل الإزْراء على النّاس واحْتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم وتقبيح أحوالهم لأنّه لا يعلم سرّ الله في خلْقه، قالوا: فأمَّا من قال ذلك تحزناً لما يَرى في نفسه وفي النَّاس من النّقص في أمْر الدين، فلا بأس عليه كما قال: لا أعرف من أُمّة النبي ﷺ إلاّ أنّهم يصلون جميعاً، هكذا فسّره الإمام مالك وتابعه النَّاس عليه.

وقال الخطابيّ: معناه لا يزال الرّجل يعيب النّاس ويذكر مساويهم ويقول: فسد النّاس وهلكوا، ونحو ذلك، فإذا فعل ذلك فهو

---

(١) ج ١٦ ص ١٧٤ نووي.

(٢) شرح النووي على صحيح مُسْلم ج ١٦ ص ١٧٤.

أهلكهم، أي أسْوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم، وربما أدّاه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أنّه خير منهم والله أعلم[1].

(١) المصدر السابق ج ١٦ ص ١٧٥، ١٧٦.

باب: الجمع بين الخوف والرجاء من الكتاب

يقول الغزالي رحمه الله:

فإنّ الرّجاء والخوف جناحان بهما يطير المقرّبون إلى كلّ مقام محمود، ومطيّتان بهما يقطع من طرق الآخرة كلّ عقبة كئود، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان، مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفاً بمكارة القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء ـ إلّا أزْمة الرجاء. ولا يصدّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم ـ مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللّذات ـ إلّا سياط التخويف وسطوات التعنيف[1].

وقال النووي رحمه الله:

اعلم أنّ المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفاً راجياً ويكون خوفهُ ورجاؤه سواءً، وفي حال المرض يُمَحّضُ الرّجاء. وقواعدُ الشرع من نصوص الكتاب والسُّنّة وغير ذلك متظاهرة على ذلك، فتارة يجتمع الخوف والرجاء في آيتين مقترنتين أوْ آيات أوْ آية[2].

قال تعالى:

١ ـ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم

---

(١) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ١٤٢.

(٢) رياض الصالحين ص ٢٠٧، ٢٠٨ باختصار.

بَعْدَ إيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

أخرج أحمد والترمذي وابن ماجة والطبراني وابن المنذر عن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوس الأزارقة منصوبة على درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النَّار شرُّ قَتْلَى تحت أديم السماء، خير قَتْلَى من قتلوه، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ . . . الآية﴾ قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ، قال: لو لم أسمعه إلَّا مرّة أوْ مرّتين أوْ ثلاثاً أوْ أربعاً حتّى عدّ سبْعاً ما حدثتكموه!.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نصر في الإبانة والخطيب في تاريخه واللالكائي في السنة عن ابن عبَّاس في هذه الآية قال: ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال: تبيضُّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودُّ وجوه أهل البدع والضلالة.

وأخرج الخطيب والديلمي عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال: تبيضُّ وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدع.

وأخرج أبو نصر السجزي في الإبانة عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قرأ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال: تبيضّ وجوه أهل الجماعات والسنّة وتسود وجوه أهل البدع والأهواء.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبيّ بن كعب في الآية قال: صاروا فرقتين، ويوم القيامة، يقال لمن اسْودّ وجهه

(١) ١٠٦ ـ ١٠٧/ من سورة آل عمران.

﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فهو الإيمان الذي كان في صلب آدم، حيث كانوا أمّة واحدة، وأمّا الذين ابْيضت وجوههم فهم الذين اسْتقاموا على إيمانهم وأخلصوا له الذين فبيّض الله وجوههم وأدخلهم في رضوانه وجنّته[1].

وفي الذين اسْودت وجوههم، خمسة أقوال:

أحدها: أنّهم كل من كفر بالله بعد إيمانه يوم الميثاق، قاله أُبَيّ بن كعب.

والثاني: أنّهم الحرورية، قاله أبو أمامة، وأبو إسحاق الهمذاني.

والثالث: اليهود، قاله ابن عبّاس.

والرابع: أنّهم المنافقون، قاله الحسن.

والخامس: أنّهم أهل البدع، قاله قتادة[2].

ونحـو الآية. قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾[3] وقـولـه: ﴿وَتَـرْهَقُهُمْ ذِلَّـةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَـا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾[4] وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[5] وفي الحديث «إنَّ أمتي يحشرون غرًّا محجلين من آثار الوضوء»[6].

---

(١) الدر المنثور ج ٢ ص ٦٣.

(٢) زاد المسير ج ١ ص ٤٣٦.

(٣) ٤٠، ٤١/ من سورة عبس.

(٤) ٢٧/ من سورة يونس.

(٥) ٢٢، ٢٣/ من سورة القيامة.

(٦) تفسير المراغي ج ٤ ص ٢٥.

وقال القرطبي قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعني يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوهُ المؤمنين مبْيضّة، ووجوه الكافرين مسْودّة. ويقال: إنّ ذلك عند قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه فرأى في كتابه حسناته اسْتبشر وابْيضّ وجهه، وإذا قرأ الكافر والمنافق كتابه فرأى فيه سيئاته اسْودّ وجهه. ويقال: إنّ ذلك عند الميزان إذا رجحت حسناته ابْيضّ وجهه، وإذا رجحت سيئاته اسْودّ وجهه.

ويقال: إذا كان يوم القيامة يُؤْمر كلّ فريق بأن يجتمع إلى معبوده، فإذا انْتهوا إليه حزِنُوا واسْودّت وجوههم، فيبقَى المؤمنون وأهل الكتاب والمنافقون، فيقول الله تعالى للمؤمنين: «من ربكم»؟ فيقولون: ربّنا الله عزّ وجلّ. فيقول لهم: «أتعرفونه إذا رأيتموه» فيقولون: سبحانه! إذا اعْترف عرفناه. فيرونه كما شاء الله. فيخِرّ المؤمنون سُجّداً لله تعالى، فتصير وجوههم مثل الثلج بياضاً، ويبقى المنافقون وأهل الكتاب لا يقدرون على السجود فيحزنوا وتسْودّ وجوههم، وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾(1).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي فأمّا الذين تفرقوا واخْتلفوا فاسْودت وجوههم فيقال لهم هذا القول في الدنيا والآخرة.

أمّا في الدّنيا فلا بدّ أن يوجد في النّاس من يقول للأمة التي وقع فيها هذا الاخْتلاف ـ مثل هذا القول تغليظاً لهَا لأنّ عملها لا يصدر

(1) قرطبي ج ٤ ص ١٦٦، ١٦٧.

إلّا من الكافرين، وأمّا في الآخرة فيوبخهم الله تعالى بمثل هذا السؤال.

وقد جَرى عرف القرآن أن يعدّ المتفرقين في الدين من الكفار والمشركين كما جاء في قوله: ﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[2][3].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ هؤلاء أهل طاعة الله عزّ وجلّ والوفاء بعهده.

﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي في جنّته ودار كرامته خالدون باقون. جعلنا الله منهم وجنّبنا طرق البدع والضلالات، ووفّقنا لطريق الذين آمنوا وعملوا الصّالحات. آمين[4].

وقال تعالى:

٢ـ ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[5].

قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ الآية. يقول

---

(١) ٣١، ٣٢/ من سورة الروم.

(٢) ١٥٩/ من سورة الأنعام.

(٣) تفسير المراغي ج ٤ ص ٢٦.

(٤) قرطبي ج ٤ ص ١٦٩.

(٥) ٤٨، ٤٩/ من سورة الأنعام.

تعالى ذكره: وما نرسل رسلنا إلاّ ببشارة أهل الطاعة لنا بالجنة والفوز المبين يوم القيامة جزاء منّا لهم على طاعتنا وبإنذار من عصانا وخالف أمرنا عقوبتنا إيّاه على معصيتنا يوم القيامة جزاء منّا على معصيتنا لنعذر إليه فيهلك إن هلك عن بيّنة، ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ يقول: فمن صدّق من أرسلنا إليه من رسلنا إنذارهم إيّاه وقبل منهم ما جاؤوه به من عند الله وعمل صالحاً في الدّنيا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهم عند قدومهم على ربهم من عقابه وعذابه الذي أعدّه الله لأعدائه وأهل معاصيه وَلاَهُم يَحْزنونَ عند ذلك على ما خلفوا وراءهم في الدنيا(1) كما قال سبحانه: ﴿لاَ يَحْـزُنُهُمُ الْفَـزَعُ الْأكْبَـرُ وَتَتَلَقَّـاهُمُ الْمَـلاَئِكَةُ هَذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وكذلك هم لا يحزنون في الدنيا كحزن المشركين في شدته وطول مدته، فإذا عرض لهم الحزن بسبب صحيح كموت ولد أوْ قريب أوْ فقد مال أوْ قلّة نصير يكون حزنهم مقروناً بالصبر وحسن الأسـوة فلا يضـرهم في أنفسهم ولا في أبدانهم، ولا يغيّر شيئاً من أخـلاقهم وعـاداتهم، فالإيمـان يعصمهم من عنت البـأسـاء وبـطر النعمـاء، مسترشـدين بنحـو قوله تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إنَّ ذ لِـكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ* لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

﴿وَالَّـذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي التي بلغتها الرسل عليهم الصلاة والسلام عند التبشير والإنذار، وقيل: المراد بها نبيّنا ﷺ ومعجزاته، والأول هو الـظاهـر، والموصول مبتدأ، وقوله: ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾

(1) طبري ج ٧ ص ١٢٦.

خبـره، والجملة عطف على ﴿مَنْ آمَنَ﴾ الـخ. والمـراد بالعذاب: العذاب الذي أنذروه عاجلاً أوْ آجلاً، أوْ حقيقة العذاب.

﴿بِمَـا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم. وعن ابن زيد: كلّ فسق في القرآن معناه الكذب(١).

وقال تعالى:

٣ـ ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ﴾ هذا أمْرٌ بالدّعاء وتعبّد به ثم قرن جلّ وعزّ بالأمر صفاتٍ تحسُن معه، وهي الخشوع والاسْتكانة والتضرع(٣).

«والتضـرع»: التـذلـل والتخشـع، وهو إظهار ذلّ النّفس، من قولهم: ضرع فلان لفلان، وتضرع له إذا أظهر الذّل له في معرض السؤال، «والخفْية» ضدّ العلانية. يقال: أخْفيت الشيء إذا سترته، ويقال: «خفية» أيضاً بالكسر.

واعْلم أنّ الأخْفاء معتبر في الدعاء، ويدلّ عليه وجوه منها: هذه الآية فإنّهـا تدلّ على أنّه تعالى أمر بالدّعاء مقْروناً بالإخْفاء، وظاهر الأمر الوجوب فإن لم يحصل الوجوب فلا أقل من كونه ندباً(٤).

---

(١) ١٠٣/ من سورة الأنبياء.

(٢) ٥٥، ٥٦/ من سورة الأعراف.

(٣) قرطبي ج ٧ ص ٢٢٣.

(٤) الرازي ج ١٤ ص ١٣٦.

وقال القاسمي: وإنّما طلب الدعاء مع تينك الحالتين: لأنّ المقصود من الدعاء أن يشاهد العبد حاجته وعجزه وفقْره لربّه ذي القدرة الباهرة والرحمة الواسعة. وإذا حصَل له ذلك، فلا بدّ من صونه عن الرّياء، وذلك بالإخْتفاء، وتوصلاً للإخلاص، ثم ساق رحمه الله فوائد.

قال: في هذه الآية مشروعية الدعاء، بشرطيْه المذكورين. قال السيوطي في «الإكليل»: ومن التضرع رفع الأيدي في الدعاء، فيستحب.

وقد أخرج البزار عن أنس قال: رفع رسول الله ﷺ يديه بعرفة يدعو، فقال أصحاب النبيّ ﷺ: هذا الابتهال. ثم خاضت الناقة، ففتح إحدَى يديه فأخذها وهو رافع الأخرى - انتهى -.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع النّاس أصواتهم بالدّعاء، فقال رسول الله ﷺ: أيُّها النّاس أربعوا على أنفسكم، فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً. إنَّ الذي تدعونه سميع قريب. . الحديث.

وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال: إن كان الرجل، لقد جمع القرآن وما يشعر به النّاس، وإن كان الرجل، لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به النّاس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّور وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السرّ، فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، إنْ كان إلاَّ همْساً بينهم وبين ربهم. وذلك أنّ الله تعالى

يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾. وذلك أنّ الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾[1].

وقال ابن جريج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاسْتكانة[2].

وفي الإعتداء المذكور هاهنا قولان:

أحدهما: أنّه الإعتداء في الدعاء. ثم فيه ثلاثة أقوال. أحدها: أن يدعو على المؤمنين بالشر، كالخزي واللعنة، قاله سعيد بن جبير، مقاتل.

والثاني: أن يسأل مالا يستحقه من منازل الأنبياء، قاله أبو مجلز.

والثالث: أنّه الجهر في الدّعاء، قاله ابن السائب.

والآخر: أنّه مجاوزة المأمور به، قاله الزجّاجْ[3].

وروى الإمام أحمد عن مولى لسعد أنّ سعداً سمع ابْناً له يدعو وهو يقول اللهم إنّي أسألك الجنة ونعيمها واسْتبرقها ونحْواً من هذا، وأعوذ بك من النّار وسلاسلها وأغْلالها، فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً وتعوذت به من شرّ كثير وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّه سيكون قوم يعتدون في الدعاء» ـ وفي لفظ ـ «ويعتدون في الطهور والدّعاء» ـ وقرأ هذه الآية ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً﴾ الآية ـ وإن بحسبك أن تقول: اللّهم إنّي أسألك الجنّة وما قرب إليها من قول أوْ عمل،

(١) ٣/ من سورة مريم.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ج ٧ ص ١٤٨، ١٤٩.

(٣) زاد المسير ج ٣ ص ٢١٥ بتصرف.

وأعوذ بك من النّار وما قرب إليها من قولٍ أوْ عمل.

وروى الإمام أحمد: عن أبي نعامة أنّ عبد الله بن مغفل سمع ابْنه يقول: اللّهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بنيّ سل الله الجنة وعُذْ به من النّار، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول «يكون قوم يعتدون في الدّعاء والطهور». وإسناده حسن لا بأس به[1][2].

---

(1) ابن كثير ج ٢ ص ٢٣١.

(2) ونحو الآية: قوله تعالى في آخر هذه السورة [سورة الأعراف] ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾. [آية رقم ٢٠٥].

قال القاسمي: وهو خطاب للنبيّ ﷺ، والمراد عام. أو المعنى: واذكر ربَك أيها الإنسان. والأول أظهر.

ثم إنّه تعالى ذكر آداباً لذكره:

الأول: أن يكون في نفسه، لأنّ الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى الإجابة، وأبْعد من الرّياء.

الثاني: أن يكون على سبيل التضرع، وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير، ليتحقق بذلّة العبودية لعزّة الربوبية.

الثالث: أن يكون على وجه الخيفة، أي الخوف والخشية من سلطان الربوبية، وعظمة الألوهية، من المؤاخذة على التقصير في العمل، لتخشع النفس، ويخضع القلب.

الرابع: أن يكون دون الجهر، لأنّه أقرب إلى حسن التفكير. قال ابن كثير: فلهذا يستحب أن لا يكون الذكر نداءً ولاَ جهراً بليغاً. كما جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع النّاس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبيّ ﷺ: يا أيُّها النّاس!

ثم قال سبحانه: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ أي ولا تفسدوا شيئاً في الأرض فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس بالقتل، وبقطع الأعضاء، وإفْساد الأموال بالغضب والسرقة ووجوه الحيل، وإفْساد الأديان بالكفر والبدعة، وإفْساد الأنساب بتسبب الإقْدام على الزّنا واللواطة وغير ذلك.

وذلك لأنّ المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة: النفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول.[1]

﴿وَادْعُوه خَوْفَاً وَطَمَعاً﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتخوّف وتأميل لله عزّ وجلّ، حتّى يكون الرّجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحْملانه في طريق اسْتقامته وإن انْفرد أحدهما هلك الإنسان. قال الله تعالى: ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[2] فرجّى وخوّف. فيدعو الإنسان خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه، قال الله تعالى ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾[3][4] والخوف: الإنزعاج لما لا يؤمن من المضار. والطمع: توقع المحبوب، قاله القشيري.

= ارْبعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنّ الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته. [محاسن التأويل ج ٧ ص ٣٣٢، ٣٣٣].

(١) الرازي ج ١٤ ص ١٣٩.

(٢) ٤٩، ٥٠/ من سورة الحجر.

(٣) ٩٠/ من سورة الأنبياء.

(٤) وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله.

وقال بعض أهل العلم: ينبغي أن يغلب الخوفُ الرّجاء طول الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرّجاء. قال النبيّ ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلاّ وهو يحسن الظنّ بالله» صحيح أخرجه مسلم(1).

وقال الشوكاني: فيه أنه يشرع للداعي أن يكون عند دعائه خائفاً وجلاً طامعاً في إجابة الله لدعائه، فإنّه إذا كان عند الدّعاء جامعاً بين الخوف والرّجاء ظفر بمطلوبه(2).

وذكر القاسمي في تفسيرة لطائف، منها:

قال في «اللباب»: إن قلت: قال في أول الآية ﴿ادْعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ وقال هنا «وَادْعُوهُ» وهذا هو عطف الشيء على نفسه، فما فائدة ذلك؟

قلت: الفائدة فيه أنّ المراد بقوله تعالى ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: ليكن الدعاء مقْروناً بالتضرع والإخبات. وقوله ﴿وَادْعُوهُ خَوفاً وَطَمَعاً﴾ أنّ فائدة الدعاء أحد هذين الأمرين، فكانت الآية الأولى في بيان شرط صحة الدعاء، والآية الثانية في بيان فائدة الدّعاء. وقيل: معناه كونوا جامعين في أنفسكم بين الخوف والرّجاء في أعمالكم كلّها، ولا تطمعوا أنّكم وفيتم حقّ الله في العبادة والدّعاء، وإن اجتهدتم فيهما(3). ثم بيّن فائدة الدّعاء وعلّل سبب طلبه فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي إنّ رحمته تعالى قريبة من المحسنين

---

(1) قرطبي ج ٧ ص ٢٢٧.

(2) الشوكاني ج ٢ ص ٢١٣.

(3) محاسن التأويل ج ٧ ص ١٥١، ١٥٢.

أعمالهم، لأنّ الجزاء من جنس العمل كما قال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[1].

فمن أحسن في عبادته نال حسن الثواب، ومن أحسن في الدّعاء أعطي خيراً ممّا طلبه، أوْ مثل ما طلبه.

وقد طلب الله الإحسان في كلّ شيء يهدي إليه دين الفطرة، وحرم الإساءة في كلّ شيء وجعل جزاءها من جنسها كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[2][3].

وقال الشوكاني: هذا إخبار من الله سبحانه بأنّ رحمته قريبة من عباده المحسنين بأيّ نوع من الأنواع كان إحسانهم، وفي هذا ترغيب للعباد إلى الخير وتنشيط لهم، فإنّ قرب هذه الرّحمة التي يكون بها الفوز بكلّ مطلوب مقصود لكل عبد من عبادة الله[4].

وقد بين سبحانه وتعالى هؤلاء المحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره كما في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ . . .﴾ الآية[5][6].

---

(١) ٦٠/ من سورة الرحمٰن. (٢) ٣١/ من سورة النجم.

(٣) تفسير المراغي ج ٨ ص ١٧٩، ١٨٠.

(٤) فتح القدير ج ٢ ص ٢١٣.

(٥) ١٥٦، ١٥٧/ من سورة الأعراف.

(٦) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: الآية عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى =

= إخْباراً عن حملة العرش ومن حوله أنّهم يقولون ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [٧/ من سورة غافر] وروى الإمام أحمد عن جندب بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم علقها ثم صلّى خلف رسول الله ﷺ، فلما صلّى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها، ثم نادَى اللّهم ارْحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحد، فقال رسول الله ﷺ «أتقولون هذا أضلّ أمْ بعيره، ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا بلى، قال: «لقد حظرت رحمة واسعة، إنّ الله عزّ وجلّ خلق مائة رحمة، فأنـزل رحمـة يتعاطف بها الخلق جنّها وإنْسها وبهائمها وأخّر عنده تسْعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضلّ أمْ بعيره؟».

وروى أحمد أيضاً عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «إن لله عزّ وجلّ مائة رحمة، فمنها رحْمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها وآخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة. [ابن كثير ج ٢ ص ٢٦١].

ثم ذكر من ستكتب لهم الرّحمة فقال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فأثبت رحمتي بمشيئتي للذين يتقون الكفر والمعاصي ويؤتون الصدقة التي تتزكّى بها أنفسهم.

وخص الزّكاة بالذكر دون ما عداها من الطاعات، لأنّ النفوس شحيحة، ففتنتـه تقتضي أن يكـون المـانعـون للزكـاة أكثـر من التّـاركين غيرها من الـطّاعات، كما أنّ في ذلك إيحاء إلى أنّ اليهود أُشْرِبُوا في قلوبهم حبّ المال وفُتِنُوا بجمعه ومنْع بذْله في سبيل الله، كما أني سأكتبها كِتْبَة خاصة للذين يصدّقون بجميع آياتنا التي تدّل على توحيدنا وصدْق رسلنا تصديق إيقان مبني على العلم الصحيح دون تقليد للآباء والأجداد.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ أي إنّ كتابة الرحمة كتابة خاصة لمن يتصفون بالصفات الثلاث المتقدمة: وهم الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ، وهـو وصْـف خاص بمحمـد ﷺ لا يشـاركه فيه غيره من النبيين. =

وقال تعالى:

٤ـ ﴿وكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ* إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَالِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ* وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ* يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ* فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ* خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ* وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ الآية.

أخرج البخاري ومُسْلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي موسَى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنَّ الله سبحانه ليملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفْلته، ثم قرأ: ﴿وكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه قال: إنَّ الله تعالى حذّر هذه الأمّة سطوته بقوله: ﴿وكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ الآيتين.

= [المراغي ج٩ ص ٨٠، ٨١.]

(١) ١٠٢ـ١٠٨ من سورة هود.

أخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ يقول: إنَّا سوف نَفِي لهم بما وعدنا في الآخرة كما وفينا للأنبياء إنَّا ننصرهم.

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ قال: يوم القيامة.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد مثله.

وأخرج ابن جرير عن الضحَّاك في الآية قال: ذاك يوم القيامة يجتمع فيه الخلق كلّهم ويشهده أهل السماء وأهْل الأرض[1].

والمعنى كما قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وكما أخذت أيّها النَّاس أهل هذه القرى التي اقتصصت عليك نبأ أهلها[2] بما أخذتهم به من العذاب على خلافهم أمري وتكذيبهم رسلي وجحودهم آياتي فكذلك أخذي القرى وأهلها إذا أخذتهم بعقابي وهم ظلمة لأنفسهم بكفرهم بالله وإشراكهم به غيره وتكذيبهم رسله، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ﴾ يقول: إنَّ أخْذ ربكم بالعقاب من أخذه أليم، يقول: موجع شديد الإيجاع وهذا أمْر من الله تحذير لهذه الأمة أن يسلكوا في معصيته طريق من قبلهم من الأمم الفاجرة فيحلّ بهم ما حل بهم من المثلات[3].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي لعلامة، وفسرها

---

(١) الدر المنثور ج ٣ ص ٣٤٩.

(٢) راجع إن شئت سورة هود لتقف على قصصهم.

(٣) طبري ج ١٢ ص ٦٨.

البعض: بالعبرة، لما أنها تلزمها. وهو حسن. والتنوين: للتعظيم، أي لعبرة عظيمة ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ فإنَّه إذا رأى ما وقع في الدنيا بالمجرمين من العذاب الأليم اعْتبر به حال العذاب الموعود، فإنَّه عصَا من عصية وقليل من كثير، وانْزَجر بذلك عن المعاصي التي يترتب عليها العذاب وأكبَّ على التقوى والخشية من الله تعالى، وقد أقيم ﴿مَنْ خَافَ﴾ الخ مقام من صدق بذلك لما بينهما من اللزوم، ولأنَّ الاعتبار إنَّما ينشأ من الخوف وذكر هذا القيد لأنّ من أنكر الآخرة وأحال فناء هذا العالم، أسند الحوادث إلى أسباب فلكية وأوْضاع مخصوصة فلم يعتبر بذلك أصلاً ولم ينزجر عن الضلالة قطعاً، وقال: إنّ ما وقع إنَّما وقع لهاتيك الأسباب والأوضاع لَا للمعاصي التي اقترفتها الأمم المهلكة.

وقيل: المراد إنَّ فيما ذكر دليلاً علَى عذاب المجرمين في الآخرة لأنّهم إذا عذّبوا في الدنيا لاجْرامهم ـ وهي دار العمل ـ فلأن يعذّبوا في الآخرة عليه ـ وهي دار الجزاء ـ أوْلى، وقيل: المراد إنّ فيه دليلاً على البعث والجزاء، وذلك أنّ الأنبياء عليهم السلام قد أخبروا باسْتئصال من كذَّبَهُمْ وأشرك بالله، ووقع ما أخبروا به وفْق إخبارهم، وذلك أحد الشواهد على صدقهم، فيكونون صادقين فيما يخبرون به من البعث والجزاء، فلا بد أن يقع لا محالة[1].

وقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة ﴿يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أي يجمع له الناس للمحاسبة والجزاء، والتغيير: للدلالة على ثبات معنَى الجمع وتحقق وقوعه لا محالة،

---

(١) روح المعاني ج ١٢ ص ١٣٧، ١٣٨.

وعدم انفكاك النَّاس عنه، فهو أبْلغ من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾[1] ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع النّاس له ﴿يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي مشهود فيه، حيث يشهد فيه أهل السماوات والأرضين ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي ذلك اليوم الملحوظ بعنواني الجمع والشهد ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ إلاّ لانْقضاء مدّة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة[2].

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي ذلك اليوم المؤخر بانْقضاء أجله المضروب حسبما تقتضيه الحكمة، وهو المروي عن ابن جريج، وفيه من تفخيم شأن اليوم مالاَ يخْفَى ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ أي لا تتكلم بما ينفع وينجي من جواب أوْ شفاعة[3].

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

أخرج الترمذي وحسّنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ قلت يا رسول الله فعَلام نعمل، على شيء قد فرغ منه، أوْ علَى شيء لم يفرغ منه؟ قال: بلْ علَى شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كلّ ميسّر لما خلق له[4].

قولـه ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي من النَّـاس المذكور في قوله ﴿مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أوْ من أهل الموقف المدلول عليهم بقوله ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾

(١) ٩/ من سورة التغابن.
(٢) تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٢٤٠ . ٢٤١ .
(٣) روح المعاني ج ١٢ ص ١٣٩ .
(٤) الدر المنثور ٣ ص ٣٤٩ .

﴿شَقِيٌّ﴾ وجبت له النار بموجب الوعيد ﴿وسعيد﴾ أي ومنهم سعيد وجبت له الجنّة بمقتضى الوعد.

وتقديم الشقّي عَلى السعيد: لأنّ المقام مقام التحذير والإنذار.

قال في التبيان: علامة الشقاوة خمسة أشياء: قساوة القلب وجمود العين والرّغبة في الدّنيا وطول الأمل وقلّة الحياء. وعلامة السعادة خمسة أشياء: لين القلب وكثرة البكاء والزهد في الدّنيا وقصر الأمل وكثرة الحياء.

وعلامة الشقاء: الإعراض عن الحق وطلبه والإصرار على المعاصي من غير ندم عليها والحرص على الدنيا حلالها وحرامها واتّباع الهوَى والتقليد والبدعة.

وعلامة السعادة: الإقبال على الله وطلبه، والإستغفار من المعاصي والتوبة إلى الله والقناعة باليسير من الدنيا وطلب الحلال منها واتّباع السّنّة واجتناب البدعة ومخالفة الهدى[1].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾. الزفير: إخراج النَّفَس مع صوت ممدود، والشهيق: ردّه. كَنَى بهما عن الغَمّ والكرب، لأنّه يعلو معه النفس غالباً[2].

وقال ابن عبّاس: الزّفير في الحلق، والشهيق في الصدر، أي تنفسهم زفير، وأخذهم النَّفَس شهيق، لما هم فيه من العذاب عياذاً بالله من ذٰلك[3].

---

(١) تفسير روح البيان ج ٤ ص ١٨٧.

(٢) محاسن التأويل ج ٩ ص ١٦٩.

(٣) ابن كثير ج ٢ ص ٤٧٦.

وعن قتادة قال: صوت الكافر في النَّار صوت الحمار، أوّله زفير وآخره شهيق.

وقـوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ يعني تعالَى ذكره بقوله ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لابثين فيها، ويعني بقوله ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ أبداً، وذلك أنّ العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت هذا دائم دوام السماوات والأرض، بمعنى أنّه دائم أبداً، وكذلك يقولون هو باق ما اخْتلف الليل والنّهار ـ إلى غير ذلك من العبارات ـ فخاطبهم جلّ ثناؤه بمـا يتعـارفون به بينهم، فقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ والمعنى في ذ. لك خالدين فيها أبداً.

وبنحو ذلك قال ابن زيد في هذه الآية، قال رحمه الله: قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ قال: ما دامت الأرض أرْضاً والسماء سماء، ثم قال ﴿إِلاّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.

واختلف أهل العلم والتأويل في معنَى ذَلك، فقال بعضهم: هذا استثناء اسْتَثْنَاهُ الله في أهل التوحيد أنّه يخرجهم من النَّار إذا شاء الله بعد أن أدْخلهم النَّار.

وعن قتادة: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ والله أعلم بتثنيته، ذكر لنا أنّ ناساً يصيبهم سفع من النَّار بذنوب أصابتهم، ثم يدخلهم الله الجنّة بفضل رحمته يقال لهم الجهنميون.

وعن الضحاك بن مزاحم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ إلى قوله ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قال:

يخرج قوم من النَّار فيدخلون الجنة فهم الذين اسْتَثْنَى لهم[1]. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ وهم أتباع الرَّسل ﴿فَفِي الجَنَّةِ﴾ أي فمأواهم الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ معنى الاستثناء هـهنا أنَّ دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمْراً واجباً بذاته بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى فله المنّة عليهم دائماً، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس.

﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

جاء في الصحيحين: «يُؤتَى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنَّار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النَّار خلود فلا موت».

وفي الصحيح أيضاً: «فيقال: يا أهل الجنَّة إنّ لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإنَّ لكم أن تصحُّوا فلا تسْقموا أبداً، وإنَّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً»[2].

وأخيراً أحب أن أذكر هذا الحديث الجامع ـ بحق ـ للخوف والرجاء.

أخـرج أحمد والترمذي والنسائي عن ابن عمر رضي الله تعالى

---

(1) طبري ج ١٢ ص ٧٠.

(2) ابن كثير ج ٢ ص ٤٧٧.

عنهما قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ قلنا: لا يا رسول الله أما تخبرنا؟ فقال للذي في يده اليمنى: هذا كتاب من ربِّ العالمين فيه أسماء أهل الجنة وآبائهم وقبائلهم ثم أجملهم على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من ربِّ العالمين فيه أسماء أهل النَّار وآبائهم وقبائلهم، ثم أجملهم على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمْر قد فرغ منه؟ فقال: سدّدوا وقاربوا فإنَّ صاحب الجنَّة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أيّ عمل، وأنَّ صاحب النَّار يختم له بعمل أهل النَّار وإن عمل أيّ عمل، ثم قال ﷺ بيده فنبذهما وقال: فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير»(1).

وقال تعالى:

٥- ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾(2).

يجيء هذا الأمر للرسول ﷺ بعد ذكر جزاء الغاوين وجزاء المتقين في سياق السورة(3) والمناسبة بينهما ظاهرة في السياق. ويقدم الله نبأ الغفران والرّحمة على نبأ العذاب، جرْياً على الأصل الذي ارْتضته مشيئته. فقد كتب على نفسه الرحمة. وإنَّما يذكر العذاب وحده أحياناً أوْ يقدم في النَّص لحكمة خاصة في السياق تقتضي إفراده

(1) نقلاً من روح المعاني ج ١٢ ص ١٤٧.

(2) ٤٩، ٥٠/ من سورة الحجر.

(3) راجع الآيات من ٤٣: ٤٨/ من نفس السورة [الحجر].

بالذكر أوْ تقديمه(١).

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ قال: «طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال: «ألَا تراكم تضحكون» ثم أدبر حتّى إذا كان عنـد الحجر رجع إلينا القَهْقَرى فقال: إنّي لما خرجت من الباب جاء جبريل عليه السلام فقال يا محمد إنّ الله يقول لك لِمَ تُقْنِطْ عبادي ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنّه قال في قوله ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي﴾ الآية: بلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لوْ يعلم العبد قدْر عفْو الله لما تورَّعَ من حرام، ولوْ يعلم العبد قدر عذاب الله لبخَعَ نفسه».

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله سبحـانه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمْسك عنده تسعة وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلوْ يعلم الكافر كلّ الذي عنده من رحمة لمْ ييأس من الرحمة، ولوْ يعلم المؤمن بكلّ الذي عند الله تعالى من العذاب لمْ يأمن من النّار»(٢).

ويقـول الـرازي: واعْلم أنّـه ثبت في أصول الفقه: أنَّ ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علّة لذلك الحكم، فهٰهنـا وصفهم بكونهم عباداً له، ثم أثبت عقيب ذكر هذا

---

(١) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢١٠.

(٢) نقلاً من تفسير المراغي ج ١٤ ص ٣١.

الوصف الحكم بكونه غفوراً رحيماً، فهذا يدلّ على أنّ كلَّ من اعْترف بالعبـودية ظهر في حقّه كون الله غفوراً رحيماً، ومن أنكر ذلك كان مستوجباً للعقاب الأليم. وفي الآية لطائف:

إحـداهـا: أنَّـه أضـاف العباد إلى نفسه بقوله ﴿عبادي﴾ وهذا تشريف عظيم: ألَا ترى أنَّه لما أراد أن يشرف محمداً ﷺ ليلة المعراج لم يزد على قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾[1]، ثانيها: أنَّه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألْفاظ ثلاثة:

قولـه ﴿إنِّي﴾ وثانيها: قوله ﴿أنَا﴾ وثالثها: إدْخال حرف الألف واللام على قوله ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ولما ذكر العذاب لم يقل إنّي أنَا المعذب، وما وصف نفسه بذلك بل قال ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾. وثالثها: أنّه أمر رسوله أن يبلغ إليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسـوله على نفسه في الْتزام المغفرة والرَّحمة. ورابعها: أنّه لما قال ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ كان معناه نبِّىء كلّ من كان معترفاً بعبوديتي، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي، وكل ذلك يدلّ على تغليب جانب الرَّحمة من الله تعالى[2].

وقوله ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أي وأخبرهم أيضاً بأنّ عذابي لمن أصرّ على معاصيّ وأقام عليها ولـم يتب منها ـ هو العذاب المؤلم الموجع الذي لا يشبهه عذاب آخر.

وفي هذا تهديد شديد وتحذير لخلقه أن يقدموا على معاصيه،

---

(١) الآية الأولى من سورة الإسراء.

(٢) الرازي ج ١٩ ص ١٩٩.

ومن الأمر لهم بالإنابة والتوبة.

والخلاصة: إنَّ الله جمع لعباده بين التبشير والتحذير، ليكونوا على قدمي الرجاء والخوف، وحال الأنس والهيبة[1].

وقال تعالى:

٦ـ ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا* أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾[2].

أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجنّ فأسْلم النّفر من الجن وتمسك الإنسيون بعبادتهم فأنزل الله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيراً.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ

---

(١) تفسير المراغي ج ١٤ ص ٣٢.

(٢) ٥٦، ٥٧/ من سورة الإسراء.

﴿الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ قال: عيسَى وأمّه وعزير.[1]

وقيل: إنَّ المشـركين كانـوا يعبـدون الملائكة، ويقولون: هي تشفع لنا عند الله، فلما ابْتلوا بالقحط سبع سنين، قيل لهم: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ قاله مقاتل[2].

وقـولـه ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون بأنفسهم ﴿كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ كالمرض والفقر والقحط وغيرها.

﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ولا نقْله منكم إلى غيركم ممّن لم يعبدهم أوْ وَلاَ تبـديله بنـوع آخر، ومن لا يملك ذلك لا يستحق العبادة، إذْ شرط اسْتحقـاقهـا القدرة الكاملة التامة على دفع الضرَّ وجلْب النَّفع، ولا تكون كذلك إذا كانت مفاضة من الغير[3].

وقـوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ «أُولِئكَ» مبتدأ «الَّذِينَ» صفـة «أُولَئِكَ» وضمير الصلة محذوف، أي يدعونهم. يعني أولئك المدعوّون. و «يبتغون» خبر، أوْ يكون حالاً، و «الَّذِينَ يَدْعُونَ» خبر، أي يدعون إليه عباداً إلى عبادته. وقرأ ابن مسعود «تدعون» بالتّاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبر.

ومعنى «يبتغون» يطلبون من الله الزُّلفة والقربة، ويتضرعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، وهي الوسيلة.

أعلمهم الله تعالى أنّ المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم. والهاء

---

(١) الدر المنثور ج ٤ ص ١٨٩، ١٩٠.

(٢) زاد المسير ج ٥ ص ٤٩.

(٣) روح المعاني ج ١٥ ص ٩٨.

والميم في ﴿ربّهم﴾ تعود على العابدين أو على المعبودين أوْ عليهم جميعاً. وأما ﴿يدعون﴾ فعلَى العابدين. و ﴿يبتغون﴾ على المعبودين. ﴿أيُّهمْ أقْربُ﴾ ابتداء وخبر. ويجوز أن يكون ﴿أيُّهُمْ أقْرَبُ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿يبتغون﴾، والمعنَى: يبتغي أيَّهم أقرب الوسيلة إلى الله. ﴿ويَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ أي مَخوفاً لَا أمانَ لأحد منه، فينبغي أن يحذر منه ويخاف.وقال سهل بن عبد الله: الرّجاء والخوف زمانان على الإنسان، فإذا اسْتويا اسْتقامت أحواله، وإن رجح أحدهما بطل الآخر[1].

وقال العلامة الألوسي في قوله تعالى ﴿إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ حقيقاً بأن يحذره ويحترز عنه كلّ أحد من الملائكة والرسل عليهم السلام وغيرهم، والجملة تعليل لقوله سبحانه ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ وفي تخصيصه بالتعليل زيادة تحذير للكفرة من العذاب، وتقديم الرَّجاء على الخوف لما أنّ متعلقه أسبق من متعلقه، ففي الحديث القدسي «سبقت رحمتي غضبي» وفي اتّحاد أسلوبي الجملتين إيماء إلى تساوي رجاء أُولَئِكَ الطالبين للوسيلة إليه تعالى بالطاعة والعبادة وخوفهم، وقد ذكر العلماء أنّه ينبغي للمؤمن ذلك مالم يحضره الموت، فإذا حضره الموت ينبغي أن يغلب رجاؤه على خوفه، وفي الآية دليل على أنّ رجاء الرحمة وخوف العذاب ممَّا لا يخلّ بكمال العابد[2].

---

(١) قرطبي ج ١٠ ص ٢٧٩، ٢٨٠.

(٢) روح المعاني ج ١٥ ص ١٠٠.

وقال تعالى :

٧ـ ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾(١).

يقول الرازي : اعْلم أنَّه تعالى بيّن انقطاع زكريا عليه السلام إلى ربّه تعالى لمّا مسّه الضّرّ بتفرده، وأحبَّ من يؤنسه ويقويه علَى أمْر دينه ودنياه ويكون قائماً مقامه بعد موته، فدعَا الله تعالَى دعاء مخلص عارف بأنّه قادر على ذلك. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما : كان سنّه مائة، وسنّ زوجته تسْعاً وتسعين(٢).

والمعنى : يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ : واذكر يا محمد زكريا حين نادَى ربه ربّ لا تذرْني وحيداً فرداً لَا وَلَد لي ولاَ عقب ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ يقول: فارْزقني وارثاً من آل يعقوب يرثني، ثم ردّ الأمر إلَى الله فقال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾. يقول الله جلّ ثناؤه: فاستجبنا لزكريا دعاءه ووهبنا له يحْيىٰ ولداً ووارثاً يرثه، وأصْلَحْنا لَهُ زَوْجه.

واختلف أهل التأويل في معْنَى الصلاح الذي عناه الله جلّ ثناؤه بقوله ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ فقال بعضهم : كانت عقيماً فأصْلحها بأن جعلها ولوداً.

جاء ذلك عن ابن عبّاس وقتادة وسعيد. وقال آخرون : كانت سيّئة

---

(١) ٨٩، ٩٠/ من سورة الأنبياء.

(٢) الرازي ج ٢٢ ص ٢١٧.

الخلق فأصلحها الله له بأن رزقها حسن الخلق.

قال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله أصْلح لزكريا زوجه كما أخبر تعالى ذكره بأن جعلها ولوداً حسنة الخلق لأنّ كلَّ ذلك من معاني إصْلاحه إيَّاها، ولم يخصص الله جلّ ثناؤه بذلك بعضاً دون بعض في كتابه ولاَ عَلى لسان رسوله ولا وضع على خصوص ذلك دلالة، فهو على العموم مالم يأت ما يجب التسليم له بأنّ ذلك مراد به بعض دون بعض.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يقول الله تعالى: إنَّ الذين سميناهم يعني زكريا وزوجه ويحيَى كانوا يسارعون في الخيرات في طاعتنا والعمل بما يقربهم إلينا.

وقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ يقول تعالى ذكره: وكانوا يعبدوننا رغباً ورهباً، وعنى بالدعاء في هذا الموضع: العبادة، كما قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[1]. ويعني بقوله ﴿رَغَباً﴾ أنّهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله ﴿وَرَهَباً﴾ يعني رهبة منهم من عذابه وعقابه بتركهم عبادته وركوبهم معصيته.

وبنحو ذلك قال ابن جريج: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهباً﴾ قال: رغباً في رحمة الله ورهباً من عذاب الله. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وَيدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ قال: خوفاً وطمعاً، قال: وليس ينبغي لأحدهما أن يفارق الآخر[2].

---

(١) ٤٨/ من سورة مريم.

(٢) طبري ج ١٧ ص ٦٦، ٦٧.

وهـذه الآية كقـولـه: ﴿يَحْـذَرُ الْآخِـرَةَ وَيَـرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾[1] والمعنى: أنَّهم ضمّوا إلى فعـل الـطاعات والمسارعة فيها أمرين: «أحـدهما» الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرَّهبة من عقـابـة، «والثاني» الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفاً من الإثم[2].

وقوله: ﴿وكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس: أي مصدّقين بما أنزل الله.

وقال مجاهد: مؤمنين حقاً، وقال أبو العالية: خائفين، وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً، وعن مجاهد أيضـاً: خاشعين أي متـواضعين، وقـال الحسن وقتـادة والضحاك: خاشعين أي متذللين لله عزّ وجلّ، وكلّ هذه الأقوال متقاربة. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن حكيم قال خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال أمَّـا بعد فإني أوصيكم بتقوى الله وتثْنوا عليه بما هو له أهْل وتخلطوا الرّغبة بالرّهبة وتجمعوا الإلْحاف بالمسألة فإنَّ الله عزّ وجلّ أثْنَى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهباً وكَانُوا لنا خَاشِعِينَ﴾[3].

وقال تعالى:

٨ـ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بالسَّاعَةِ وَأعْتَدنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً* إذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً* وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً

(١) ٩/ من سورة الزّمر.

(٢) التفسير الكبير للرازي ج ٢٢ ص ٢١٨.

(٣) ابن كثير ج ٣ ص ٢٠٣.

مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً* وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً* لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً﴾[1].

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعةِ﴾ أي ما أنكر هؤلاء المشركون ما جئتهم به من الحق، وتقوّلوا عليك ما تقوّلوا[2]، إلّا من قِبل أنّهم لا يوقنون بالبعث، ولا يصدقون بالثواب والعقاب.

والخلاصة: إنَّهم أتوا بأعجب من هذا كلّه، وهو تكذيبهم بالسّاعة، ومن ثَمَّ فهم لا ينتفعون بالدلائل، ولا يتأملون فيها.

ثم توعدهم وبيّن عاقبة أمرهم وما كُتِبَ لمثلهم من الخيبة والخذلان فقال: ﴿وَأَعْتَدنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾.

أي: إنّا أعددنا لمن كذَّب بالبعث والحشر، والنّشر والحساب والجزاء ناراً تُسّعَر وتتّقد عليهم، وإذا كانت منهم بمرْأى الناظر سمعوا لها صوتاً يشبه صوت المتغيِّظ، لشدّة توقدها، وصوت الزّفير الذي يخرج من فم الحزين المتهالك حسرة وألماً[3].

ومعنى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي من مسيرة خمسمائة

---

(١) ١١ـ ١٦/ من سورة الفرقان.

(٢) راجع الآيات التي قبلها من نفس السورة.

(٣) المراغي ج ١٨ ص ١٥٦، ١٥٧.

عام، ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾قيل: المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم.

وقيل: المعنى إذا رأتهم خزّانها سمعوا لهم تغيظاً وزفيراً حرْصاً على عذابهم. والأول أصح، لما روي مرفوعاً أنّ رسول الله ﷺ قال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ بين عيني جهنم مقْعداً» قيل: يا رسول الله! ولها عينان؟ قال: «أما سمعتم الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ يخرج عُنق من النّار له عينان تبصران، ولسان ينطق فيقول: وُكِّلت بكلّ من جعل مع الله إلٰهاً آخر فلهو أبْصر بهم من الطير بحبّ السمسم فيلتقطه» وفي رواية «فيخرج عُنق من النّار فيلتقط الكفار لقْط الطائر حبّ السمسم» ذكره رَزِين في كتابه، وصححه ابن العربي في قبسه، وقال: أي تفصلهم عن الخلق في المعرفة كما يفصل الطائر حبّ السمسم من التربة.

وخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يخرج عُنق من النّار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول: إنّي وُكِّلت بثلاث: بكل جبّار عنيد، وبكلّ من دعَا مع الله إلٰهاً آخر، وبالمصوِّرين»[1].

والتغيظ: صوت يدل على التغيظ على الكفار أوْ لغليانها صوتاً يشبه صوت المغتاظ. والزفير: هو الصوت الذي يسمع من الجوف. قال الزجاج: المراد سماع ما يدلّ على الغيظ وهو الصوت: أي سمعوا لها صوتاً يشبه صوت المتغيظ.

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً﴾ وصْف المكان بالضيق للدلالة

---

(١) قرطبي ج ١٣ ص ٧، ٨.

على زيادة الشّدة وتناهي البلاء عليهم، وانتصاب ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ على الحال: أي إذا ألقوا منها مكاناً ضيّقاً حال كونهم مقرّنين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع مصفدين بالحديد، وقيل: مكتفين، وقيل: قرنُوا مع الشياطين: أي قرن كلّ واحد منهم إلى شيطانه[1]. ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة ﴿ثُبُوراً﴾ أي يتمنون هلاكاً وينادونه يا ثبوراه تعال فهذا حينك وأوانك[2]. ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحداً﴾ أي لا تقتصروا علَى دعاء ثبور واحد ﴿وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ أي بحسب كثرة الدُّعاء المتعلق به لَا بحسب كثرته في نفسه فإنَّ ما يدعون ثبوراً واحداً في حدّ ذاته، وتحقيقه: لا تدعوه دعاء واحداً وادْعُوه أدْعيةً كثيرة فإنَّ ما أنتم فيه من العذاب لغاية شدته وطول مدته مستوجب لتكرير الدعاء في كلّ آن[3].

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث. قال السيوطي بسند صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أول ما يكسَى حلّته من النّار إبليس، فيضعها عَلى حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه، ويقولون يا ثبورهم حتّى يقف علَى النّاس فيقول يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم، فيقال لهم: لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادْعوا ثُبوراً كثيراً[4]».

---

(١) فتح القدير للشوكاني ج ٤ ص ٦٤.

(٢) تفسير أبي السعود ج ٦ ص ٢٠٦.

(٣) روح البيان ج ٦ ص ١٩٥.

(٤) فتح القدير ج ٤ ص ٦٦.

ثم قال تعالى لنبيّه محمد: هذا الذي وصفْناه لك من حال الأشقياء الذين يحشرون علَى وجوههم إلَى جهنّم فتلْقاهم بوجه عبوس وتغيّظ وزفير ويلقون في أماكنها الضيق مقرنين لا يستطيعون حراكاً ولاَ اسْتنصاراً ولاَ فكاكاً ممّا هم فيه، أهَذَا خير أم جنّة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده التي أعدّها لهم وجعلها لهم جزاءً ومصيراً علَى ما أطاعوه في الدّنيا وجعل مآلهم إليها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشاءُونَ﴾ من الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر وغير ذلك ممّا لاَ عيْن رأت ولاَ أذن سمعت ولا خطرَ علَى قلب أحد وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرْمداً بلا انْقطاع ولا زوال ولاَ انْقضاء ولا يبْغون عنها حولاً، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً﴾ أي لا بدّ أن يقع وأن يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء العربية أنّ معنَى قوله ﴿وَعْداً مَسْئُولاً﴾ أي وعداً واجباً. وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عبّاس ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً﴾ يقول: فسألوا الذي وعدهم وتنجزوه.

وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون ربّنا عملنا لك بالذي أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا فذلك قوله ﴿وَعْداً مَسْئُولاً﴾ وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النّار ثم التنبيه علَى حال أهل الجنّة كما ذكر تعالى في سورة الصافات حال أهل الجنّة وما فيها من النضرة والحبور ثم قال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَة الزَّقُّوم * إنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمينَ* إنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْل الْجَحِيم* طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينَ* فَإنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ* ثُمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَىٰ الْجَحِيم* إنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ

ضَالِّينَ* فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾(١)(٢).

وقال تعالى:

٩ـ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَالِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ* جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ* وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ* الَّذي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ* وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ* وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ الآية.

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: هم أمّة محمد ﷺ، ورثهم الله كلّ كتاب أنزل، فظالمهم مغفور له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنّة بغير حساب.

---

(١) ٦٢ ـ ٧٠/ من سورة الصافات، ويفضل مراجعة الآيات التي قبلها والتي تتحدث عن أهل الجنة.

(٢) ابن كثير ج ٣ ص ٣٢٣.

(٣) ٣٢ ـ ٣٧/ من سورة فاطر.

وأخرج الطيالسي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسّنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنّه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال: هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلّهم في الجنة.

وأخرج الطيالسي - أيضاً - وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم وابن مردويه عن عقْبة بن صهْبان قلت لعائشة: أرأيت قول الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ الآية. قالت: أمّا السابق فقد مضى في حياة رسول الله ﷺ فشهد له بالجنة، وأمّا المقتصد فمن اتّبع أمرهم فعمل بمثل أعمالهم حتّى يلحق بهم، وأمّا الظالم لنفسه فمثلي ومثلك ومن اتّبعنا، وكلّ في الجنة.

وأخرج الطبراني والبيهقي في البعث عن أسامه بن زيد رضي الله عنه: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال رسول الله ﷺ: كلّهم من هذه الأمة وكلّهم في الجنة[1].

والمعنى - كما قال ابن كثير -: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدّق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وهو المفرط في فعْل الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات

---

(١) الدر المنثور ج ٥ ص ٢٥١.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات[1].

وقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما تقدم من الإيراث والإصْطفاء ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ من الله عزّ وجلّ لا دخل للكسب فيه[2].

ثم أخبربثوابهم، فجمعهم في دخول الجنة فقال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي جنّات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عزّ وجلّ ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «تبلغ الحلْية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء».

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا، فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة، وثبت في الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدّنيا لم يلبسه في الآخرة» وقال: «هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»[3].

ثم أخبر عمّا يقولون عند دخولها، وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ الحزن والْحُزْن واحد، كالبَخَل والْبُخْل.

وفي المراد بهذا الحزن خمسة أقوال. أحدها: أنّه الحزن لطول المقام في المحشر. والثاني: أنّه الجوع، والثالث: أنّه حزن النّار. والرابع: حزنهم في الدّنيا على ذُنوب سلفت منهم. والخامس: حزن الموت. والآية عامة في هذه الأقوال وغيرها.

---

(١) ابن كثير ج ٣ ص ٥٦٢.
(٢) روح المعاني ج ٢٢ ص ١٩٨.
(٣) ابن كثير ج ٣ ص ٥٦٥.

وحزنهم إنّما كان على ذنوبهم وما يوجبه الخوف[1].

قال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إنَّ الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء القوم الذين أكرمهم بما أكرمهم به، أنّهم قالوا حين دخلوا الجنة ﴿**الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**﴾وخوف دخول النار من الحزن، والجزع من الموت من الحزن، والجزع من الحاجة إلى المطعم من الحزن، ولم يخصص الله إذْ أخبر عنهم أنّهم حمدوه على إذْهابه الحزن عنهم نوعاً دون نوع، بل أخبر عنهم أنّهم عمّوا جميع أنواع الحزن بقولهم ذلك، وكذلك ذلك، لأنَّ من دخل الجنة فلا حزن عليه بعد ذلك، فحمدهم علَى إذْهابه عنهم جميع معاني الحزن.

وقوله: ﴿**إنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُور**﴾ يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل هذه الأصناف الذين أخبر أنَّه اصْطفاهم من عباده عند دخولهم الجنة: إنَّ ربنا لغفور لذنوب عباده الذين تابوا من ذنوبهم فساترها عليهم بعفوه لهم عنها، شكور لهم على طاعتهم إيَّاه وصالح ما قدّموا في الدُّنيا من الأعمال[2].

﴿**الَّذي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَة مِنْ فَضْلِهِ**﴾ أي دار الإقامة لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وإدخالهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها حيث قالوا: ﴿**الَّذي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَة**﴾ أي الإقامة.

وفي قوله: ﴿**دَارَ الْمُقَامَةِ**﴾ إشارة إلى أنّ الدنيا منزلة ينزلها

---

(١) زاد المسير ج ٦ ص ٤٩١، ٤٩٢ باختصار وتصرف.

(٢) طبري ج ٢٢ ص ٩١، ٩٢.

المكلف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور ومنها إلى منزلة العرصة التي فيها الجمع ومنها التفريق[1].

وقوله: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي من إنْعامه سبحانه وتفضله وكرمه، فإنّ العمل وإن كان سبباً لدخول الجنة في الجملة، لكن سببيّته بفضل الله عزّ وجلّ أيْضاً، إذْ ليس هناك استحقاق ذاتي.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كلال وفتور، وهو نتيجة النّصب، وضمّه إليه. وتكرير الفعل المنفي: للمبالغة في بيان انتفاء كلّ منهما. كذا قال جمع من الأجلة.

وقال بعضهم: النّصب: التعب الجسماني، واللغوب: التّعب النفساني[2].

ولما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان مآل الأشقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[3]. وثبت في صحيح مُسلم أنّ رسول الله ﷺ قال: «أمّا أهل النّار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون». وقال عزّ وجلّ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[4] فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ولكن لا سبيل إلى ذلك. قال الله تعالى ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ كما قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ

---

(١) التفسير الكبير للرازي ج ٢٦ ص ٢٧، ٢٨.

(٢) روح المعاني ج ٢٢ ص ١٩٩، ٢٠٠.

(٣) ١٣/ من سورة الأعلىٰ.

(٤) ٧٧/ من سورة الزخرف.

جَهَنَّمَ خالِدُون لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[1] وقال جلّ وعلا: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾[2] ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إلاَّ عَذَاباً﴾[3] ثم قال تعالى: ﴿كَذَالِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي هذا جزاء كلّ من كفر بربّه وكذب بالحقّ. وقوله جلّت عظمته: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي ينادون فيها يجأرون إلَى الله عزّ وجلّ بأصواتهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الربّ جلّ جلاله أنّه لو ردّهم إلَى الدّار الدّنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنّهم لكاذبون، فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم كما قال تعالى مخبراً عنهم في قوله: ﴿فَهَلْ إلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيل﴾[4] ﴿ذَالِكُمْ بِأَنَّهُ إذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾[5] أي لا يجيبكم إلَى ذلك لأنكم كنتم كذلك ولو رددتم لعدتم إلَى ما نهيتم عنه ولذا قال هٰهنا: ﴿أوْلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾[6].

وفي مقدار هذا التعمير أربعة أقوال:

أحدها: أنّه سبعون سنة، قال ابن عمر: هذه الآية تعيير لأبناء السبعين.

---

(١) ٧٤، ٧٥/ من سورة الزخرف.

(٢) ٩٧/ من سورة الإسراء.

(٣) ٣٠/ من سورة النّبأ.

(٤) ٤٤/ من سورة الشورى، ونصّها ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

(٥) ١٢/ من سورة غافر.

(٦) ابن كثير ج ٣ ص ٥٦٥، ٥٦٦.

والثاني: أربعون سنة.

والثالث: ستّون سنة، رواهما مجاهد عن ابن عباس[1].

وبالأول منهما قال الحسن، وابن السّائب.

والرابع: ثماني عشرة سنة، قاله عطاء، ووهب بن منبّه، وأبو العالية، وقتادة.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ فيه أربعة أقوال. أحدها: أنّه الشّيب، قاله ابن عمر، وعكرمة، وسفيان بن عيينة، والمعنَى: أو لم نعمركم حتّى شِبتم؟! والثاني: النّبيّ ﷺ، قاله قتادة، وابن زيد، وابن السّائب، ومقاتل. والثالث: موت الأهل والأقارب. والرابع. الحمّى، ذكرهما الماوردي[2].

فتأويل الكلام إذاً: أولم نعمركم يا معشر المشركين بالله من قريش[3] من السنين ما يتذكر فيه من تذكر من ذوي الألباب والعقول، واتّعظ منهم من اتّعظ، وتاب من تاب، وجاءكم من الله منذر ينذركم ما أنتم فيه اليوم من عذاب الله فلم تتذكروا مواعظ الله ولم تقبلوا من

---

(١) روى البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أعْذر الله عزّ وجلّ إلَى امْرِئٍ أخّر عمره حتّى بلغ ستين سنة» ورواه أحمد وغيره.

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب علَى أعْمار هذه الأمة.

وقد ثبت في «الصحيح» أنّ رسول الله ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة. [من حاشية زاد المسير ج٦ ص ٤٩٤].

(٢) زاد المسير في علم التفسير ج ٦ ص ٤٩٤، ٤٩٥.

(٣) وغيرهم ممّن صار على طريقتهم.

نذير الله الذي جاءكم ما أتاكم به من عند ربكم[1].

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ إشارة إلى الدوام، وهو أمر إهانة. ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم في غير موضعها، وأتوا بالمعذرة في غير وقتها ﴿مِنْ نَصِيرٍ﴾ في وقت الحاجة ينصرهم.

قال بعض الحكماء: قوله ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِير﴾ وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَار﴾[2] يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلاً مركباً، وهو الذي يعتقد الباطل حقًّا في الدُّنيا ﴿وَمَا لَهُ مِنْ نَصِير﴾ أي من علم ينفعه في الآخرة[3].

وقال تعالى:

١٠ـ ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث كِتَاباً مُتَشابهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ ذَالِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[4]

أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قالوا يا رسول الله لو حدّثتنا، فنزل: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشابِهاً مَثَانِيَ﴾ قال: القرآن كلّه مثاني.

---

(١) طبري ج ٢٢ ص ٩٣.
(٢) ٢٧٠/ من سورة البقرة.
(٣) الرازي ج ٢٦ ص ٣٠.
(٤) ٢٣/ من سورة الزمر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله: ﴿مَثَانِيَ﴾ قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً ويرد بعضه إلى بعض.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿مُتَشَابِهاً﴾ قال: يفسر بعضه بعضاً ويدلّ بعضه على بعض.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ هذا نعت أولياء الله نعتهم الله تعالى، قال: تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى، ولم ينعتهم الله تعالى بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم إنّما هذا في أهل البدع وإنّما هو من الشيطان.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الآية. قال: إذا سمعوا ذكر الله والوعيد اقْشعروا: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾ إذا سمعوا ذكر الجنّة، واللين يرجون رحمة الله.

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء رضي الله عنها كيف كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرؤا القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى، تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم، قلت: فإنّ ناساً هٰهنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية، فقالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وعن عامر بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: جئت أمّي فقلت وجدت قوماً ما رأيت خيراً منهم قط، يذكرون الله تعالى فيرعد أحدهم حتّى يغْشَى عليه من خشية الله، فقالت: لا تقعد معهم، ثم

قالت: رأيت رسول الله ﷺ يتلو القرآن، ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يصيبهم هذا، أتراهم أخْشَى من أبي بكر وعمر؟.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر عن إبراهيم رضي الله عنه في الرّجل يرَى الضوء؟ قال: من الشيطان، لو كان يرَى خيراً لأوثر به أهل بدر.

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: إذا اقْشَعرّ جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة البالية ورقها[1].

وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحي: مرّ ابن عمر برجل من أهل القرآن ساقط، فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنّه إذا قرىء عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط. فقال ابن عمر: إنّا لنخشَى الله وما نسقط. ثم قال: إنّ الشيطان يدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد ﷺ.

وقال عمر بن عبد العزيز: ذكر عند ابن سيرين الذين يُصْرعون إذا قرىء عليهم القرآن، فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم علَى ظهر بيت باسطاً رجليه ثمّ يقرأ عليه القرآن من أوّله إلى آخره، فإنْ رمَى بنفسه فهو صادق. وقال أبو عمران الجوني: وعظ موسى عليه السلام بني إسرائيل ذات يوم فشقّ رجل قميصه، فأوحَى الله إلى موسى: قل لصاحب القميص لا يشق قميصه فإنّي لا أحبّ المبذرين، يشرح لي عن قلبه[2].

---

(١) الدر المنثور ج ٥ ص ٣٢٥، ٣٢٦.

(٢) قرطبي ج ١٥ ص ٢٤٩، ٢٥٠.

وقال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ أي هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه: «أحدها» أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات، «الثاني» أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكيًا بأدب وخشية ورجاء ومحبّة وفهم وعلْم كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ* أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً﴾[(٢)] أي لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصْغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها، فلهذا إنَّما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عنْ جهل ومتابعة لغيرهم. «الثالث» أنّهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية مالا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا

(١) ٢-٤ / من سورة الأنفال.

(٢) ٧٣/ من سورة الفرقان.

بالمدح من الربّ الأعلى في الدنيا والآخرة[1].

وقال القرطبي: قيل إنّ القرآن لما كان في غاية الجزالة والبلاغة، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته، اقْشعرت الجلود منه إعْظاماً له، وتعجباً من حسن ترصيعه وتهيباً لما فيه، وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[2] فالتصدع قريب من الاقْشعرار، والخشوع قريب من قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ ومعنَى لين القلب: رقّته وطمأنينته وسكونه، ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي القرآن هدَى الله. وقيل: أي الذي وهبه الله لهؤلاء من خشية عقابه ورجاء ثوابه هدى الله. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي منْ خذله فلا مرشد له وهو يردّ على القدرية وغيرهم[3].

وقال تعالى:

١١- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ* قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ* وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ* وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ

---

(١) ابن كثير ج ٤ ص ٥٥، ٥٦.

(٢) ٢١/ من سورة الحشر.

(٣) قرطبي ج ١٥ ص ٢٥٠.

الْجَنَّـةِ حَيْثُ نَشَـاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ* وَتَرَىٰ الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

قولـه : ﴿وَسِيقَ الَّـذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً﴾ الخ . تفصيل للتوفية[2] وبيان لكيفيتها، والفاء ليس بلازم، والسوق: يقتضي الحثّ على المسير بعنف وازْعاج وهو الغالب، ويشعر بالإهانة، وهو المراد هنـا، أي سيقـوا إليها بالعنف والإهانة أفواجاً متفرقة بعضها في إثر بعض، متـرتبـة حسب طبقاتهم في الضلالة والشرارة، والزمر جمع زمرة، قال الراغب: هي الجماعة القليلة، ومنه قيل: شاة زمرة قليلة الشعر، ورجل زمر قليل المروءة، ومنه اشْتق الزمر، والزمارة كناية عن الفـاجـرة، وقـال بعضهم: اشتقـاق الزمرة من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه[3].

ونحو الآية قوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[4] أي يدفعون إليها دفْعاً.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَـا فُتِحَتْ أَبْـوَابُهَـا﴾ أي حتّى إذا وصلوا إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً ليدخلوها، كأبواب السجون لا تزال مغلقة حتّى يأتي أرباب الجرائم الذين يسجنون فيها، فتفتح ليدخلوها، فإذا

---

(١) من ٧١ إلى آخر سورة الزّمر.

(٢) راجع الآية التي قبلها من نفس السورة، ونصّها : ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

(٣) روح المعاني ج ٢٤ ص ٣١، ٣٢.

(٤) ١٣/ من سورة الطور.

دخلوها أغلقت عليهم(1).

وهــذا من قبيل العــذاب الـروحـاني وهـو أشـدّ من العـذاب الجسماني، فليس وقوفهم عند الأبواب أولى لهم من تعجيل العذاب، يؤيده أنّ الكـافر حين يطول قيامه في شدة وزحمة وهو يقول يا ربّ أرِحْنِي ولو كان بالنّار.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ تقريعاً وتوبيخاً وزيادة في الإيلام والتوجيع، واحـدهـا خازن، وهو حافظ الخزانة وما فيها، والمراد حفظة جهنم وزبانيتها وهم الملائكة الموكلون بتعذيب أهلها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ من جنسكم آدميون مثلكم ليسهــل عليكم مراجعتهم وفهْم كلامهم: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ وهو ما أنزل الله على الأنبياء ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ﴾ يخوفونكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النّار لا يوم القيامة(2).

وقـالـوا لهم هذا القول تقريعاً وتوبيخاً، فأجابوا بالاعْتراف ولم يقدروا علَى الجدل الذي كانوا يتعللون به في الدنيا لانْكشاف الأمر وظهوره، ولهذا ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي قد أتتنا الرسل بآيات الله وأنذرونا بما سنلقــاه ﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَـةُ الْعَـذَابِ عَلَىٰ الْكَـافِـرِينَ﴾ وهي: ـ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(3) ـ فلما اعترفوا هذا الاعتراف ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ التي قد فتحت لكم لتدخلوها، وانتصاب ﴿خَالِدِينَ﴾ على الحال: أي مقدرين الخلود(4).

---

(1) المراغي ج ٢٤ ص ٣٦.

(2) روح البيان ج ٨ ص ١٤٢.

(3) ١٣/ من سورة السجدة.

(4) فتح القدير للشوكاني ج ٤ ص ٤٧٦.

والمعنى: يقـول تعـالى ذكره: فتقول خزنة جهنم للذين كفروا حينئذ: ادْخُلُوا أبواب جهنَّم السبعة على قدر منازلكم فيها ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكثين فيها لا ينقلون عنها إلى غيرها: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ يقول: فبئس مسكن المتكبرين على الله في الدنيا أن يوحدوه ويفردوا له الألوهية جهنَّم يوم القيامة[1].

وفي التعبير بالمتكبرين: إيماء إلى أنّ دخولهم النَّار لتكبرهم عن قبول الحق والانقياد للرسل المنذرين عليهم الصلاة والسلام، وهو في معنى التعليل بالكفر، ولا ينافي تعليل ذلك بسبق كلمة العذاب عليهم لأنّ حكمه تعالى وقضاءه سبحانه عليهم بدخولهم النار ليس إلَّا بسبب تكبرهم وكفرهم لسوء اختيارهم المعلوم له سبحانه في الأزل[2].

وبعد أن ذكر سبحانه أحوال الأشقياء وما يلاقونه يوم القيامة من الأهوال.. أردفها ذكر أحوال السعداء، وما يلاقونه إذ ذاك من النعيم، وما يقال لهم وما يقولون.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ أي وسيق المتقون إلى الجنَّة جماعة إثر جماعة على النجائب وفوداً إلى الجنة، المقربون فالأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كلّ طائفة منهم مع من يشاكلهم، الأنبياء مع الأنبياء، والصدّيقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم.

والمراد بالسوق هنا الإسراع بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يكرّم من الوافدين على بعض الملوك، وبالسوق المتقدم

---

(١) طبري ج ٢٤ ص ٢٣.

(٢) روح المعاني ج ٢٤ ص ٣٢، ٣٣.

طردهم إلى العذاب والهوان كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس أو القتل، فشتان ما بين السوقين.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي حتّى إذا وصلوا إليها وقد فتحت لهم أبوابها، كما تفتح الخدم باب المنزل للضيف قبل قدومه وتقف منتظرة حضوره فرحاً بمقْدَمه... فرحوا بما أفاء الله به عليهم من النعيم، وبما شاهدوا ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وفي الحديث: «ما منكم من أحد يتوضأ فيُسبغُ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله إلّا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيّها شاء» أخرجه مُسْلم من حديث عمر.

وعن أبي هريرة أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوّل زمرة يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشدّ كوكب دريّ في السماء إضاءة».

وأخرج الشّيخان وغيرهما عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنّة ثمانية أبواب، منها باب يُسَمّى الرَّيان لا يدخله إلّا الصَّائمون»[1].

وأخرج مُسْلم في صحيحه عن ابن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال: «آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرّة ويكبو أخرى وتسفعه النّار مرّة فإذا ما جاوزها الْتفت إليها فقال: تبارك الذي نجّاني منك، لقد أعطاني الله تعالى شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له

---

(١) المراغي ج ٢٤ ص ٣٧، ٣٨.

شجرة فيقول: أي ربّ أدْنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلّها فأشرب من مائها، فيقول الله تعالى: يا ابن آدم لعلي إنْ أعطيتكها سألتني غيرها، فيقول: لا يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربّه يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه فيدنيه» الحديث.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ الخ. عطف على ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وجواب: ﴿إِذَا﴾ محذوف مقدر بعد ﴿خَالِدِينَ﴾ للإيذان بأن لهم حينئذ من فنون الكرامات مالا يحيط به نطاق العبارات كأنّه قيل: إذا جاؤها مفتحة لهم أبوابها، وقال لهم خزنتها ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي من جميع المكاره والآلام. ﴿طِبْتُمْ﴾ أي من دنس المعاصي، وقيل: طبتم نفساً بما أتيح لكم من النعيم المقيم، والأول مروي عن مجاهد، وهو الأظهر، والجملة في موضع التعليل: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي مقدرين الخلود كان ما كان ممّا يقصر عنه البيان، أوْ فازوا بما لَا يعدّ وَلَا يُحْصَى من التكريم والتعظيم[1].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ بالبعث والثواب بالجنة: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة، كأنّها صارت من غيرهم إليهم فملكوها وتصرفوا فيها، وقيل: إنّهم ورثوا الأرض التي كانت لأهل النار لوْ كانوا مؤمنين. قاله أكثر المفسرين، وقيل: إنَّها أرض الدّنيا، وفي الكلام تقديم وتأخير: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف: أي فنعم أجر العاملين الجنة، وهذا من تمام قول أهل الجنة. وقيل: هو من قول الله سبحانه[2].

---

(١) روح المعاني ج ٢٤ ص ٣٣، ٣٤ باختصار.

(٢) فتح القدير ج ٤ ص ٤٧٨.

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن أنس رضي الله عنه في قصة المعراج قال النبي ﷺ «أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك».

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إنّ رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة فقال: درمكة بيضاء مسك خالص فقال رسول الله ﷺ «صدق» رواه مُسْلم وغيره[1].

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي وترى أيها الرائي الملائكة محيطين بجوانب العرش، قائمين بجميع ما يطلب منهم، فيسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتقديس، ويصلّون حول العرش، شكراً لربهم وتنزيهاً له عن كل نقص ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي وقضي بين العباد بالعدل، فأدخل بعضهم الجنة وبعضهم النار، أعاذنا الله منها. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وختمت خاتمة القضاء بينهم بالشكر للذي بدأ خلقهم وصوّرهم فأحسن صورهم، ومن له ملك السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات التي لا يعلم عدّها إلّا هو.

وقد بدأ سبحانه هذه الآية بالحمد وختمها بالحمد، للتنبيه إلى تحميده في بداية كلّ أمر ونهايته.

وقال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[2] واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى:

---

(١) ابن كثير ج ٤ ص ٧٣، ٧٤.

(٢) الآية الأولى من سورة الأنعام.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

وقال تعالى:

١٢ ـ ﴿حمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[2].

قال ابن عبّاس: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ لمن قال: (لا إله إلاّ الله) ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ ممن قال: (لا إله إلاّ الله) ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يقل: (لا إله إلاّ الله).

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه افْتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا السراب، فقال عمر لكاتبه: اكْتب من عمر إلى فلان، سلام عليك وأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلاّ هو: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ثم ختم الكتاب وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتّى تجده صاحياً، ثمَّ أمر مَن عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتتْه الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذّرني عقابه، فلم يبرح يردّدها حتّى بكى، ثم نزع فأحسن النّزع وحسنت توبته، فلمّا بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصْنعوا إذا رأيتم أحدكم قد زلّ زلّة فسدّدوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه.

---

(١) نقلاً من تفسير المراغي ج ٢٤ ص ٣٩، ٤٠.

(٢) ١ ـ ٣/ من سورة غافر.

و ﴿التَّوْب﴾ يجوز أن يكون مصدر تاب يتوب توباً، ويحتمل أن يكون جمع توبة، نحو دَوْمَة ودَوْم وعَزْمة وعزْم[1]. وجاء رجل إلى عمر فقال: إنِّي قتلت فهل لي من توبة؟ قال: نعم، اعْمل ولا تيأس، ثم قرأ: ﴿حمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾.

وقوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ يقول تعالى ذكره: شديد عقابه لمن عاقبه من أهل العصيان له فلا تتكلوا على سعة رحمته ولكن كونوا منه على حذر باجتناب معاصيه وأداء فرائضه فإنّه كما أنّه لَا يُؤيس أهل الإجرام والآثام من عفوه وقبول توبة من تاب منهم من جرمه، كذلك لا يؤمنهم من عقابه وانتقامه منهم بما اسْتحلوا من محارمه وركبوا من معاصيه.

وقوله ﴿ذِي الطَّوْل﴾ يقول: ذي الفضل والنّعم المبسوطة على من شاء من خلقه، يقال منه: إنّ فلاناً لذو طوْل على أصحابه إذا كان ذا فضل عليهم.

وبنحو ذلك قال ابن عباس: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ ذي السعة والغنَى وعن مجاهد في قول الله ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ الغنَى.

وقوله: ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يقول: لا معبود تصلح له العبادة إلَّا الله العزيز العليم الذي صفته ما وصف جَلَّ ثناؤه فلا تعبدوا شيئاً سواه. ﴿إِلَيْـهِ الْمَصِيـرُ﴾ يقول تعالى ذكره: إلى الله مصيركم ومرجعكم أيّها النَّاس فإيّاه فاعبدوا، فإنّه لا ينفعكم شيء عبدتموه عند ذلك سواه[2].

(1) قرطبي ج ١٥ ص ٢٩٠، ٢٩١.

(2) طبري ج ٢٤ ص ٢٧، ٢٨.

وقال الحافظ ابن كثير: وهذه كقوله: ﴿نَبِّىء عِبَادي أنِّي أنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الألِيمُ﴾[1] يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن ليبقى العبد بين الرَّجاء والخوف[2].

وقال تعالى:

١٣ـ ﴿إنَّ شَجَرةَ الزَّقُوم * طَعَامُ الأثِيم * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ* كَغَلْيِ الْحَمِيمِ* خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إنَّكَ أنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ* إنَّ هَـٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ* إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أمِينٍ* فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ* كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ* يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ* لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إلَّا الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3].

قوله تعالى: ﴿إنَّ شَجَرةَ الزَّقُّومِ﴾ الآية.

أخرج سعيد بن منصور عن أبي مالك قال: إنَّ أبا جهل كان يأتي بالتَّمر والزّبد فيقول: تزقموا بهذا الزّقوم الذي يعدكم به محمد فنزلت: ﴿إنَّ شَجَرةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأثِيمِ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم والخطيب في تاريخه عن سعيد بن جبير في الآية قال: ﴿الأثِيم﴾ أبو جهل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ذُقْ إنَّكَ أنْتَ

---

(١) ٤٩، ٥٠/ من سورة الحجر.

(٢) ابن كثير ج ٤ ص ٧٦.

(٣) ٤٣ ـ ٥٧/ من سورة الدُّخان.

﴿الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ يقول: لست بعزيز ولاَ كريم.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال: قال أبو جهل: أيوعدني محمد وأنا أعزّ مَن مشَى بين جبليها فنزلت: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[1].

فإن قيل: كيف سُمِّيَ بالعزيز وليس به؟!

فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه قيل ذلك اسْتهزاءً به، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل. والثاني: أنت العزيز [الكريم] عند نفسك، قاله قتادة. والثالث: أنت العزيز في قومك، الكريم على أهلك، حكاه الماوردي[2].

وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو دريّ الزيت وعكر القطران. وقيل: هو النحاس المذاب. وقيل: كلّ ما يذوب في النَّار[3].

وجاء في حديث رواه الحاكم وغيره عن أبي سعيد مرفوعاً وفيه: «فإذا قرب إلى وجهه - يعني الجهنمي - سقطت فروة وجهه».

وسمّي مهْلاً، لأنّه يمهل في النَّار حتّى يذوب، فهو من المهل، بمعنى السكون[4].

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ يقول تعالى ذكره «خذوه» يعني هذا الأثيم بربه الذي أخبر

---

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٣٢،٣٣.

(٢) زاد المسير ج ٧ ص ٣٥٠.

(٣) فتح القدير ج ٤ ص ٥٧٨.

(٤) روح المعاني ج ٢٥ ص ١٣٣.

جلّ ثناؤه أنّ له شجرة الزّقوم طعام «فاعْتلُوهُ» يقول تعالى ذكره: فادْفعوه وسوقوه، يقال منه: عتله يعتله عتلاًّ: إذا ساقه بالدفع والجذب.

وقوله ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ إلى وسط الجحيم. ومعنَى الكلام: يقال يوم القيامة خذوا هذا الأثيم فسوقوه دفعاً في ظهره وسحباً إلى وسط النّار[1].

ثم ذكر ما يقال له آنئذ تقريعاً وتهكماً: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي ذق هذا الذّل والهوان اليوم، فإنّك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم، وها هو ذا قد تبيّن لك أنك أنت الذليل المهين، فأين ما كنت تقول وتدّعي من العزّ والكرامة؟ فهلّا تمتنع من العذاب بعزتك.

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي إنَّ هذا العذاب الذي تعذبون به هو العذاب الذي كنتم تشكّون فيه في الدّنيا، فتختصمون فيه، ولا توقنون به، فقد لقيتموه فذوقوه. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[2][3].

ولما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ولهذا سمي القرآن مثاني فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي لله في الدّنيا ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي في الآخرة، وهو الجنّة وقد أمنوا فيها من الموت والخروج ومن كلّ همّ وحزْن وجزع وتعب ونصب ومن الشيطان وكيده وسائر الآفات والمصائب: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من

(١) طبري ج ٢٥ ص ٨٠.

(٢) ١٣، ١٤/ من سورة الطور.

(٣) المراغي ج ٢٥ ص ١٣٥.

شجرة الزَّقوم وشرب الحميم[1].

﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وإِسْتَبْرَقٍ﴾ والسّندس: ما رَقَّ من الديباج، والإستبرق: ما غلظ منه. وانتصاب ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ على الحال من فاعل يلبسون: أي متقابلين في مجالسهم ينظر بعضهم إلى بعض، والكاف في قوله ﴿كَذَالِكَ﴾ إمّا نعت مصدر محذوف: أي نفعل بالمتقين فعلاً كذلك. أوْ مرفوع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف: أي الأمر كذلك. ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي أكرمناهم بأن زوّجناهم بحور عين، والحور جمع حوراء: وهي البيضاء، والعين جمع عيناء: وهي الواسعة العينين. وقال مجاهد: إنّما سمّيت الحوراء حوراء، لأنّه يحار الطرف في حسنها، وقيل هو من حور العين: وهو شدّة بياض العين في شدّة سوادها... كذا قال أبو عبيدة. ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أي يأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه حال كونهم آمنين من الأسقام والآلام.

قال قتادة: آمنين من الموت والوصب والشيطان، وقيل: من انقطاع ما هم فيه من النّعيم[2].

ويقول ابن كثير: مهْما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه بل يحضر إليهم كلّما أرادوا، وقوله: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إلاَّ الْمَوْتَةَ الْأولَى﴾ هذا استثناء يؤكد النفي فإنَّه استثناء منقطع، ومعناه: أنّهم لا يذوقون فيها الموت أبداً كما ثبت في الصحيحين أنّ رسول الله ﷺ قال: «يؤتَى بالموت في صورة كبش

(١) ابن كثير ج ٤ ص ١٥٨.

(٢) فتح القدير ج ٤ ص ٥٧٩.

أمْلح فيوقف بين الجنّة والنّار، ثم يذبح ، ثم يقال: يا أهل الجنّة خلود فلا موت، ويا أهل النّار خلود فلا موت».

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنّة إنَّ لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً، وإنَّ لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإنَّ لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً» رواه مُسْلم عن إسحاق بن راهويه وعبد ابن حميد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتّقَى الله دخل الجنة ينعم فيها ولا يبأس ويحيا فيها فلا يموت، لا تبلَى ثيابه ولا يفنَى شبابه». رواه أبو داود.

وعن جابر رضي الله عنه قال: سئل نبيّ الله ﷺ أينام أهل الجنة؟ فقال ﷺ «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون». رواه الطبراني وأبو بكر بن مردويه في تفسيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون».

وقوله تعالى: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الجَحِيم﴾ أي مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم فحصل لهم المطلوب ونجاهم من المرهوب. ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَالِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم﴾ أي إنّما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا واعْلموا أنَّ أحداً لن يدخله عمله الجنّة». قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ﷺ:

«ولا أنا إلَّا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[1].

وقال تعالى:

١٤ـ ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ* وأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ* هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ* مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ* ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَالِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ* لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[2].

أخرج أحمد والبخاري ومُسْلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: لا تزال جهنم يلقَى فيها وتقول: هل من مزيد، حتّى يضع ربّ العزّة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط وعزّتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتّى ينشىء الله لها خلقاً آخر فيسكنهم في قصور الجنة.

وأخرج البخاري وابن مردويه عن أبي هريرة رفعه: يقال لجهنم هل امْتلأت؟ وتقول: هل من مزيد، فيضع الرّب قدمه عليها فتقول: قط قط.

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومُسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجّت الجنّة والنّار، فقالت النّار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنّة: مالي لا يدخلني إلَّا ضعفاء

---

(١) ابن كثير ج ٤ ص ١٥٨.

(٢) ٣٠ ـ ٣٥/ من سورة قٓ.

النَّاس وسقطهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنَّار إنَّما أنت عذابي أعذّب بك من أشاء من عبادي ولكلّ واحد منكما ملْؤها، فأمّا النَّار فلا تمتلىء حتّى يضع رجله فتقول قط قط، فهنالك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأمّا الجنّة فإنّ الله ينشىء لها خلْقاً»(1).

وفائدة سؤاله إيّاها، وقد عَلِمَ هل امْتلأتْ أمْ لاَ، فإنّه توبيخ لمن أُدْخِلها، وزيادة في مكروهه، ودليل على تصديق قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾(2).

وفي قولها: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيد﴾ قولان عند أهل اللغة:

أحدهما: أنَّها تقول ذلك بعد امْتلائها، فالمعنَى: هل بقي فيَّ موضعٌ لم يمتلىء؟ أي: قد امْتلأتُ.

والثاني: أنَّها تقول تغيُّظاً علَى من عصَى الله تعالى، وجعل الله فيها أن تميِّز وتخاطب، كما جعل في النّملة أن قالت: ﴿أُدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾(3) وفي المخلوقات أن تسبح بحمده(4). ولما فرغ من ذكر جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ شرع في بيان حال المؤمنين وما أعدّه لهم فقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي قربت منهم، وقيل: هذا قبل الدخول في الدّنيا، أي قربت من قلوبهم حين قيل لهم اجتنبوا المعاصي. وقيل: بعد الدخول قربت لهم مواضعهم فيها فلا

---

(1) الدر المنثور ج ٦ ص ١٠٧.

(2) ١٨/ من سورة الأعراف.

(3) ١٨/ من سورة النّمل.

(4) زاد المسير ج ٨ ص ١٩، ٢٠.

تبعد. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي منهم، وهذا تأكيد[1].

وقوله: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ يقول: يقال لهم هذا الذي توعدون أيّها المتقون أن تدخلوها وتسكنوها.

وقوله: ﴿لِكُلِّ أَوّابٍ﴾ يعني لكل راجع من معصية الله إلى طاعته تائب من ذنوبه.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى ذَلك، فقال بعضهم: هو المُسَبِّحْ، وقال بعضهم: هو التّائب.

وقال قتادة: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾أي مطيع لله كثير الصلاة.

وقال ابن زيد: الأوَّابْ: التواب الذي يُؤوب إلى طاعة الله ويرجع إليها.

وقوله ﴿حَفِيظٌ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم حفظ ذنوبه حتّى تاب منها.

فعن أبي إسحاق عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن الأواب الحفيظ؟ فقال: حفظ ذنوبه حتّى رجع عنها.

وقال آخرون: معناه أنّه حفيظ على فرائض الله وما ائْتمنه عليه. فعن قتادة ﴿حَفِيظٌ﴾ قال: حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله تعالى ذكره وصف هذا التّائب الأوّاب بأنّه حفيظ، ولم يخص به على حفظ نوع

---

(1) قرطبي ج ١٧ ص ١٩، ٢٠.

من أنواع الطاعات دون نوع، فالواجب أن يعّم كما عمّ جلّ ثناؤه، فيقال: هو حفيظ لكلّ ما قربه إلى ربه من الفرائض والطاعات والذنوب التي سلفت منه للتوبة منها والإستغفار[1].

وقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ﴾ أي من خاف الله في سرّه حيث لا يراه أحد إلاَّ الله عزّ وجلّ. كقوله ﷺ: «ورَجل ذكرَ الله تعالى خالياً ففاضت عيناه».

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي ولقيَ الله عزّ وجلّ يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه.

وقوله: ﴿أُدْخُلُوهَا﴾ أي الجنّة، ﴿بِسَلَامٍ﴾ قال قتادة: سلموا من عذاب الله عزّ وجلّ وسلّم عليهم ملائكة الله.

وقوله: ﴿ذَالِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي يخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً ولا يظعنون أبداً ولا يبغون عنها حولاً.

وقوله جلّت عظمته: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي مهما اخْتاروا وجدوا من أيّ أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم[2].

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ من النّعم ممّا لم يخطر على بالهم. وقال أنس وجابر: المزيد: النظر إلى وجْه الله تعالى بلا كيف. وقد ورد في ذلك أخبار مرفوعة إلى النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[3] قال: الزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم[4].

(١) طبري ج ٢٦ ص ١٠٧.

(٢) ابن كثير ج ٤ ص ٢٤٤.

(٣) ٢٦/ من سورة يونس.

(٤) قرطبي ج ١٧ ص ٢١.

روى الإمام أحمد عن صهيب رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ تلاَ هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: «إذا دخل أهل الجنَّة الجنَّةَ وأهل النَّار النَّار نادَى منادٍ يا أهل الجنَّة إنّ لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرْنَا من النَّار؟ ـ قال: ـ فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم من النظر إليه ولا أقرّ لأعينهم». وهكذا رواه مُسْلم وجماعة من الأئمة من حديث حمّاد بن سلمة به.

وعن أبان بن أبي تميمة الهجيمي أنّه سمع أبا موسَى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي يا أهل الجنّة ـ بصوت يسمع أوّلهم وآخرهم ـ إنّ الله وعدكم الحسنَى وزيادة، فالحسنَى: الجنّة، والزيادة: النظر إلى وجْه الرّحمن عزّ وجلّ»[1].

وقال تعالى:

١٥ـ ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ* يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ* إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ* وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ* وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ* وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ* وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[2].

قوله ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ إلى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ

---

(١) ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٩.

(٢) ٤٧ ـ إلى آخر سورة القمر.

خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. فعن أبي هريرة قال: جاءت قريش يختصمون في القدر، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ* يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ* إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. رواه مُسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن سفيان [1].

والمعنى: إنّ المشركين بالله المكذبين لرسله في ضلال عن الصراط المستقيم، وعماية عن الهدَى في الدنيا، وعذاب أليم في نار جهنم يوم القيامة.

ثم بين ما يلحقهم من الإهانة والإذلال حينئذ فقال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي يعذبون ويهانون يوم يُجرّون على وجوههم في النّار، ويُقال لهم إيلاماً وتعنيفاً: ذوقوا حرّ النّار وآلامها جزاء وفاقاً لتكذيبكم رسل ربكم في كلّ ما جاءوا به من الإنذار بهذا اليوم، والتّحذير ممّا يقع فيه للكافرين من العذاب، والتبشير بما للمتقين فيه من ثواب.

ثم بيّن أن كلّ ما يوجد في هذه الحياة فهو لا يحدث اتّفاقاً، وإنّما يحصل بقضاء الله وقدره فقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي إنّ كلّ كائن في هذه الحياة، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة والنظام الشامل، وبحسب السنن التي وضعها في الخليقة. ونحو الآية قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [2] وقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [3].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٦٣.

(٢) ٢/ من سورة الفرقان.

(٣) ١-٣/ من سورة الأعلىٰ.

وفي الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمْر فقل: قَدَرُ الله وما شاء فعل، ولا تقل لوْ أنّي فعلت لكان كذا، فإن «لوْ» تفتح عمل الشيطان».

وفي حديث ابن عبّاس أنّ رسول الله ﷺ قال له: «. . . واعْلم أنّ الأمّة لو اجْتمعوا علَى أن ينفعوكَ بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجْتمعوا علَى أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، جفّت الأقلام، وطُوِيت الصحف»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ يعني: وما أمرنا للشيء إذا أمرناه وأردنا أن نكوّنه إلّا قولة واحدة كن فيكون، لا مراجعة فيها ولا مرادّة ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ يقول جلّ ثناؤه: فيوجد ما أمرناه وقلْنا له كن كسرعة اللمح بالبصر لا يبطىء ولا يتأخر.

يقول تعالى ذكره لمشركي قريش الذين كذبوا رسوله محمداً ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ معشر قريش من الأمم السّالفة والقرون الخالية على مثل الذي أنتم عليه من الكفر بالله وتكذيب رسله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدّكِرٍ﴾ أي: فهل من متّعظ بذلك منزجر ينزجر به.

﴿وكُلُّ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ أي وكلّ صغير وكبير من الأشياء «مُسْتَطَرٌ» يعني مثبت في الكتاب مكتوب[2].

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر حال الأشقياء ذكر حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي في بساتين مختلفة وجنان

---

(١) المراغي ج ٢٧ ص ١٠٠، ١٠١.

(٢) طبري ج ٢٧ ص ٦٦.

متنوعة وأنهار متدفقة[1].

وهـذا بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر والسحب في النَّار على وجوههم مع التوبيخ والتقريع والتهديد. وقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه، وفضله وامتنانه، وجُوده وإحسانه ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أي عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء ممّا يطلبون ويريدون.

روَى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[2][3].

وقال تعالى:

١٦ـ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ* وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ* وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ* يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ* مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ* هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ* خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ* إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ* وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ* فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ* وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ* لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾[4].

---

(١) فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص ١٢٩.

(٢) ورواه أيضاً مُسْلم والنسائي.

(٣) ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٨.

(٤) ١٩ ـ ٣٧/ من سورة الحاقة.

أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر والخطيب عن أبي عثمان النهدي قال: إنَّ المؤمن ليعطَى كتابه في ستر من الله فيقرأ سيِّئاته فيتغير لونه، ثمَّ يقرأ حسناته، فيرجع إليه لوْنه، ثم ينظر فإذا سيّئاته قد بدّلت حسنات فعند ذلك يقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾.

وأخرج أحمد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أوّل من يُؤذن له في السجود يوم القيامة، وأنا أوّل من يُؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى بين يديّ فأعرف أمّتي من بين الأمم، ومن خلْفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك، فقال رجل يا رسول الله كيف تعرف أمّتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك، قال: هم غرّ محجّلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنّهم يؤتون كتبهم بأيْمانهم وأعرفهم يسْعَى نورهم بين أيديهم ذريتهم.[1].

قوله: ﴿فَأَمَّا﴾ أمّا: حرف تفصيل، فصل بها ما وقع في يوم العرض[2] ويظهر أن من قضى عليه دخول النَّار من الموحدين أنّه في يوم العرض يأخذ كتابه بيمينه مع النَّاجين من النَّار، ويكون ذلك يأنس به مدّة العذاب، وقيل: لا يأخذه حتّى يخرج من النَّار وإيمانه أنيسه مدّة العذاب، قيل وهذا يظهر لأنّ من يسار به إلى النَّار كيف يقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ وهل هذا إلاَّ استبشار وسرور فلا يناسب دخول النَّار[3].

---

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٦١، ٢٦٢.

(٢) راجع الآيات التي قبلها من نفس السورة [الحاقة].

(٣) تفسير البحر المحيط ج ٨ ص ٣٢٤، ٣٢٥.

قال الـزجَّاج: ﴿هَاؤُمُ﴾ أمر من الجماعة. بمنزلة هاكم. تقول للواحد: ها يا رجل، وللإثنين: هاؤما يا رجلان. وللثلاثة: هاؤم يا رجال.

قال المفسرون: إنَّما يقول هذا ثقة بسلامته وسروراً بنجاته[1].

﴿إنِّي ظَنَنْتُ﴾ أي أيْقنت وعلمت، عن ابن عبّاس وغيره. وقيل: أي إنّي ظننت أن يؤاخذني الله بسيئاتي، فقد تفضّل عليّ بعفوه ولم يؤاخذني بها.

قال الضحَّـاكْ: كلّ ظَنٍّ في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شكّ. وقال الحسن في هذه الآية: إنَّ المؤمن أحسنَ الظنَّ بربِّه فأحْسن العمل، وإنّ المنافق أساء الظّنّ بربّه فأسَاء العمل.

﴿أنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيهْ﴾ أي في الآخرة ولم أنكر البعث، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي في عَيش يرْضاه لا مكروه فيه.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إنّهم يعيشون فلا يموتون أبداً، ويصحّون فلا يَمْرضون أبداً، ويَنْعَمون فلا يَرَوْن بؤساً أبداً، ويَشبُّون فلا يَهْرمُون أبداً».

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي عظيمة في النفوس. ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي قريبة التناول، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع[2].

وأخرج عبْد بن حميد عن قتادة أنّه قال: دنت فلا يرد أيديهم عنها بُعْـدٌ ولا شوك، وفسّـر الدّنو عليه بسهولة التناول. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾

(١) زاد المسير ج ٨ ص ٣٥١، ٣٥٢.

(٢) قرطبي ج ١٨ ص ٢٧٠.

بإضْمـار القول، أي يقال فيها ذلك. ﴿هَنِيئاً﴾ صفة لمحذوف وقع مفعـولاً به، والأصل: أكلاً وشرْباً هنيئاً، أي غير منغصين، فحذف المفعول به وأقيمت صفته مقامه. ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ بمقابلة ما قدمتم من الأعمـال الصـالحة. ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي الماضية، وهي أيام الدنيا، وقيل: أي الخالية من اللذائذ، أي الحقيقة وهي أيام الدنيا أيضاً، وقيل: أي التي أخليتموها من الشهوات النفسانية[1].

وبعد أن ذكر سرور السعداء بصحائف أعمالهم، ثمّ بيّن حسن أحـوالهم في معـايشهم ومسـاكنهم. أرْدف ذلك بذكرِ غمّ الأشقياء الكـافـرين وحـزنهم بوضـع الأغـلال والقيود في أعناقهم وأيديهم، وإعطائهم الغسلين طعاماً، ثم أعقبه بذكر سبب هذا، وهو أنّهم كانوا لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحثُّونَ على مساعدة ذوي الحاجة والبائسين.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ فإنّه لما نظر في صحيفة أعماله، وتذكر قبيح أفعاله، خجل منها وتمنّى أنْ لو كان عذّب في النّار ولم يخجل هذا الخجل.

وفي هذا إيماء إلى أنّ العذاب الروحاني أشدّ ألماً من العذاب الجسماني.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ؟﴾ أي ولم أعلم أيّ شيء حسابي الذي أحاسب به، إذْ كلّه وبال ونكال.

﴿يَـا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي ليت الموتة التي مِتّها في الدّنيا

---

(١) روح المعاني ج ٢٩ ص ٥٩، ٦٠.

كانت نهاية الحياة، لم أبعث بعدها ولم ألْق ما أنا فيه من نكال وسوء منقلب[1].

أخرج عبد بن حميد عن قتادة في هذه الآية، قال: تمنوا الموت ولم يكن شيء في الدّنيا أكره عندهم من الموت[2].

وقوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ يجوز أن يكون نفْياً محْضاً أخبر بذلك متأسفاً على ماله حيث لم ينفعه، ويجوز أن يكون اسْتفهاماً وبخ به نفسه وقررها عليه[3].

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ عن ابن عبّاس: هلكتْ عَنّي حُجَّتي. وهو قول مجاهد وعكرمة والسدي والضحاك. وقال ابن زيد: يعني سلطانيه في الدّنيا الذي هو المُلْك. وكان هذا الرجل مُطَاعاً في أصحابه، قال الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ قيل: يبتدره مائة ألْف مَلَك، ثم تجمع يده إلى عنقه وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿فَغُلُّوهُ﴾ أي شدّوه بالأغلال. ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي اجعلوه يصْلَى الجحيم. ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً﴾ الله أعلم بأيّ ذراع، قاله الحسن، وقال ابن عبّاس: سبعون ذراعاً بذراع المَلَك. وقال نَوْف: كل ذراع سبعون باعاً، وكلّ باعٍ أبْعد ما بينك وبين مكة. وكان في رحْبة الكوفة.

وقال مقاتل: لو أن حَلْقة منها وُضعت على ذرْوة جبل لذاب كما يذوب الرَّصاص. وقال كعب: إنّ حلقة من السلسلة التي قال الله تعالى ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً﴾ ـ أن حلقة منها ـ مثل جميع حديد

(١) المراغي ج ٢٩ ص ٥٨، ٥٩.

(٢) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٦٢.

(٣) تفسير البحر المحيط ج ٨ ص ٣٢٥.

الدنيا. ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ قال سفيان: بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه. وقاله مقاتل. والمعنى: ثم اسْلكوا فيه سلسلة. وقيل: تدخل عنقه فيها ثم يجرّ بها. وجاء في الخبر: أنّها تدخل من دبره وتخرج من مَنْخِرَيْه. وفي خبر آخر: تدخل من فيه وتخرج من دبره، فينادي أصحابه هل تعرفوني؟ فيقولون لا، ولكن قد نرى ما بك من الخزي فمن أنت؟ فينادي أصحابه أنا فلان بن فلان، لكلّ إنسان منكم مثل هذا[1].

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ﴾ تعليل على طريقة الإستئناف للمبالغة، كأنه قيل: لِمَ اسْتحق هذا؟ فقيل: لأنّه كان في الدنيا مستمراً على الكفر بالله تعالى العظيم. وذكر ﴿العظيم﴾ للإشارة إلى وجه عظم عذابه، وقيل: للإشعار بأنّه عزّ وجلّ المستحق للعظمة فحسب، فمن نسبها إلى نفسه اسْتحق أعظم العقوبات[2].

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي: ولا يحث على بذل طعامه، أوْ علَى إطْعامه، فضْلاً أن يبذل من ماله. وقيل ذَكر الحضّ: للتنبيه على أن تارك الحضّ بهذه المنزلة، فما ظنّك بتارك الفعل، وفيه دلالة علَى أنّ الكفار مخاطبون بالفروع في حقّ المؤاخذة.

قالوا وتخصيص الأمرين بالذكر: لما أنّ أقبح العقائد: الكفر، وأشْنع الرذائل: البخْل وقسوة القلب[3].

---

(١) قرطبي ج ١٨ ص ٢٧٢.

(٢) روح المعاني ج ٢٩ ص ٦٢.

(٣) تفسير أبي السعود ج ٩ ص ٢٦.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ﴾ أي: قريب ينفعه، أي: يشفع له. ﴿وَلاَ طَعَامٌ إلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنّه صديد أهل النّار، قاله ابن عبّاس. قال مقاتل: إذَا سَالَ القيح، والدّم، بادَروا أكْله قبل أن تأكله النّار.

والثاني: شجر يأكله أهل النّار، قاله الضحاك والربيع.

والثالث: أنّه غُسَالَةُ أجوافهم، قاله يحيى بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿إلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾ يعني: الكافرين[1].

وقال تعالى:

١٧- ﴿وبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ* فَأمَّا مَنْ طَغَىٰ* وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* فَإنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ* وَأمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ* فَإنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ﴾ فيه مسألتان:

«المسألة الأولى» قوله تعالى: ﴿لِمَنْ يَرَىٰ﴾ أي أنّها تظهر إظهاراً مكشوفاً لكلّ ذي ناظر ذي بصر.

«المسألة الثانية» قرأ أبو نهيك «وبرزت» وقرأ ابن مسعود: لمن رأىٰ، وقرأ عكرمة: لمن ترى، والضمير للجحيم، كقوله: ﴿إذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[3]وقيل لمن ترى يا محمد من الكفار الذين يؤذونك.

---

(١) زاد المسير ج ٨ ص ٣٥٤.

(٢) ٣٦ ـ ٤١/ من سورة النازعات.

(٣) ١٢/ من سورة الفرقان.

واعْلم أنّه تعالى لما وصف حال القيامة في الجملة[1] قسم المكلفين قسمين: الأشقياء والسعداء، فذكر حال الأشقياء فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[2].

والمعنى يقول تعالى ذكره: فأمّا من عتا علَىٰ ربّه وعصاه واستكبر عن عبادته.

فعن أبي نجيح عن مجاهد: قوله ﴿طَغَىٰ﴾ قال: عصَىٰ، وقوله: ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يقول: وآثر متاع الحياة الدُّنيا علَى كرامة الآخرة وما أعدّ الله فيها لأوليائه فعمل للدّنيا وسعَى لها وترك العمل للآخرة. ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ يقول: فإنّ نار الله التي اسْمها الجحيم هي منزله ومأْواه ومصيره الذي يصير إليه يوم القيامة[3].

ثم ذكر القسم الثاني من القسمين فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي حذر مقامه بين يدي ربّه يوم القيامة. قال الربيع: مقامه يوم الحساب. قال قتادة: يقول إنّ للهِ عزّ وجلّ مقاماً قد خافه المؤمنون. وقال مجاهد: هو خوفه في الدنيا من الله عزّ وجلّ عند مواقعة الذّنب فيقلع عنه.

نظيره قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[4] والأوّل أوْلَىٰ. ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي زجرها عن الميل إلى المعاصي والمحارم التي تشتهيها.

---

(١) راجع أيضاً الآيات التي قبلها من نفس السورة.

(٢) الرازي ج ٣١ ص ٥١.

(٣) طبري ج ٣٠ ص ٣١.

(٤) ٤٦/ من سورة الرحمن.

قال مقاتل: هو الرّجل يهمّ بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها. ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ أي المنزل الذي ينزله والمكان الذي يأوي إليه لا غيرها[1].

والآيتان نزلتا في مصْعَب بن عُمير وأخيه عامر بن عمير. فرَوى الضحاك عن ابن عبّاس قال: أمّا من طغَىٰ فهو أخ لمصعب بن عمير أُسِرَ يوم بدر، فأخذته الأنصار، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا أخو مُصْعَب بن عمير، فلم يشدُّوه في الوَثاق، وأكرموه وبيَّتوه عندهم، فلمّا أصبحوا حدّثوا مصعَب بن عُمَير حديثه، فقال: ما هو لي بأخٍ، شدُّوا أسيركم، فإنَّ أمّه أكثر أهل البطحاء حلْياً ومالاً. فأوثقوه حتّى بعثت أمّه في فدائه.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ فمصعب بن عمير، وقَى رسول الله ﷺ بنفسه يوم أُحُد حين تفرّق النّاس عنه، حتّى نفذت المشاقص في جوفه. وهي السهام، فلما رآه رسول الله ﷺ متشحطاً في دمه قال: «عند الله أحْتسبك» وقال لأصحابه: «لقد رأيته وعليه بُردان ما تعرف قيمتهما، وإنَّ شراك نعليه من ذهب».

وقيل: إنّ مصعب بن عمير قتل أخاه عامِراً يوم بدر.

وعن ابن عباس أيضاً قال: نزلت هذه الآية في رجلين: أبي جهل ابن هشام المخزومي ومصعب بن عمير العبدريّ. وقال السُّدِّي: نزلت هذه الآية: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ في أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وذلك أنّ أبا بكر كان له غلام يأتيه بطعام، وكان يسأله

---

(١) فتح القدير ج ٥ ص ٣٨٠.

من أين أتيت بهذا؟ فأتاه يوماً بطعام فلم يسأله وأكله، فقال له غلامه: لِمَ لا تسألني اليوم؟ فقال: نسيت، فمن أين لك هذا الطعام؟ فقال: تكهنت لقوم في الجاهلية فأعْطَوْنيه. فتقاياه من ساعته وقال: يا رب ما بقي في العروق فأنت حبَسته فنزلت: ﴿وأمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾.
وقال الكلبيّ: نزلت في من همَّ بمعصية وقدر عليها في خَلْوة ثم تركها من خوف الله. ونحوه عن ابن عبّاس. يعني من خاف عند المعصية مَقامه بين يدي الله، فانتهىٰ عنها. والله أعلم[1].

وقال تعالى:

١٨ـ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾[2].

قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ قال ابن جرير: أي إنَّ الذين برّوا بأداء فرائض الله، واجتناب معاصيه، لفي نعيم الجنان ينعمون فيها، والأبرار: جمع «بَرّ» بفتح الباء، وهو المتصف بالبِرّ «بكسرها» أي الطاعة.

قال الأصفهاني: وقد اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ

---

(١) قرطبي ج ١٩ ص ٢٠٨.
(٢) ١٣ ـ إلى آخر سورة الإنفطار.

﴿وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1][2].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ فيهم قولان.

أحدهما: أنّهم المشركون.

والثاني: الظَّلمة. ونقل عن سليمان بن عبد الملك أنه قال لأبي حازم: يا ليت شعري ما لنا عند الله؟ فقال له: اعرض عملك على كتاب الله، فإنّك تعلم مالك عنده، فقال: وأين أجده، قال: عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾. قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: قريب من المحسنين[3].

وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ إمَّا صفة للجحيم، أوْ حال من ضمير الفجار في الخبر، أو استئناف مبني على سؤال نشأ من تهويلها كأنّه قيل: ما حالهم فيها؟ فقيل: يقاسون حرّها. ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به استقلالاً، أوْ في ضمن تكذيبهم بالإسلام.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ طرْفة عين، فإنَّ المراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾[4] في الدلالة على سرمدية العذاب، وأنهم لا يزالون محسّين بالنَّار، وقيل معناه: وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية، بل كانوا يجدون

---

(١) ١٧٧/ من سورة البقرة.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ج ١٧ ص ٨٥.

(٣) زاد المسير ج ٩ ص ٤٩.

(٤) ٣٧/ من سورة المائدة.

سمومها في قبورهم حسبما قال النبي ﷺ: «القبر روضة من رياض الجنة أوْ حفرة من حفر النَّار»[1].

ثم عاد إلى تفخيم ذلك اليوم وتهويل أمره فقال: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾** أي إنّ أمرك أيّها الإنسان لعجيب، فأنت لاهٍ عن هذا اليوم غير مبال به، وقد كنت خليقاً أن تتعرف حقيقة حاله، لتأخذ لنفسك الحيْطة، وتتدبر أمرك، ولا تركن إلى عفو ربك وكرمه وصفحه، فإنك لا تدري ما قدّر لك.

ثم زاده توكيداً وتعظيماً فقال: **﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾** أي ثم عجيب منك أن تتهاون بنبأ هذا اليوم، كأنك قد أدركت كنهه، وعرفت وجْه الخلاص ممّا يلْقاك فيه من الأهوال، ولو عرفته حقّ معرفته لَلانَتْ قناتك، ورجعت إلى ربكَ تائباً، وعدت إليه مستغفراً، طالباً الصفح عمّا قدمت يداك[2].

وقوله تعالى: **﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾** بيان إجمالي لشأن يوم الدين إثر إبهامه وبيان خروجه عن علوم الخلق بطريق إنجاز الوعد، فإنّ نفي إدْرائهم مشعر بالوعد الكريم بالإدْراء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كلّ ما في القرآن من قوله تعالى: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾** فقد أدْراه، وكلّ ما فيه من قوله: **﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾** فقد طوَى عنه[3].

---

(١) روح المعاني ج ٣٠ ص ٨٤.

(٢) المراغي ج ٣٠ ص ٦٩.

(٣) تفسير أبي السعود ج ٩ ص ١٢٣.

قال الرازي: وهو وعيد عظيم، من حيث إنّه عرّفهم أنّه لا يغني عنهم إلّا البـرّ والطّاعة يومئذ، دون سائر ما كان قد يغني عنهم في الدّنيا، من مال وولد وأعوان وشفعاء[1].

وقال تعالى:

١٩ـ ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ* نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[2]

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿فَـأَمَّـا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ قال: هي الجنة، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ قال: هي النّار مأواهم وأمّهم ومصيرهم ومولاهم.

وأخـرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ قال: مصيره إلى النّار وهي الهاوية.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عبّاس ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ كقولك: هويت أمه.

وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال: هي كلمة غريبة إذا وقع رجل في أمر شديد قالوا: هويت أمه[3].

ومعنَى ﴿عِيشَـةٍ رَاضِيـةٍ﴾ أي عيش مَرْضيّ، يرضـاه صاحبـه.

---

(١) نقلاً من محاسن التأويل ج ١٧ ص ٨٦.

(٢) ٦ إلى آخر سورة القارعة.

(٣) الدر المنثور ج ٦ ص ٣٨٥.

وقيل: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي فاعلة للرّضا، وهو اللين والانقياد لأهلها.

والعيشة: كلمة تجمع النِّعَم التي في الجنّة، فهي فاعلة للرّضا، كالفُرش المرفوعة(١).

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي رجحت سيّئاته على حسناته، أوْ لم تكن له حسنات يعتدّ بها ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾أي فمسكنه جهنم، وسمّاها أمّه، لأنّه يأوي إليها كما يأوي إلى أمِّه. والهاوية: من أسماء جهنّم.

وسُمّيت هاوية: لأنّه يهوي فيها مع بعْد قعرها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ هذا الاستفهام: للتهويل والتفظيع ببيان أنّها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر ولا تدري كنهها.

ثم بيّنها سبحانه فقال ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي قد انتهى حرّها وبلغ في الشدّة إلى الغاية.

وارْتفاع ﴿نَارٌ﴾ علَى أنّها خبر مبتدأ محذوف: أي هي نار حامية(٢) أي حارّة شديدة الحرّ قوية اللهب والسعير.

قال أبو مصعب عن مالك عن أبي الزّناد عن الأعرج عن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قالوا يا رسول الله إن كانت لكافية؟ فقال: «إنّها فضّلت عليها بتسعة وستّين جزءاً»(٣).

---

(١) قرطبي ج ٢٠ ص ١٦٦.

(٢) فتح القدير ج ٥ ص ٤٨٧.

(٣) متفق عليه.

ورَوَى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إنّ ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضـربت بالبحـر مرّتين، ولوْلا ذالك ما جعل الله فيها منفعة لأحد».

وروى التـرمذي وابن ماجة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُوقد علَى النّار ألْف سنة حتّى احْمرَّتْ، ثم أوقد عليها ألْف سنة حتّى ابْيضَّتْ، ثم أوقد عليها ألْف سنة حتّى اسْودَّتْ فهي سوداء مظلمة».

وثبت في الصحيحين أنّ رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النّار إلَى ربّها، فقالت: يا ربّ أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشدّ ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشدّ ما تجدون في الصيف من حرّها»[١].

---

(١) ابن كثير ج ٤ ص ٥٨١.

باب: ما جاء في الجمع بين الخوف والرجاء من السنّة المطهرة

١ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «لو يعلمُ المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمعَ بجنّته أحدٌ، ولوْ يعلمُ الكافر ما عند الله من الرّحمة ما قنط من جنّته» رواهُ مُسْلم.

٢ـ وعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا وُضعت الجنازةُ واحْتملها الرّجالُ على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدّموني قدّموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها! أين تذهبون بها؟ يسمع صوتَها كلُّ شيء إلاّ الإنسان ولوْ سمعَهُ صعق»، رواه البخاري.

٣ـ وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنّة أقربُ إلى أحدكم من شراك نعله، والنّارُ مثلُ ذ. لك» رواه البخاري(١).

قوله في حديث أبي هريرة: «لوْيعلم المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ـ الحديث» هذا يدل عى أن المسلم ينبغي أن يسير إلى الله بجناحي الخوف والرجاء بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر، وما أحسن التشبيه القائل: ينبغي أن يسير العبد إلى الله تعالى

---

(١) الأحاديث ١ـ٣ نقلاً من رياض الصالحين ص ٢٠٨ باب الجمع بين الخوف والرجاء.

بالمحبـة والخـوف والرّجاء وشبّهه بالطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والـرجـاء جنـاحاه، فإذا سقطت الرأس هلك الطائر، وإذا فقد أحد جناحيه كان عرْضَةً للصيد.

وهذا الحديث من أقوى الأدلّة على ذلك، وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يخافون من الله عزّ وجلّ خوفاً شديداً مع أنّ بعضاً منهم بُشِّـر بالجنة وتجد أحواله عجيبة جداً، وفي نفس الوقت كانوا يرجون رحمته ويطمعون في جنّته.

وأمّا حديث أبي سعيد الخدري: «إذا وُضعت الجنازة واحْتملها الرّجال على أعناقهم، فإنْ كانت صالحة قالت قدّموني» وهذا لأنّها رأت كلّ خير واستبشرت وعرفت مصيرها فهي فرحة تريد الإسراع حتى تصل إلى النعيم الدائم الذي لا ينفذ أبداً، وإن كانت غير صالحة ـ نسأل الله العافية ـ قالت: يا ويْلَها!.

وفي رواية البخاري: «قالت لأهلها: يا ويلها»، فكل من وقع في الهلكة دعَا بالويل. ومعنَى النّداء: يا حزني.

وقوله: «لصعق» أي لغشي عليه من شدّة ما يسمعه، وربما أطلق ذلك على الموت، والضمير في يسمعه راجع إلى دعائه بالويل، أي يصيح بصوت منكر لوْ سمعه الإنسان لغشي عليه.

قال ابن بزيزة: هو مختص بالميت الـذي هو غير صالح، وأمّا الصـالح فمن شأنه اللطف والرّفق في كلامه فلا يناسب الصعق من سمـاع كلامه. انتهى. ويحتمل أن يحصل الصعق من سماع كلام الصالح لكونه غير مألوف، وقد روَى أبو القاسم بن منْده هذا الحديث

في «كتاب الأهوال» بلفظ «لو سمعه الإنسان لصعق من المحسن والمسيء»[1].

وقوله ﷺ: «الجنّة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنّار مثل ذلك». الشِرَاك: هو السير الذي يدخل فيه إصْبع الرجل، ويطلق أيضاً على كلّ سير وقى به القدم.

قال ابن بطال: فيه أنّ الطاعة موصلة إلى الجنّة، وأنّ المعصية مقربة إلى النّار، وأنّ الطاعة والمعصية قد تكون في أيْسر الأشياء. فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه، ولا في قليل من الشّر أن يجتنبه، فإنّه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها ولاَ السّيئة التي يسخط عليه بها.

وقال ابن الجوزي: معنَى الحديث أنّ تحصيل الجنّة سهل بتصحيح القصد وفعل الطاعة، والنّار كذلك بموافقة الهوَى وفعل المعصية[2].

٤ـ وعن أبي عبد الرحمن السّلمي قال: «دخلت المسجد وأمير المؤمنين عليٌّ علَى المنبر وهو يقول قال رسول الله ﷺ: إنّ الله أوْحَى إلى نبيّ من أنبياء بني إسرائيل أن قلْ لأهل طاعتي من أمّتك لا يتكلوا على أعمالهم فإنّي لا أقاص أحداً عند الحساب يوم القيامة، ثم أشاء أن أعذبه إلاّ عذبته، وقل لأهل المعاصي من أمّتك لا يلقون بأيديهم فإنّي أغفر الذنوب العظام ولا أبالي، وإنّه ليس من أهل قرية ولا أهل

---

(١) فتح الباري ج ٣ ص ١٨٥ باختصار.

(٢) فتح الباري ج ١١ ص ٣٢١.

مدينة ولا أرض ولا رجل بخاصة ولا امْرأة يكون لي على ما أحبّ فأكون له على ما يحبّ، ثم يتحول عمّا أحبّ إلى ما أكره إلاّ تحولت له عما يحب إلى ما يكره، وإنّه ليس من أهل مدينة ولاَ أهل أرض ولا رجل بخاصة ولا امْرأة يكون لي على ما أكره ثم يتحول لي عمّا أكره إلى ما أحب إلاّ تحولت له عمّا يكره إلى ما يحب، ليس منّي من تطيّر أوْ تُطيّر له، أو تكهّنَ أوْ تُكهِّنَ له، أو سَحر أوْ سُحر له، إنّما أنا وخلْقي وكلّ خلْقي لي». رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عيسى بن مسلم الطهوي، قال أبو زرعة: ليّن، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، يكتب حديثه، وبقية رجاله ثقات إن شاء الله.

٥- وعن أبي مدينة الدارمي وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا الْتقيا لم يفترقا حتّى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿وَالْعَصْرِ إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾. رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة وهو ثقة.

٦- وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ، وعن ابن سيرين عن النبي ﷺ قال: كان رجل ممّن كان قبلكم لم يعمل خيراً قط إلاّ التوحيد، فلمّا احْتضر قال لأهله: انظروا إذا أنا متّ أن تحرقوه حتى تدعوه حمماً[1]، ثم اطحنوه، ثم اذْروه في يوم راح[2]، فلما مات فعلوا به ذلك، فإذا هو في قبضة الله، فقال الله عزّ وجلّ: يا ابن آدم ما حملك على ما فعلت، قال: أي ربّ مخافتك، قال: فغفر له بها ولم يعمل خيراً قطّ إلاّ التوحيد. رواه أحمد، وإسناد أبي هريرة رجاله رجال الصحيح، وفي

---

(١) أي فحْما.

(٢) أي ذي ريح.

إسناد ابن سيرين من لم يسَمّ.

٧ـ وعن الحسن عن النبيّ ﷺ رفعه قال: لا أجمع على عبدي خوفيْن وأمْنيْن، وإن أخفْته في الدنيا أمّنْته في الآخرة، وإن أمنته في الدنيا أخفته في الآخرة.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال بنحوه. رواهما البزار عن شيخه محمد بن يحيى بن ميمون ولم أعرفه[1]، وبقية رجال المرسل رجال الصحيح، وكذلك رجال المسند غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث[2].

٨ـ وعن أنس أنّ النبي ﷺ دخل علَى شابٍّ وهو بالموت فقال كيف تجدك؟ قال والله يا رسول الله إنّي أرجو الله وإنّي أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبْد في مثل هذا الموطن إلاّ أعطاه الله ما يرجو، وآمنَهُ ممّا يخافُ». قال أبو عيسى الترمذي[3]: هذا حديث غريب، وقد روَى بعضُهم هذا الحديث عن ثابت عن النبي ﷺ مُرْسَلاً.

قوله: «كيف تجدك» أي كيف تجد قلبك أو نفسك في الإنتقال من الدنيا إلى الآخرة راجياً رحمة الله، أوْ خائفاً من غضب الله. وقوله: «أرجو الله» أي أجدني أرجو رحمته «وإنّي» أي مع هذا «أخاف ذنوبي». قال الطيبي: علق الرجاء بالله والخوف بالذنب، وأشار بالفعلية إلى أنّ الرّجاء حدث عند السياق، وبالإسمية والتأكيد بإن،

---

(١) القائل: صاحب مجمَع الزوائد ومنبع الفوائد.

(٢) الأحاديث من ٤ـ٧ نقلاً من مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣١٠، ٣١١.

(٣) ج ٤ ص ٥٨ تحفة الأحوذي.

إلى أنّ خوفه كان مستمراً محققاً. «لا يجتمعان» أي الرجاء والخوف «في مثل هذا الموطن» أي في هذا الوقت وهو زمان سكرات الموت.

وقوله: «إلّا أعطاه الله ما يرجو» أي من الرَّحمة «وآمنه ممّا يخاف» أي من العقوبة بالعفو والمغفرة.

وقوله: «هذا حديث غريب» قال ميرك عن المنذري: إسناده حسن، ورواه ابن أبي الدنيا أيضاً ـ كذا في المرقاة ـ. ورواه ابن ماجة أيضاً[1].

٩ـ وذكر البخاري في صحيحه[2] «باب الرجاء مع الخوف» وقال سفيان: ما في القرآن آية أشدّ عليّ من ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[3] ثم ساق ـ رحمه الله ـ بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق الرّحمة يوم خلقها مائةَ رحمة، فأمسك عنده تسْعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلِّهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافرُ بكلّ الذي عند الله من الرّحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المسلمُ بكلّ الذي عند الله من العذاب لم يأْمن من النّار».

فقوله: «باب الرجاء مع الخوف» أي استحباب ذلك، فلا يقع النّظر في الرّجاء عن الخوف ولا في الخوف عن الرّجاء لئلا يفضي في الأول إلى المكر وفي الثاني إلى القنوط وكلّ منهما مذموم، والمقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنّه بالله ويرجو أن يمحو عنه

---

(١) من تحفة الأحوذي ج ٤ ص ٥٨ بتصرف.

(٢) ج ١١ ص ٣٠٠، ٣٠١ فتح.

(٣) ٦٨/ من سورة المائدة.

ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأمّا من انهمك على المعصية راجياً عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقْلاع فهذا في غرور، وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: من علامة السعادة أن تطيع، وتخاف أن لا تقبل. ومن علامة الشّقاء أن تعصي، وترجو أن تنجو.

وقد أخرج ابن ماجة عن عائشة: قلت: يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهو الذي يسرق ويزني؟ قال: «لا، ولكنّه الذي يصوم ويتصدق ويصلي ويخاف أن لا يقبله منه». وهذا كلّه متفق على استحبابه في حالة الصحة، وقيل الأول: أن يكون الخوف في الصحة أكثر وفي المرض عكسه، وأمّا عند الإشراف على الموت فاستحب قوم الاقْتصار على الرّجاء لما يتضمن من الافْتقار إلى الله تعالى، ولأنّ المحذور من ترك الخوف قد تعذر فيتعين حُسْن الظنّ بالله برجاء عفوه ومغفرته، ويؤيده حديث: «لا يموتنّ أحدكم إلاّ وهو يحسن الظّنّ بالله».

وقال آخرون: لا يهمل جانب الخوف أصلاً بحيث يجزم بأنّه آمن، ويؤيده ما أخرج الترمذي عن أنس: «أنّ النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال له: كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلاّ أعطاه الله ما يرجو وآمنه ممّا يخاف».

وقول سفيان: ما في القرآن آية أشدّ عليّ من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

ومناسبته للترجمة من جهة أنّ الآية تدلّ أن من لم يعمل بما

تضمنه الكتاب الذي أنزل عليه لم تحصل له النَّجاة، لكن يحتمل أن يكـون ذلـك من الأصْـر الـذي كان كتب على من قبل هذه الأمّة، فيحصل الرّجاء بهذه الطريق مع الخوف.

وقوله: «فلو يعلم الكافر بكلّ الذي عند الله من الرَّحمة لم ييأس من الجنّة». قيل: المراد أنّ الكافر لو علم سعة الرحمة لغطى على ما يعلمـه من عظم العذاب فيحصل له الرّجاء، أو المراد أنّ متعلق علمه بسعة الرَّحمة مع عدم الْتفاته إلى مقابلها يطمعه في الرّحمة، ومطابقة الحديث للترجمة أنّه اشْتمل على الوعْد والوعيد المقتضيين للرّجاء والخوف، فمن علم أنّ من صفات الله تعالى الرّحمة لمن أراد أن يرحمه، والانْتقام ممّن أراد أن ينتقم منه لا يأمن انتقامه من يرجو رحمتـه ولاَ ييْأس من رحمتـه من يخاف انتقامه، وذلك باعث على مجانبة السيّئة ولو كانت صغيرة وملازمة الطاعة ولوْ كانت قليلة.

وقال ابن الحاجب: والمقصود من الحديث أنّ المكلف ينبغي له أن يكون بين الخوف والرّجاء حتّى لا يكون مفرطاً في الرَّجاء بحيث يصير من المرجئة القائلين لا يضرّ مع الإيمان شيء، ولاَ في الخوف بحيث لا يكون من الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد صاحب الكبيرة إذا مات عن غير توبة في النَّار، بل يكون وسطاً بينهما كما قال الله تعالى: ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[1]. ومن تتبع دين الإسلام وجد قواعده أصولاً وفروعاً كلّها في جانب الوسط، والله أعلم[2].

١٠ـ وعن خَبّاب بن الأرَتّ عن أبيه قال: «صلّى رسول الله ﷺ صَلاَةً

---

(١) ٥٧/ من سورة الإسراء.

(٢) فتح ج ١١ ص ٣٠٠ ـ ٣٠٢ باختصار.

فأطالها فقالوا: يا رسول الله صلَّيْتَ صلاةً لم تكن تُصَلِّيها، قال: أجَلْ إنّها صلاةُ رغْبَةٍ ورَهْبَةٍ، إنّي سألتُ الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثْنتيْن ومنعني واحدةً: سألْتُه أنْ لاَ يُهْلك أمّتي بِسَنَةٍ فأعطانيها، وسألْتُهُ أن لا يُسَلِّط عليهم عَدُوّاً من غيرهم فأعطانيها، وسألْتُه أن لا يُذيق بعضهم بأْسَ بعضٍ فمنعنيها». قال الترمذي[1] هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

المقصود من هذا الحديث قوله: «إنّها صلاة رغْبة» أي: رجاء «ورهْبة» أي: خوف.

قيل: أي صلاة فيها رجاء للثواب، ورغْبة إلى الله وخوف منه تعالى.

قال القاري: الأظهر أن يقال: المراد به أنّ هذه صلاة جامعة، بين قصد رجاء الثواب، وخوف العقاب، بخلاف سائر الصلوات، إذْ قد يغلب فيها أحد الباعثين على أدائها. قالوا وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[2] بمعنى أوْ لمَانِعة الخلوّ. ثم لما كان سبب صَلاَتِه الدُّعاء لأمّته وهو كان بين رجاء الإجابة وخوف الردّ طَوّلَهَا[3].

والحمد لِلّهِ الذي بنعمته تتّم الصالحات.

سبحانك اللّهم وبحمدك أشهد أن لا إلـه إلاَّ أنتَ، أستغفرك وأتوب إليك.

وكتب

صفوت عبد الفتاح محمود هلال

مصر

الكرامة ـ أجا ـ دقهلية

---

(١) ج ٦ ص ٣٩٧، ٣٩٨ تحفة الأحوذي.

(٢) ١٦/ من سورة السجدة.

(٣) تحفة الأحوذي ج ٦ ص ٣٩٧.

قائمة بأهم المراجع التي نقلتُ منها

١ـ القرآن الكريم . . . كتاب ربّ العالمين .

٢ـ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي .

٣ـ فتح القدير «الجامع بين فَنّي الرواية والدّراية من علم التفسير» لمحمد بن علي الشوكاني . دار الفكر. بيروت .

٤ـ تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدّمشقي . دار المعرفة . بيروت .

٥ـ الفخر الرازي «المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب» للإمام مُحمد الرازي فخر الدّين ابن العلامة ضياء الدّين عمر المشتهر بخطيب الريّ ـ دار الفكر.

٦ـ جامع البيان في تفسير القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ـ دار الجيل . بيروت .

٧ـ روح المعاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي . دار الفكر.

٨ـ الدّر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي . دار المعرفة .

٩ـ زادُ المسير في علم التفسير للإمــام أبي الفرج جمـال الـدين عبـد الــرحمن بن علي بن محمـد الجـوزي القُـرشي البغـدادي. المكتب الإسلامي. بيروت.

١٠ـ تفسير أبي السعود لقاضي القضاة أبي السعود محمد بن محمد العمادي. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

١١ـ محاسن التأويل لمحمد جمال الدّين القاسمي. دار الفكر.

١٢ـ تفسير المـراغي للأستـاذ أحمـد مصطفى المراغي. دار إحياء التراث العربي.

١٣ـ فتــح البــاري، شرح صحيح البخــاري. للإمـام ابن حجـر العسقلاني. دار الفكر.

١٤ـ صحيح مُسْلم بشرح النووي. دار الفكر.

١٥ـ عون المعبـود شرح سنن أبي داود للعـلامة أبي الطيب محمد شمس الحقّ العظيم أبادي. دار الفكر.

١٦ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للإمام أبي العُلَى محمد بن عبد الرحمن المباركفُوري. دار الفكر.

١٧ـ سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة. المكتبة العلمية. بيروت.

١٨ـ السُّنن الكبرَى لإمام المحدثين الحافظ الجليل أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. دار الفكر.

١٩ـ سنن سعيد بن منصور للإمام الحافظ سعيد بن منصور بن شعبة الخرساني المكي. دار الكتب العلمية. بيروت.

٢٠ـ سنن الدارقطني للإمام الكبير علي بن عمر الدارقطني. دار المعرفة.

٢١ـ مسند الإمام الشافعي لحبر الأمة وإمام الأئمة الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي. دار الكتب العلمية.

٢٢ـ مُسْنَد أبي داود الطيالسي للحافظ الكبير سليمان بن داود بن الجارود الفارسي البصري الشهير بأبي داود الطيالسي. دار المعرفة.

٢٣ـ الآداب للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت.

٢٤ـ الصَّمت وآداب اللسان للحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن عُبَيْد بن سفيان بن أبي الدّنيا. مؤسسة الكتب الثقافية.

٢٥ـ المصنّف للحافظ الكبير أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني. المكتب الإسلامي. بيروت.

٢٦ـ المعجم الكبير للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. مكتبة ابن تيمية. القاهرة.

٢٧ـ المعجم الأوسط للطبراني. مكتبة المعارف بالرياض.

٢٨ـ المعجم الصغير للحافظ الطبراني. مؤسسة الكتب الثقافية.

٢٩ـ مسند الشهاب للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي . مؤسسة الرسالة . بيروت .

٣٠ـ تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك للإمام السيوطي . دار الكتب العلمية . بيروت .

٣١ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني . دار الكتب العلمية .

٣٢ـ الإحْسان في تقريب صحيح ابن حبّان للأمير علاء الدين علي ابن بَلْبان الفارسي . مؤسسة الرسالة .

٣٣ـ نصب الراية لأحاديث الهداية للإمام الحافظ جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الحنفي الزيْلعي . دار إحياء التراث العربي .

٣٤ـ الإيمان للحافظ محمد بن إسحاق بن يحيَى بن منْده . مؤسسة الرسالة .

٣٥ـ شرح السّنّة للإمام البغوي . المكتب الإسلامي .

٣٦ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، بتحرير الحافظين الجليلين : العراقي وابن حجر. مؤسسة المعارف . بيروت .

٣٧ـ الترغيب والترهيب للحافظ أبي محمد زكيّ الدين عبد العظيم بن عبد القويّ ، المنذري . دار الفكر.

٣٨ـ كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي . مؤسسة الرسالة .

٣٩ـ مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، تحقيق الألباني. المكتب الإسلامي.

٤٠ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته «الفتح الكبير» لمحمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي.

٤١ـ ضعيف الجامع الصغير وزيادته لمحمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي.

٤٢ـ كتاب السنة للحافظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني، ومعه ظلال الجنّة في تخريج السنة للألباني. المكتب الإسلامي.

٤٣ـ الفردوس بمأثور الخطاب لأبي شجاع شِيْرَوَيْه بن شَهْرَدَار بن شِيْرَوَيْه الدّيلمي الهمذاني. دار الكتب العلمية.

٤٤ـ تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف للحافظ المزّي، مع النكت الظراف على الأطراف لابْن حجر العسقلاني. المكتب الإسلامي - الدّار القيمة بالهند.

٤٥ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي. دار الكتب العلمية.

٤٦ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي. دار الدّعوة استانبول.

٤٧ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، دار الكتب العلمية.

٤٨ـ المجموع شرح المهذب للإمام أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي. دار الفكر.

٤٩ـ تهذيب الكمال في أسماء الرّجال للحافظ المتقن جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزّي . مؤسسة الرسالة .

٥٠ـ سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبيّ . مؤسسة الرسالة .

٥١ـ رياض الصالحين من كلام سيّد المرسلين للإمام النووي . دار الفكر .

٥٢ـ إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد مُحمد بن محمد الغزالي . دار المعرفة . بيروت .

٥٣ـ في ظلال القرآن . سيد قطب . دار إحياء التراث العربي .

٥٤ـ لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري . دار صادر، بيروت .

٥٥ـ منهاج المسلم لأبي بكر الجزائري . دار الجيل .

٥٦ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية . دار الكتب العلمية . بيروت .